فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

439

أيلول 2023

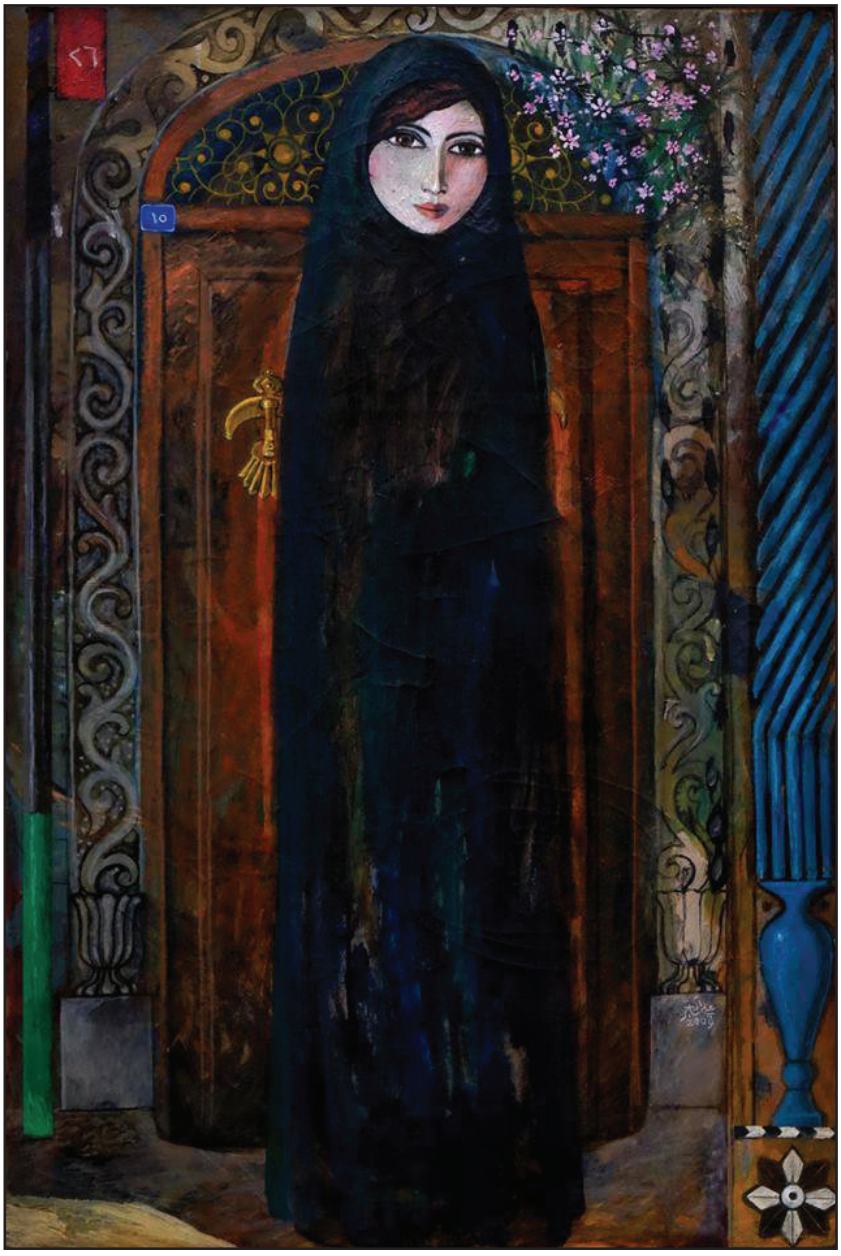

مقالات

مظهر محمد صالح
رعد موسى الجبوري
عادل كنيش مطلوب
نزهة عمور
نجاة تميم
محمد دهموش

نصوص قديمة

كامل شياع

نصوص مترجمة

ديتا غيرنس

حوارات

الثقافة الجديدة تحاور
الأستاذ احمد الدين

أدب وفن

حسب الله يحيى
نادية هناوي
محمد خضير
داود سلمان الشويلي
علي حسن الفواز
خالد خضير الصالحي
طلال حسن
علي المسعودي
جودت جالي
سعد جاسم
عبد الرزاق الربيعي
عبد الغفار العطوي
مقابلة مع جون فريمان
هاينرش بول

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل　　جـــــواد الزيدي
رضـــــا الظاهر　　علي إبـراهيـــم
كـــــاوة محمود　　مظهر محمد صالح
هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري
هـــاشـم نعمـة
سوران قحطـان
حسب الله يحيى
محرر "أدب وفن"

العدد 439
أيلول 2023

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

- أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- ان لا يتجاوز حجم المادة عن 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة 3000-2500 كلمة.
- ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
- باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
- وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
- ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
- ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
- يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
- بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
- بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
- بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مقالات

8 - المالية العامة العراقية:
بين الايديولوجيا الليبرالية والجدل الاقتصادي المدرسي.....مظهر محمد صالح
18 - إدارة وتكنولوجيا التعامل مع النفايات البلدية الصلبة في العراق.....رعد موسى الجبوري
26 - القدرات المستقبلية الخارقة للذكاء الاصطناعي.....عادل كنيش مطلوب
37 - الثورة الرقمية والتعليم الرقمي في العالم العربي ورهان الحداثة.....نزهة عمور
49 - إشكالية الهوية الثقافية للدولة.....نجاة تميم
58 - التاريخ والسرد ومأزق الحقيقة.....محمد دهموش

نصوص قديمة

64 - عن التاريخ والتأويل وحقيقة الرابع عشر من تموز.....كامل شياع

نصوص مترجمة

73 - علاقات قوى السلطة في روسيا اليوم،بقلم: ديتا غيرنس.....ترجمة: رشيد غويلب

حوارت

90 - الثقافة الجديدة تحاور الأستاذ احمد الديين.....حاوره : سوران قحطان

أدب وفن

103 - حرية التعبير في خطر.....حسب الله يحيى
104 - الشعر: تجييل أم تحول؟..... نادية هناوي
110 - أسد الجوع(سكيتش أنتيكيّ)..... محمد خضير
113 - القاص محمد خضير والواقعية السحرية.....داود سلمان الشويلي
118 - قراءات في قصص العدد الماضي.....علي حسن الفواز
124 - خضير الحميري
رسام الكاريكاتير الذي (يدسُّ) أنفه في كل شأن.....خالد خضير الصالحي
131 - مسرحيات قصيرة جدا.....طلال حسن
135 - السينما والرواية.....علي المسعودي
141 - قصة قصيرة (المعلم).....جودت جالي
147 - جرّة غاز تكفي للغياب.....سعد جاسم
149 - حارسُ الناس.....عبد الرزاق الربيعي
151 - وظيفة الصورة البلاغية
في قصص "بئر برهوت" لجابر محمد جابر.....عبد الغفار العطوي
157 - مقابلة مع فيليب روث:أجرى المقابلة: جون فريمان .....ترجمة: جواد وادي
161 - الخراف السود ،قصة:هاينرش بول.....ترجمها عن الالمانية : ماهر حوني

لوحتا غلافي العدد: الفنان علي آل تـاجر

التدقيق اللغوي: مصطفى عبـــــــاده

التصميم والاخراج الفني: علي العـــتابي

كلمة العدد

التغيير الشامل والحركة الاحتجاجية

يمرُّ العراق بواحدة من اشد مراحل تاريخه الحديث حرجاً وارتباكاً. فليس في تاريخه هذا إلا فترات قليلة مشحونة بالأحداث والتقلبات والممكنات كما هو الحال الآن. في المقابل، ها هو منتصف العام الأول من عمر حكومة السيد السوداني ينقضي دون انجاز جدي يذكر، حيث بقيت الحكومة على طبيعتها، مجرد حكومة ردود فعل. ولم تكن، كما هو متوقع، على مستوى المسؤولية. فهي في النهاية، كما أشرنا في عدد سابق، ليست إلا انعكاسا للطبيعة الهشّة للتحالف الذي شكلها، وللكتل السياسية التي يتكون منها. إنّها مجرد تمظهر جديد لنهج المحاصصة الطائفية/ الإثنية، الذي يتملص، بسبب ديناميكية اشتغاله ذاتها، من اي محاولة لترويضه او كبح جماحه من داخله، ان وجدت. وبالتالي، يندر من لا يتفق على ان البديل لنهج ومنظومة المحاصصة، يقع خارجه، وأن مضمون هذا البديل هو التغيير الشامل.

لقد قطع هذا البديل مراحل مهمة في طور تشكله؛ حيث لعبت القوى السياسية والاجتماعية التي انبثقت عن انتفاضة تشرين، بالإضافة الى الأحزاب السياسية الوطنية العريقة، دورا أساسيا في عملية بلورته. وستظل الحركة الاحتجاجية، التي ارتقت الى مستويات اعلى خلال انتفاضة تشرين 2019، المعين الذي لا ينضب في رفد مشروعه ما دام قائما. فعلى الرغم من ان الحركة الاحتجاجية في عراق ما بعد 2003، تمتد لسنين طويلة قبلها، لكن ستبقى الانتفاضة علامة فارقة في تاريخ الاحتجاجات الجماهيرية العراقية. فقبلها كانت اللوحة السياسية عند الكثيرين مبهمة ومشوهة، أما الآن، فهناك رؤية واحدة واضحة، تصوغ الأهداف النهائية بدقة مقبولة الى حد كبير. وذلك لأن الانتفاضة أكدت على ما كانت بعض القوى المدنية والديمقراطية تؤشر عليه، من ان نهج المحاصصة بمختلف أشكاله، وهو الواقع الصارخ في السنوات العشرين الماضية من تجربة "العراق الجديد"، هو المسؤول عن إنتاج الأزمات وجميع الظواهر السلبية التي يعاني منها البلد. وان التغيير يعني بناء دولة مدنية ديمقراطية عصرية، قائمة على أساس العدالة الاجتماعية. وان هذا التغيير سيكون نتاجا لحركة جماهيرية واسعة، سواء في ساحات الاحتجاج ام في صناديق الانتخابات.

وهنا، وفي هذه اللحظة الفارقة، يجب أنْ نسلطَ الضوء على بعض القضايا الملحّة بخصوص التغيير الشامل والحركة الاحتجاجية:

القضية الأولى، وإن كانت انتفاضة تشرين تمثل نموذجا راقيا وتجربة فريدة، فمن المهم أن يدركَ الجميع مكانها الحقيقي في التاريخ، بحيث لا يطلب منها، كما كان من المفترض، أن لا يُتوقع منها، ان تعطينا رؤية سياسية ونظرية أكثر مما فعلت.

الثانية، إذا كانت الأسباب والظروف الموضوعية التي أدت الى اندلاع الاحتجاجات، ما زالت قائمة،

بل وتتفاقم باستمرار، وأن عدم بزوغ فعل احتجاجي واضح المعالم في الوقت الحالي لا يعني بأي حال من الأحوال نهاية الحركة الاحتجاجية كإمكانية، فإن هذا يدفعنا ـ كمتابعين ـ الى التساؤل عن أسباب هذا الخفوت. خصوصا عن العامل الذاتي، وما هي طبيعة التحولات التي حدثت للجماهير المحتجة والمنتفضة ذاتها خلال هذه المرحلة؟ نؤشر هنا فقط، ان أحد اهم إنجازات الحكومة الحالية، هو نجاحها في تقديم "الرشى" الاجتماعية لبعض فئات وشرائح الشعب.

الثالثة، ان الاعتقاد الذي يستنتج أن التغيير الشامل يستند بالضرورة على حركة احتجاجية، فإن هذا يعني انه ينجز فقط عبر تمرد غاضب أو عصيان مسلح مع أو بدون القوات المسلحة، هو اعتقاد خاطئ ووجهة نظر غير سليمة عفا عليها الزمن ووجّهت لها سياط النقد منذ عقود. ولا يروّج لها إلا الطائشون، أو رجالات السلطة وأزلامها وأشباههم، وذلك بغرض شيطنتها وتبشيعهما بين السواد العام من الناس، أو لجرّ الثوار والجماهير والحركة الاحتجاجية الى معركة غير متكافئة.

الرابعة، من المفروغ منه أن التغيير في العراق يجب ان يكون شاملا. لكن ان يكون التغيير شاملاً لا يعني انه يتماهى بالمطلق مع "التغيير الحاسم"، الذي يحدث مرة واحدة والى الابد. ان مثل هذا التغيير القطعي صعبا بل وربما حتى مستحيلا في عراق اليوم لأسباب عديدة. من بينها على الاقل الآليات التي يدار بها البلد حاليا؛ وتشظي السلطة وتشرذم الولاءات. فأي تغيير حاسم يتطلب بالضرورة أدوات ومؤسسات لإنفاذ سلطته، وتحقيق إرادته. وهذ ما يفتقر له العراق حاليا. وبالتالي، أن التغيير القادم في العراق وإن كان شاملا فهو بحكم الواقع ـ ان استمرت الأوضاع على ماهي عليه الآن ـ عملية تدرجية تراكمية. وهذا يعني أيضا، أن على قوى التغيير أن توجد صيغ للتعامل مع القوى السياسية والاجتماعية التي يمكن ان تنسلخ موضوعيا عن منظومة المحاصصة.

الخامسة، ان موازين القوى السياسية والاجتماعية الحالية، تؤشر على ان التغيير لن يطرح خلال صيرورته قيادات يمكن ان تدعي زعامته. كما انه لن يحدث على ايدي أحزاب او حركات سياسية منظمة فقط، مهما كان الدور الضروري الذي تلعبه وستلعبه في تحديد سمات ووجهة المشروع. فهذه الأخيرة ستتحمل المسؤولية ليس فقط بالمساهمة في تفكيك نظام المحاصصة، وانما في رسم ملامح النظام القادم. ان التغيير سيكون أساسا نتاجا لتلاقي الآراء والإرادات العامة ضمن مجاميع وقوى اجتماعية هي على الاغلب غير متماسكة، ومتنوعة المشارب والمرجعيات بل وحتى متصارعة. لكن يوحدها ذلك الإجماع المدهش على وحدة الهدف وضرورة التغيير. وفي الغالب، سيستمر هذا المضمون للحركة الاحتجاجية في العراق في قادم الايام.

وأخيرا، في مثل ظروف العراق الحالية، يمكن تلخيص السيناريو الأكثر ترجيحا بالنسبة للاحتجاجات القادمة، في إدراكها أن تأثيرها المعنوي كبير جدا ويساوي، بل وفي كثير من الاحيان أكبر من أثرها المادي. وان انتصارها الفعلي يتمثل في قدرتها على تحشيد أكبر عدد ممكن من الجماهير. في مقابل زعزعة معنويات وبث الفرقة بين أطراف قوى المحاصصة وأذرعها الضاربة. اما الانتصار النهائي، فإن امكانية تحققه هو رهن تشابك وتداخل العديد من الظروف والعوامل، من بينها، العزلة والوهن الذين يجب أن يصيبا منظومة المحاصصة، لأسباب مختلفة، من بينها أسباب اقتصادية على وجه الخصوص. وربما سيكون من بينها حتى ذلك الحين، الدور الذي ستلعبه مشاركة قوى التغيير في انتخابات المجالس التمثيلية المختلفة، والنتائج التي ستحصل عليها، وفعاليتها هناك.

المالية العامة العراقية
بين الأيديولوجيا الليبرالية والجدل الاقتصادي المدرسي

د.مظهر محمد صالح

1-تمهيد: الاستدامة المالية وقيد الموازنة الأمثل

تنطوي السياسة المالية في اي بلد على مجموعة الوسائل والادوات التي تستخدمها الحكومة (السلطات المالية) من خلال الموازنة العامة للسيطرة على النفقات والايرادات العامة وادارة العجز وعلى وفق قواعد التعزيز (او الانضباط) المالي بغية تحقيق هدفين اقتصاديين بالغالب هما: الاستقرار في المستوى العام في الاسعار والتنمية الاقتصادية المستدامة.

ومن هذا المنطلق فإن استدامة التنمية الاقتصادية هي بنفسها بحاجة الى متلازمة تسمى: الاستدامة المالية (Fiscal Sustainability)، اذ تؤشر الاستدامة المالية عموماً على قدرة الحكومة في الحفاظ على نفقاتها وايراداتها بشكل مستمر في الامد الطويل دون ان تداهمها اية تهديدات تولدها مطلوبات Liabilities لا يمكن مواجهتها، مسببة تعثرات او عسرة مالية (Fiscal Insolvency) اذ تخضع عملية تعظيم الاستدامة المالية-Maxi mization الى قيد رياضي، يحيط ذلك التعظيم ويضمن مسار الاستدامة ويسمى: قيد الموازنة الأمثل

(Optimal budget constraint).

إذ يمثل قيد الاستدامة الأمثل خريطة الطريق التي تسير عليها الاستدامة المالية العامة دون تهديد من اية مطلوبات، حيث يتبع قيد الموازنة الامثل المركب الافتراضي الاتي : وهو ((ان لا تزيد النفقات الجارية والمستقبلية محسوبة بالقيمة الحاضرة الصافية NPV على الايرادات الحالية والمستقبلية محسوبة بالقيمة الحاضرة الصافية NPV ايضاً)).

2 - مناهج المالية العامة المتاحة في جدلية الدولة الريعية

أ - هناك سياستان ماليتان مسؤولتان عن عمل الاستدامة المالية:

أولًا: السياسة المالية التقديرية (Discretionary fiscal policy)

وهي سياسة تؤمن بتدخل الدولة للتأثير في آليات السوق، عن طريق فرض برامج مسبقة سواء في ادارة العجز او التمويل او الضرائب لتوليد قوة طلب السوق او ادارتها وتوجيهها لضمان الاستقرار الاقتصادي والنمو، وهي سياسة مالية كنزية (Keynesian policy) تتولى تنشيط طلب السوق عن طريق تقوية المضاعف الاستهلاكي ولاسيما في اوقات الركود وهي تتوخى ادارة الطلب الفعال Effec-tive demand المؤدي الى نمو الناتج المحلي الاجمالي. اذ تعد سياسة ادارة الطلب او الانفاق الفعال من السياسات المالية التداخلية Intervention policy في اقتصاد السوق الموجه.

ثانيًا - السياسة المالية التي تعتمد القواعد (قواعد السوق Market rule fiscal policy). وهي سياسة مالية تقوم على اعتماد ما يسمى بالمثبت الديناميكي ذي البنيان الداخلي (Built in dynamic stabilizer). وهو اتجاه استقراري يعتمد داخل الموازنة ويتولى مقاومة اثر متغيرات الاقتصاد الكلي او قوى السوق تحديداً كمتغيرات خارجية Exogenous على مسارات الموازنة في بلوغ أهدافها، وذلك لتفادي حصول ما يسمى التباطؤ الداخلي In-side lag في تغيير اتجاهات الموازنة، والذي يقتضي تداخلا تشريعيا غير متوافر في الحال، اي عدم توافر تشريع آني في ظل بيئة قانونية متصلبة (كالسماح باستبدال ضرائب الاجور او الدخل بالضريبة السالبة negative tax اي دفع الاعانات والدعم عند الحاجة او السماح بإيقاف الضرائب او اللجوء نحو الاقتراض لتمويل العجز او اي نشاطات مالية اخرى بصورة تلقائية). فالسياسة المالية التي تقوم على القواعد كما ذكرنا هي سياسة تقترب من المدرسة النقودية Monetarist school اي مدرسة ملتن فريمان/ شيكاغو Milton Friedman وتتوافق بالغالب مع المنهج الليبرالي الجديد.

ب - التنازع الأيديولوجي في المالية العامة العراقية

تأتي فرضية الدولة الصغيرة حسب اجماع واشنطن Washington consensus كمقدمة لتحليل سلوك السياسة المالية ومرتكزها الموازنة العامة في بلادنا. ويعد اجماع واشنطن بمثابة المنتدى الأيديولوجي الذي اسس لفلسفة الليبرالية الجديدة وبات المتبنى الفكري لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ووزارة الخزانة الامريكية. فمنذ العام 1989، سادت فرضية الموازنات العامة التي تقوم على القواعد rules اي قواعد السوق وتوازناتها (والتي لا تسمح للدولة بالتدخل الواسع في الاقتصاد الانتاجي بنفسها ولوحدها، بل على العكس تسمح بتدخل قوى السوق في بناء اتجاهات السياسة المالية لبلوغ اهدافها، ذلك بإطلاق حرية السوق بأقل القيود والضوابط).

فالعراق ومنذ تغيير نظامه السياسي بعد العام 2003، تأثرت السياسة المالية فيه اشد التأثير بمدرسة (القواعد وليبرالية السوق) حيث انقلبت المالية العامة العراقية من فلسفة التقدير او الاجتهاد المالي في إعداد الموازنة العامة (Disctionary fiscal)، وهو اتجاه كنزي، والميول لرأسمالية الدولة، متوجهةً نحو فلسفة القواعد

(Rules fiscal)، في متبنيات المالية العامة. اذ اتبعت المالية العامة وسياستها حركات السوق بتحفظ شديد وتكيفت معها ريعياً، ولاسيما في التعاطي مع تأثيرات اسوق الطاقة العالمية لتقترب أكثر من المنهج الليبرالي الجديد وباتجاهين:

الاتجاه الأول: الإيمان بمبدأ الدولة الريعية الصغيرة

Small rental state assumption وهو أحد مبادئ اجماع واشنطن، والتي تضمنت ان لا تكون الدولة هي المنتج المباشر والمالك للنشاط الاقتصادي وتحديدا الانتاج في قطاعي الصناعة التحويلية والزراعة الحكومية، الامر الذي قاد الى تعثر (المصنع العراقي الحكومي تحديداً) الذي قيد بدوره عموم الصناعة التحويلية لتقع تحت تأثير انفلات السوق وتحرير التجارة والقمع الذي مارسته سياسات الاغراق التجاري، ما جعل بطالة قوة العمل بسبب تعطل النشاط الانتاجي والحرفي الداخلي وعلى مدى عقدين من الزمن لتكون مستويات البطالة ومعدلاتها بمرتبتين عشريتين

dual digits unemployment ما شجع الحكومة تحت ضغط البطالة على التوسع في التعيينات الوظيفية الخدمية (ضعيفة الانتاج) وكأنما أمست الوظيفة العامة بمثابة (شركة كبيرة للتامين على الحياة ضد مخاطر البطالة ومقاومة ضغوط البطالة المستدامة). اذ صار على سبيل المثال إزاء كل عشرة مواطنين موظف حكومي واحد، في حين ان بلدان تماثلنا في السكان (كندا تحديدا) تجد ان امام كل 750 مواطنا موظف حكومي واحد. وكندا هي واحدة من البلدان التي بنت نهضتها ونموها على دواليب اقتصاد تصدير الخام Staples economy ايضاً.

اما الاتجاه الثاني، فيتمثل بقيام السياسة المالية العراقية وللمرة الاولى بإدخال (اتجاه) داخل الموازنة كما اسميناه آنفا هو: (المثبت الديناميكي ذو البنيان الداخلي. وهو توجه يأتي لتجنب او تفادي تأثيرات السوق ولاسيما اسواق الطاقة على آليات عمل الموازنة في تحصيل مواردها وتوجيه نفقاتها وادارة إشكاليات العجز فيها، اي تفادي تقلبات اسواق النفط وتأثر الريع النفطي وتقلب دورة الاصول النفطية (The cycle of oil assets) على موارد الموازنة العامة خلال السنة المالية الواحدة والتي تشكل تلك الموارد النفطية حوالي 90 بالمئة من إجمالي ايرادات الموازنة، اذ يوفر المثبت الديناميكي ذي البنيان الداخلي قدرة تعديل النفقات وتكييف الايرادات وتفادي اي (تداخل تشريعي متصلب) وتجنب حصول ما يسمى بالتباطؤ المالي الداخلي كما ذكرنا آنفاً. فمن امثلة مخاطر التباطؤ الداخلي على سبيل المثال: فرض الضرائب على العاملين العاطلين دون استبداله بالإعانة او عدم القدرة على توسيع برامج الدعم مباشر وغيرها وان الاستمرار بالجمود المالي دون تكيف ذاتي للصدمات الخارجية هو ما يطلق عليه بالمنحدر المالي (Fiscal cliff).

وبناءً على ما تقدم فان عمل السياسة المالية التي تقوم على قواعد السوق في المالية العامة العراقية (اي من خلال دور المثبت الديناميكي) قد اقتضت نمطا من انماط التكيّف وما يمكن ان نطلق عليه مجازاً بالمدرسة الكينزية الهجينة

hybrid Keynesian اي المتكيفة مع الليبرالية الجديدة والتي تقوم على مبدأين في الموازنات العامة السنوية وهما قبول (العجز الدائم) و(التحوط) وعلى النحو الاتي:

اولا: توليد عجز افتراضي -virtual fis cal deficit بسبب التحفظ في سعر برميل النفط دون المعدل العالمي وعد ذلك مثبتاً ديناميكياً ذا بنيان داخلي.

ثانيًا: بناء صندوق تحوطي داخل الموازنة وهو بمثابة (مصدة مالية fiscal buffer) واشبه بصندوق استقرار الموارد المالية سواء عن طريق الاقتراض الفعلي عند الحاجة او تجميع ريوع النفط عند بلوغ اسعار النفط معدلات تفوق السعر التقديري لبرميل النفط المصدر نفسه لأغراض تحديد عوائد الموازنة؛ اذ يتحول العجز الافتراضي تلقائيا وعلى وفق القواعد rules الى ظاهرة عجز فعلي عند هبوط دورة الاصول النفطية او على العكس يتلاشى العجز الافتراضي عند ارتفاع فروقات الريع النفطي وتعاظم التدفقات المالية مع تصاعد دورة الاصول النفطية نفسها. وهنا تكون المصدة المالية بمثابة صندوق استقرار داخل الموازنة نفسها On budget وليس خارج الموازنة كصناديق الثروة السيادية في بلدان نفطية اخرى.

ثالثا: التوجه نحو فلسفة تحفظية في ادارة المخاطر: وهي فلسفة تجنب المخاطر (Risk avoiding) في ادارة الموازنة العامة ولاسيما الموازنة الاستثمارية.

اذ لوحظ على مدار السنوات العشرين الاخيرة ان (العجز الافتراضي) يماثل (الانفاق الاستثماري) وهو اتجاه يتفق وسلوك مفهوم الدولة الصغيرة ليبرالياً. وهنا أصبح الانفاق الاستثماري بمثابة المتغير العشوائي في الموازنة (Stochas-tic element-) وبشكل مستمر. حيث تقوم نظرية إدارة الموازنة العامة على مبدأ تجنب المخاطر بمنح (علاوات مخاطر Risk premiums) والتي عطلت الانفاق الاستثماري نفسه كما سنبين ذلك لاحقا. اذ يلحظ ان المشاريع الحكومية المعتمدة التي تدرج بالغالب دون دراسة جدوى تمنح سلفا تشغيلية قيمتها 10 بالمئة من قيمة المشروع الاستثماري لقاء خطابات ضمان ضعيفة غالباً ومن دون القدرة على متابعة التنفيذ المادي. وفي نطاق (سياسة تجنب المخاطر) التي قامت على ربط العجز الافتراضي او حتى العجز الحقيقي بتخصيصات الانفاق الاستثماري او الموازنة الاستثمارية طوال عقدين من الزمن بالغالب تولد لدينا اكثر من 6000 مشروع متعثر بسبب قرارات حكومية قامت على ادارة موازنة قوامها (تجنب المخاطر) وبلغت تخصيصاتها اكثر من 100 مليار دولار خلال السنوات العشر ونيف الاخيرة كما يذكر، ومنحت المشاريع سلفا لمنفذيها بنحو ربما بلغ 35 مليار دولار وهي مشاريع متعثرة غير مكتملة. وعند اعادة تشغيلها تطبق شروط العقد بتصعيد اسعار المقاولة

(Contract price escalation) وتسمى اوامر الغيار وهو تجسيد فعلي لعلاوات المخاطر او تعويض كلفة المخاطر في ادارة الموازنة الاستثمارية ونفقاتها التي تأسست على تجنب المخاطر

(Budget risk avoids) اي بربط (علاوة المخاطر) ايضاً بدفع فروقات

(اوامر الغيار) في حال عجز المشاريع وتعثرها عند استئناف العمل بها ثانية بعد فترات من التعثر الطويلة. فضلاً عن تلازم العجز الافتراضي نفسه في القيمة مع الانفاق الاستثماري الحكومي كظاهرة خطيرة استمرت طوال عقدين من الزمن بالغالب.

ج - المالية التعويضية ومشكلات الوهم المالي.

اولاً - الوهم المالي (Fiscal illusion) والموازنة العامة التعويضية

يتجسد الدافع الرئيس للسياسة المالية التعويضية او الموازنة التعويضية نفسها، في مبدأ أن الحكومة يجب أن تضخ نفقات إضافية لإعادة الطلب او الانفاق الى المستوى المستهدف اي طالما ان الإنفاق الحكومي قادر على تعويض انخفاض الإنفاق الخاص. ويسمى هذه النمط من السياسة المالية بالسياسة المالية التعويضية. ولكن التعويض هنا يتم ذاتيا self-compensatory fiscal من خلال تحويل التخصيصات الاستثمارية غير المصروفة او المنفقة الى فقرات الانفاق الجاري الثابت في الموازنة نفسها والذي يمثله الإنفاق التشغيلي الحكومي لنفسه وهو إنفاق يصرف بنسبة 90 بالمئة بالغالب. اذ تمتلك تلك التخصيصات المعوضة القدرة على الانفاق الفوري بسبب طبيعتها الاستهلاكية. وبالمقابل نجد ان ثمة ضعفا شديدا في تنفيذ الموازنة الاستثمارية التي يبلغ مستوى الصرف السنوي فيها بالغالب 28 بالمئة مما هو مخطط في مشاريع البنية التحتية. اذ تنتهي السنة المالية (بعجز في تنفيذ المشاريع) ولكن (بفائض مالي) يجري تدويره عبر الموازنات التعويضية لمصلحة الانفاق التشغيلي في السنة اللاحقة تحت تأثير الظواهر الاتية:

1 - ظاهرة الوهم المالي

يعرف الوهم المالي باختصار كما نوّهنا سلفاً على ان الحكومة هي دون مستوى الصرف او الانفاق (under spend-ing)، وعليه فان فرضية ربط فكرة الدولة الصغيرة بالعجز الافتراضي الذي ينبغي ان يساوي الانفاق الاستثماري وما يترتب عليه من علاوات مخاطر هي من اخطر الظواهر التي عطلت استقرار برامج تمويل التنمية من جانب وولدت ارصدة من تدفقات مالية استثمارية غير مصروفة عززت بالوقت نفسه من ظاهرة الفوائض المالية الوهمية (التي تماثل العجز في البنية التحتية والمشاريع الاستثمارية غير المنفذة) ذلك تحت ظاهرة الوهم المالي لتقود الى سلوك مفاده ولادة اتجاه يمكن تسميته: بالمالية العامة التعويضية الذاتية، اذ تعادل هنا التخصيصات المالية (غير المصروفة جراء القصور في تنفيذ المشاريع الاستثمارية خلال السنوات المالية المتعاقبة) لتعوض نسبة علاوة مخاطر risk premium التي ترسمها الحكومة جراء العجز في تنفيذ المشاريع الاستثمارية، والذي يأتي من تحت مبدأ عشوائي stochastic خطير في التنفيذ يقضي بربط فكرة او فلسفة العجز الافتراضي بالإنفاق الاستثماري عشوائياً ووجود المصدة المالية، ذلك جراء الميل في اعداد الموازنة العامة على اساس السياسة المالية القائمة موازنتها السنوية على قواعد السوق (market rules).

وهنا تنتهي السياسة المالية التي تقوم

على قاعدة السوق بفكرة هي ان الحكومة هي دون مستوى الصرف وهي امام وهم مالي. نظرية أثارها الاقتصادي الايطالي بوفياني (Puviani 1903 . A) ما قاد لتبني سياسة مالية تعويضية ذاتية للتعويض عن نقص السلع العامة (public goods) ونقص البنية التحتية برفع نفقات الموازنات التشغيلية سنوياً على حساب المشاريع الاستثمارية وتخصصاتها غير المصروفة فعلاً. وكانت خطورة الموازنات التعويضية انها ذاتية ومشتقة من علاوة المخاطر نفسها اي ان تعظيم الانفاق التشغيلي الاستهلاكي الحكومي وتوسيعه بات ليصبح على حساب قدرات الانتاج والايرادات المنتجة الحكومية من القطاعات غير النفطية. والمالية التعويضية هنا ليست بمعنى التعويضية الكينزية لتحريك وتعويض الطلب الفعال في نشاط السوق، بل لمصلحة الانفاق الاستهلاكي الحكومي الجاري وهو الامر الذي ولد باستمرار عجزاً في الارصدة المالية الاولية او الرئيسة في القطاعات غير النفطية

(Non-oil primary fiscal balances) الذي يقدر العجز اليوم في تلك الارصدة بنحو (سالب 75) للعام 2023 حسب تقرير خبراء صندوق النقد الدولي الاخير، وهو عجز هيكلي حقيقي ومالي في جيد الاقتصاد الكلي ناجم عن تراجع الانفاق الاستثماري الانتاجي الحكومي (بفعل تأثير ظواهر الليبرالية الجديدة)، وان الموازنة التعويضية الذاتية هي مبدا استهلاكي يرتكز على مفهوم الدولة الصغيرة الريعية غير المنتجة، فالمبدأ الاستهلاكي للحكومة الريعية غير المنتجة، يقوم بلا شك على متناقضة اساسها تعظيم الطلب الاستهلاكي الحكومي وتقليص الطلب الاستثماري الحكومي تلقائياً ولاسيما خواء البنية التحتية والابتعاد حتى عن فكرة تعظيم طلب السوق كينزياً من خلال التعويض المالي (Compensatory fiscal) او الموازنة التعويضية كما يفهمها اصحاب المدرسة الكينزية في الاقتصاد والموجهة في الانفاق الى السوق مباشرة لتعويض نقص الانتاج ، بل هو توجه انفاق تبذيري استهلاكي ساد على مدار عقدين من الزمن وهو يتناغم تلقائيا والهروب من فكرة الدولة المنتجة الكبيرة والقطاع العام.

2 - المالية العامة التعويضية الذاتية وقيد الموازنة الهش

Soft budget constraint

(أ) مشكلات نظرية الوكالة المزدوجة Dual agency theory في القطاع الحكومي

ان من أخطر ظواهر الموازنة التعويضية الذاتية والتي أشرنا اليها سلفًا ((والتي تحولت بموجبها بالغالب الارصدة الاستثمارية الفائضة في الموازنات السنوية (جراء قصور تنفيذ الانفاق الاستثماري) الى توسع سنوي في الموازنات التشغيلية ذلك بغية التعويض عن نواقص توافر السلعة العامة التي يولدها الانفاق الاستثماري الحكومي الكفء. انها عملية تراكمية سالبة قامت بالتعويض عن النقص الاستثماري الحكومي بتوسيع الانفاق التشغيلي)) وشكلت انقلاباً حاداً في مسار الاستدامة المالية Fiscal sustainability وتحول القيود من قيد الموازنة الامثل الى قيد الموازنة الهش، وهي نظرية الهشاشة

المالية التي جاء بها الاقتصادي الكبير Kornai جوناس كورناي في كتابه الصادر في العام 1979 والموسوم The economics of shortages ومفادها:

ان تتعدى المصروفات العامة الايرادات العامة دون ان تشكل خرقا قانونيا اي امكانية ان يكون النشاط الانتاجي دون نقطة التعادل under breakeven point وتشمل حاليا اوضاع قطاع الايرادات غير النفطية ومنها: الكهرباء والمصارف والكمارك والضرائب والمشاريع الصناعية الحكومية المعطلة وعموم خدمات القطاع العام. وهنا يسوغ قيد الموازنة الهش قبول مشكلات (الوكالة المزدوجة dual agency theory) في تدهور الحوكمة بأركانها: المساءلة والشفافية والمشاركة، فالوكيل agent وهم المديرون يعظمون دالة المنفعة utility maximize لديهم بالامتيازات ويتجنبون المخاطر risk avoider ذلك بالتضحية بالربح من اجل الامتيازات والحفاظ على البقاء الوظيفي، طالما (المنح المالية متوافرة مركزيا وجاهزة للتعويض من ايرادات النفط او الاقتراض المصرفي تغطي الخسارة مركزياً) في حين ان المالك prin-cipal اي الحكومة تنتظر تعظيم الربح profit maximize وهي محبة او مفضلة للمخاطر risk lover وانها تسدي بالمسؤولية بان يتحمل الوكيل مسؤولية كفاءة الانتاج عند نقطة التعادل بين النفقات والايرادات breakeven point وليس اقل من ذلك، وهو امر لم يتحقق اذ يرتكن الى مبدأ قيد الموازنة الهش، لذا مازالت الايرادات الحكومية غير النفطية اقل من 10بالمئة من اجمالي الايرادات العامة وتتعثر تحت قيد الموازنة الهش.

(ب) فشل السوق Market failure

شكلت الموازنات التعويضية الذاتية العامل الخارجي السالب Negative externality الناجم عن تعويض نواقص السلعة العامة بتعويض الانفاق التشغيلي للحصول على السلع الخاصة private goods للعاملين في الدولة بعد ان امست البنى الارتكازية او التحتية كسلع عامة غير الكافية في نموها واكتمال خدماتها. كما أن الموازنات التشغيلية بشكلها التعويضي الذاتي اهي لاساس الموضوعي الذي شخصته نظرية الخيار العام (ولاسيما الارضاءات السياسية التي سبق تناولها في بحث لنا تحت عنوان: نظرية الخيار العام والوهم المالي: ومضة في سلوك المالية العامة العراقية 2022)، ليصار الى فشل السوق.

فالسوق في فشلها لا تحقق استقرارها بالعرض والطلب بما في ذلك سوق العمل، وان السوق لم تبلغ ما يسمى بأمثلية باريتو Pareto optimality وهي نقطة توازن الاستغلال الامثل للموارد والرفاهية عند منحنى امكانات الانتاج، وبعدها فان اي فرد يكون في حالة رفاهية مضافة معناه ان هناك شخصا يعاني من تدني في رفاهيته (اي ان رفاهية الاول تكون على حساب رفاهية الثاني) وهو تأكيد لفشل السوق.

فاذا كانت العوامل الخارجية externalities في الاقتصاد بمثابة التكلفة الخارجية externality cost أو (التكلفة الخارجية غير مباشرة) أو أحيانا تكون على العكس

منفعة خارجيةexternality benefit يؤديها طرف آخر ثالث غير مشارك في السوق (اي هي العوامل التي تنشأ نتيجة لنشاط طرف آخر غير مشارك بشكل مباشر في السوق) فانه يمكن عد العوامل الخارجية على أنها سلع غير مسعرة تشارك في معاملات سوق المستهلك أو المنتج. وبالرغم من ذلك فقد تلقت السوق الوطنية في فشلها تاثيراً سلبياً للعامل الخارجي ونقصد به الدور غير المرغوب الذي ولدته (الموازنات الذاتية التعويض) كعامل خارجي سالب على توازن السوق واستقراره جراء تراجع الإنفاق الاستثماري وتحويله تدريجيا الى الانفاق التشغيلي ذي الطبيعة الاستهلاكية بالغالب.

كما ولّد العامل الخارجي السالب أثرين إضافيين:

الاول: ان ارتفاع الاجور الحكومية دون ارتفاع الانتاجية امر ادى الى فشل السوق ذلك بدفع الاجور نفسها ولكن بإنتاجية منخفضة او اقل في قطاع السوق ويطلق عليها في علم الاقتصاد (تأثير بومل Buomil effect) الذي ينصرف التأثير أيضًا باسم: (مرض تكلفة بومل Buomil cost disease نسبة الى عالم الاقتصاد الامريكي Buomil وهو ارتفاع الأجور في الوظائف التي شهدت زيادة طفيفة أو معدومة في إنتاجية العمل، استجابةً لارتفاع الرواتب في الوظائف الأخرى التي شهدت نموًا أعلى في الإنتاجية (ولكن في المالية العامة الريعية لم تشهد نمواً في الانتاجية بالضرورة) واثرت بارتفاع اجور القطاع الاهلي.

والثاني، هي الكلف الاجمالية الاضافية التي تتحملها دالة الانتاج في القطاع الخاص والناجمة عن تعويض تدهور البنى التحتية ونقص خدماتها كعامل خارجي سالب وعدم توافرها كسلعة عامة او شبه عامة، الامر الذي قمع القدرات التنافسية في السوق ازاء السلع المستوردة المماثلة.

4 - نحو قيد الموازنة الصعب

((Hard budget constraint

صناديق التنمية انموجاً))

أ-ابتدأت الخيارات المتاحة امام الحكومة، في متبنياتها الانمائية في موضوع معالجة فشل السوق، باستخدام المتغير الخارجي الايجابي positive externality الذي ينصرف الى عمليات بناء السوق او (خلق السوقmarket creation) اذا بدأت المالية العامة التعويضية بمنهج كنزي يمثل نوعا من المالية التعويضية غير الذاتية non self-compensatory fiscal من خلال التحول الى فكرة (صناديق التنمية) كبديل لتصحيح الموازنة التعويضية وتحويل (الوهم المالي الى حقيقة مالية تنموية). بعبارة اخرى تمويل الرهن المالي والمالية التعويضية الذاتية الى متغير خارجي موجب اي ابعاد قطاع السوق من ظاهرة المتغير الخارجي السالب قلبه الى متغير خارجي موجب positive externally للتقليل من فشل السوق الناجم عن الوهم المالي والذي ساهم على مدى عقدين من الزمن في ضرب توازنات السوق وفشلها ازاء استمرار تدهور الانفاق الاستثماري العام ادى الى ارتفاع مهول في كلفة البنية التحتية كسلعة عامة مجانية او حتى في تاثير انحراف الاجور الحكومية من خلال العمل بإنتاجية ضعيفة.

ب- ان صناديق التنمية بما في ذلك صندوق

العراق للتنمية الذي اقر بموجب النظام رقم 3 لسنة 2023 هو في تقديري مسار تصحيحي كنزي المنهج، ولا يتقاطع مع ليبرالية السوق بل يأتي بالغالب كاستجابة نسبية لمتطلباتها تحت ظروف ريعية خاصة جدا، اي بإعادة استخدام المالية التعويضية compensatory fiscal بغية تشجيع الطلب الاستثماري في السوق عن طريق القروض الميسرة او اطلاق شراكة القطاع الخاص الاستثمارية مع مشاريع الدولة partnership وهو نمط من انماط الشراكة بين الدولة والسوق، وهي نماذج تملك مستحدثة تقترب من فكرة الخصخصة في الاحوال كافة...!

ج- وأخيراً تؤشر الملامح الفلسفية للموازنة العامة الاتحادية 2023 - 2025 مساراً تصحيحياً لإدارة مخاطر الموازنة خصوصا والسياسة المالية المعتمدة على قواعد السوق عموماً ولاسيما تحمل علاوات مخاطر من مما اشرنا وتصحيح المالية التعويضية الذاتية من كونها ظاهرة تخضع لشروط ومحددات نظرية الخيار العام public choice theory التي تحد في تحيز السياسيين عند تبنيهم الموازنات التعويضية لمصالحهم الذاتية كما يرى ذلك عالم الاقتصاد

الليبرالي بوكانانJames MBuchanan

* الى سياسة مالية شبه تقديرية

semi discretionary fiscal policy

اي شبه كنزية تدخلية في السوق، ولكن لدعم الطلب الاستثماري من خلال إشاعة فكرة ((صناديق التنمية الموجهة للاستثمار الاهلي او المشترك)):

وهي محاولة لتعظيم معادلة الارصدة المالية الرئيسة غير النفطية ولاسيما تعظيم (الناتج المحلي الاجمالي غير النفطي (Non-Oil GDP).

ان الهدف من ذلك يأتي لخفض العجز المالي في الارصدة الرئيسة غير النفطية من مستوى عجزها الحالي البالغ (سالب 75) الى (سالب 20) دون الاخلال بفرضية الدولة الصغيرة في الانتاج الحقيقي كما تظهر في مبادئ واحكام وآليات الصندوق العراقي للتنمية من حيث شدة الشراكات مع القطاع الخاص، وهو تضامن جديد بين اقتصاد الدولة واقتصاد السوق، ونجده بالغلب نمطاً مالياً ليبراليا ريعيا معدلا جديدا Modified Rental neo liberal fiscal.

اذ يتألف قيد الموازنة الصعب وهو ما يطلق عليه احيانا: قيد الموازنة المتداخل زمنياً intertemporal budget constraint وهي معادلة يبقى (بسطها) يمثل الفرق بين الايرادات غير النفطية واجمالي الانفاق العام بعد تجريد الاخير من خدمات الدين العام، في حين ان (مقام) المعادلة يمثل الناتج المحلي الاجمالي غير النفطي.

هـ- ختاماً، امست الاستدامة المالية بأمس الحاجة الى قيد الموازنة الصعب المنوه عنه انفا، وان تخطيطا ماليًا مرغوبا يقتضي ان يبلغ العجز في الارصدة المالية الرئيسة غير النفطية الى ((سالب مرتبة عشرية واحدة)) ليشكل جوهر فاعلية قيد الموازنة الصعب في ضمان مسار الاستدامة المالية كي تتحقق استدامة التنمية والازدهار الاقتصادي في الوقت نفسه.

1 - المصادر العربية

– مظهر محمد صالح، العراق وصندوق النقد الدولي: التسلق على جدران العلم الكئيب، شبكة الاقتصاديين العراقيين، 5 حزيران2023 .

– مظهر محمد صالح، المالية العامة العراقية في مأزق سياسة التوقف–السير المزدوج، شبكة الاقتصاديين العراقيين، 15 آب 2022.

– مظهر محمد صالح، نظرية الخيار العام والوهم المالي: ومضة في سلوك المالية العامة العراقية، أوراق في السياسة المالية، شبكة الاقتصاديين العراقيين، 29 كانون الثاني 2022.

2 - المصادر الاجنبية

Friedman, Milton (1953). Essays in Positive Economics. University of Chicago Press

Kimberly Amadeo, (2021) Discretionary fiscal policy : How the Government Uses and Ab uses Discretionary Fiscal Policy

Kornai , J (1980). Economic of Shortage, Amsterdam: North Holland Press, vol. A, p. 27; vol. B, p. 196

Kornai›s Soft Budge Constraint and the Shortage Phenomenon: A Criticism and Restatement, in: Economics of Planning, vol. 19, no. 1, 1985

James M. Buchanan and Richard E .Wagner, Democracy in Deficit: The Political Legacy of Lord Keynes, N.Y Academic press 1977

Smayth D.J (1966) Built in Flexibility of Taxation Automatic Stabilization

Journal of Political Economy, vol. 74, no. 4 (Aug., 1966), pp. 396-400

The Collected Works of James M. Buchanan, vol. 8, liberty Fund, Inc, 2000

---

* في تاريخ المالية العامة الرأسمالية فقد عدّ الاقتصادي الامريكي جيمس بوكانان الاب في تطوير نظرية الخيار العام. وهي النظرية التي تختبر العلاقة بين العلوم الاقتصادية والعلوم السياسية. وفي الوقت نفسه هي منهج من مناهج تحليل السياسة الاقتصادية القائمة على دوافع القوى السياسية Politicians والقوى البيروقراطية الملازمة لها إزاء الموازنات العامة والتي اطرها في مؤلفه الشهير في العام 1977 والموسوم : الديمقراطية في عجز (أنظر المصادر). اذ تصدى بوكانان مع زميله فاغنر (Wagner R.E) إلى الفكرة التي تقول ان سياسة الاقتصاد الكلي الكنزية تعتمد على فرضية مفادها ان صناع القرار يتصرفون على وفق المصلحة العامة وليس على وفق مصالحهم الشخصية. ويخالف بوكانان الراي الكنزي بالقول: انه طالما ان صناع القرار (السياساتي) هم من بني البشر، وانهم سيتصرفون مثل باقي الناس ولاسيما في تعظيم دالة منفعتهم الشخصية بدلاً من اعتماد مبدأ نكران الذات او الايثار على انفسهم في سلوكهم و امتثالهم للقانون وللسياسات المثلى التي تقدم الأفضل لعموم الامة، فانهم كمشرعين سيستخدمون السياسة المالية التعويضية لمصالحهم الانتخابية، اي في كسب الناخبين عن طريق استخدام الوهم المالي كالتنزيلات الضريبية وغيرها والتي تتم لأغراض انتخابية حتى وان كان ذلك على حساب المصلحة العامة .

إدارة وتكنولوجيا التعامل مع النفايات البلدية الصلبة في العراق

د. رعد موسى الجبوري

في اللغة، تشير كلمة نفايات إلى المادة المتبقية عديمة الفائدة وغير المرغوب فيها، لذا يجب ان تنفى. إنّ اغلب الأنشطة البشرية وعلى مدى التاريخ تولد نفايات ويتم التخلص منها لأنها تعتبر عديمة الفائدة. واغلب هذه النفايات تكون في العادة صلبة، ويمكن ان تكون سائلة أو غازية. وانها تنشأ نتيجة نشاط معيشي بلدي أو منزلي أو صناعي أو زراعي أو طبي أو نشاطات خاصة. مع ذلك، فنحن ندرك اليوم انه يمكن إعادة استخدام العديد من هذه النفايات، وبالتالي تصبح موردا للاقتصاد والإنتاج مثل توليد الطاقة، إذا ما تم التعامل معها بشكل صحيح.

بعد ظهور وتطور الصناعة وازدياد الاستهلاك في المجتمعات أصبح التعامل مع النفايات احد أهم المشاكل في عصرنا، لأن طريقة الحياة "الحديثة" تدفع لانتاج كميات هائلة من النفايات والتي تؤثر بشكل ضار على البيئة والصحة العامة، ولكن معظم الناس يريدون الحفاظ على أسلوب حياتهم الاستهلاكي "الحديث"، ولهذا السبب يجب على اجهزة الدولة ضمان حماية البيئة والصحة العامة من خلال اتخاذ اساليب وطرق ادارة جيدة وفعالة للتعامل مع النفايات. وهنا يجب على الدولة والمساهمين في الصناعة والمواطنين والهيئات التشريعية البحث عن وسائل لتقليل الكمية المتزايدة من النفايات التي تتخلص منها المنازل والشركات وإعادة استخدامها أو التخلص منها بأمان وبشكل اقتصادي وفعّال. في هذا المقال سنقدم عرضا للتطورات الحاصلة في التعامل مع هذه المعضلة مع الاشارة الى التجارب المهمة في بعض البلدان.

تاريخيا، تم العثور على أول منظومة ادارة للنفايات في آثار قرية الكوم في تدمر في سوريا حاليا، وكانت لتصريف المياه القذرة وبعد ذلك عثر في روما على اثار لادارة المياه القذرة والنفايات والتي امتازت بطابعها الطبقي، اذ كانت هذه الخدمات لا تقدم الا للطبقة الثرية فقط.

بعد الثورة الصناعية جاءت الدعوات لإنشاء سلطة بلدية تتمتع بصلاحيات إزالة النفايات ففي عام 1751 اقترح كوربين موريس في لندن التالي: "نظرًا لأن الحفاظ على صحة الناس له أهمية كبيرة، فان المقترح هو وجوب

وضع تنظيف هذه المدينة تحت إدارة عامة موحدة، وأن يتم نقل القذارة بواسطة نهر التايمز وإلى مسافة مناسبة في البلاد"[1].

وهكذا تطورت اساليب التخلص من النفايات في بريطانيا ولحقتها مدن اوروبية وأمريكية اخرى. وتم انشاء أول محرقة للنفايات عام 1874 في نوتنكهام.

وللأسف لم تتمكن مؤسسات الدولة العراقية منذ نشأتها عام 1921 من وضع نظام ادارة للنفايات حديث وكفوء وفعال ولحد اليوم.

ولكن النفايات تعتبر من مشاكل المدن الاساسية وتنشأ نتيجة التطور المتسارع وزيادة الرفاهية في المجتمعات، ويجب حلها لضمان تواصل التطور والتنمية. وبازدياد عدد سكان العراق وتطور مستوى معيشتهم واستهلاكهم المضطرد يزداد انتاج كمية النفايات البلدية الصلبة بشكل سريع، اذ بلغت كمية النفايات عام 2022 حسب تقارير الامم المتحدة 30 الف طن يوميا[2].

وهنا يمكن ان نستنتج ما يأتي:

1 - ان النفايات نتاج لنشاطات البشر ولا توجد في الطبيعة بنفسها،

2 - ان بعض هذه النفايات لا يمكن ان يكون لها استعمال لاحق ولن تكون لها فائدة لاحقة ويجب التخلص منها،

3 - بعض هذه النفايات يمكن استخدامه ويمكن ان تحوي عناصر يمكن استخدامها لاحقا.

ولا تزال معالجة النفايات في العراق متخلفة جدا عن مستوى تجارب وخبرات دول العالم، فلحد اليوم يتم كب النفايات الصلبة في مكبات مفتوحة وغير نظامية، بدون معالجة بشكل صحيح، مما يؤدي الى نشر السموم ومسببات الامراض، وهذه السموم والجراثيم تنتشر:

1 - بانتقالها عبر حبيبات الغبار مع الرياح وعواصف الرمال ودخولها الجهاز التنفسي للبشر والعيون والبشرة.

2 - وبواسطة مياه الامطار التي تتسرب حتى الى طبقات التربة العميقة ما سيؤدي الى نقلها الى المياه الجوفية وبذلك يزداد خطر تأثيرها وانتقالها الى جسم الانسان من خلال الجهاز الهضمي.

3 - وتساهم الحيوانات البرية والطيور والحشرات في نقلها ايضا، فالكثير من هذه الكائنات تستعمل مكبات النفايات كمصدر لغذائها ومن ثم تنشرها من خلال إفرازاتها وبرازها.

وتؤدي تفاعلات القمامة العضوية الى تكون وانبعاث كميات كبيرة من غاز الميثان الضار بالبيئة وهو احد اهم اسباب ظاهرة الاحتباس الحراري. اضافة للمضار الصحية والبيئية فان الاستمرار على سلوك طريقة المكبات الحالية يؤدي الى تلوث واستغلال مساحات كبيرة من اراضي العراق لاستخدامها فقط لهذا الغرض. وستضيع هذه المساحات ولا يمكن استغلالها للنشاطات البشرية الاخرى كمورد في مشاريع تنموية فلا يجوز التفريط بهذه المساحات في حالة وجود بدائل مناسبة وأكثر فعالية. لذا من الضروري اتخاذ اجراءات فاعلة وكفوءة لحل هذه المشكلة في العراق والتي ستتزايد وتتفاقم مع التطور الاقتصادي المستمر الجاري في البلاد.

ما تقدم من مضار يشير الى الكلف الباهظة التي يسببها اهمال حل المشكلة.

وهنا يجب طرح افكار وبدائل وحلول ذات فاعلية وكفاءة لمعالجة الموضوع. ومن الضروري ان تستند هذه الحلول على استراتيجية مستدامة لتشمل جانبين إجرائيين:

1 - حلول سريعة عاجلة في البداية

2 - حلول على المدى المتوسط والبعيد.
ولا يجب ان يفهم هذا التقسيم على انه عزل وفصل للحلول السريعة عن الحلول المتوسطة والبعيدة المدى بل يجب ان تكون هذه الحلول مترابطة ومتكاملة وتسند بعضها البعض.

الحلول السريعة العاجلة

المباشرة ببناء منشآت لمعالجة وتحويل هذه النفايات.
فلقد شهدت هذه التكنولوجيات تطورا كبيرا وخاصة في بلدان اوروبا الوسطى (المانيا والنمسا) نتيجة ظروف تلك البلدان ومنها:
1 - القوانين البيئية الواضحة
2 - تطور هذه البلدان التقني والعلمي
3 - الكثافة السكانية العالية
وهنا وفي عملية اختيار التكنولوجيا المناسبة للعراق، من المهم جدا اعتماد اسس واضحة وعلمية في تقييم الجدوى لهذه التكنولوجيات والتركيز على الاولويات والخصوصيات المحلية السائدة في العراق.
مثلا، انتشرت مؤخرا فكرة توليد الطاقة من النفايات. نعم، هذه التكنولوجيا مهمة ونضجت وتستعمل في كثير من البلدان، لكنها لم ولن تحل مشكلة النفايات ولا مشكلة الطاقة لوحدها فقط؛ ففي بلد متقدم في استخدام هذه التكنولوجيا مثل الدنمارك لا تتجاوز الطاقة الكهربائية المولدة من حرق النفايات سوى 5 بالمئة من مجمل الطاقة المنتجة. ولكن في المانيا هناك تشريع يلزم الجميع بمعالجة النفايات حراريا قبل طمرها، وهذا لأسباب سنأتي عليها لاحقا.
في هذا الموقع ننصح بتحديد الاهداف الآتية في عملية التقييم:
1 - النظر الى قيمة واهمية وتعددية استخدام الناتج النهائي بعد عملية معالجة النفايات وماهي التوابع التالية بعد استغلال هذا الناتج... اي ان مشروع معالجة النفايات يجب ان يساهم في استخدام ناتج معاملة النفايات و اضافة فائدة الى الاقتصاد، مثل: الطاقة، الوقود، اسمدة، معادن.. الخ.
2 - يجب ان يكون لهذه التكنولوجيا اثر مباشر وفاعل في تخفيف الضغط او الغاء استخدام مدافن طمر القمامة.
3 - ان تكون طريقة المعالجة ذات جدوى واستدامة مالية واقتصادية.
4 - ان تساهم هذه التكنولوجيا في انتاج طاقة خضراء صديقة للبيئة ومتجددة.
5 - ان توفر مناخا انسانيا مقبولا للعمل وان لا تكون مصدرا للتلوث البيئي من خلال انبعاث كميات من الغازات الضارة او المواد السائلة او الصلبة غير المناسبة بيئيا. وهنا يجب ان تخضع للمعايير والمواصفات الاوروبية الحديثة في هذا المجال.
6 - ان تشكل بديلا طويل الامد ومستداما للتخلص من النفايات

التكنولوجيات المهمة

يمكن تحديد اهم تكنولوجيات المعالجة والتحويل للنفايات المستعملة في الوقت الحاضر بما يأتي:
المعالجة بواسطة التحلل او الهضم اللاهوائي (Anaerobic Digestion) وهي تكنولوجيا مبنية على اساس توفير ظروف لكائنات عضوية دقيقة للقيام بتحليل وهضم النفايات العضوية والقابلة للتحلل وبدون الحاجة الى الاوكسجين. وفي الاغلب يكون الناتج غازاتٍ تستخدم مصدرا للطاقة او موادّ صلبة تستعمل سمادا.
المعالجة بالتحليل المائي (الحلمهة أو الحلمأة

بالإنجليزية: Hydrolysis) وهو التفاعل الذي يتم بين مركب كيميائي والماء فيؤدي إلى انكسار الرابطة الكيميائية في جزيء الماء إلى أيون الهيدروجين (بروتون) وأيون الهيدروكسيل. يستعمل هذا التفاعل لتغيير الروابط الكيميائية في البولميرات. كما إنه تفاعل هام لدى تشكيل المواد السيراميكية. وتستخدم هذه التكنولوجيا بشكل اساسي لمعالجة ترسبات وبقايا معالجة مياه المجاري. كما هناك المعالجة بطرق خاصة تعتمد على المعالجة الميكانيكية الحيوية.

وهناك المعالجات بواسطة الحرارة والحرق. وهذه تتكون بشكل عام من مرحلتين (مرحلة اولى ومرحلة ثانية نهائية) ويمكن تقسيمها الى:

1 - المرحلة الاولى التحضير للحرق ومن ثم الحرق وهي طرق كلاسيكية.

2 - المرحلة الاولى التحلل الحراري Thermolyse وهو تفاعل كيمياوي من خلاله يتم تحويل النفايات بواسطة الحرارة وبشكل هادف الى منتجات نافعة وتليه المرحلة الثانية الحرق.

3 - المرحلة الاولى التغويز (gasification) وهو عملية تحويل المواد (النفايات) التي تحوي في تركيبها الكربون مثل الكتلة الحيوية إلى أول أكسيد الكربون والهيدروجين وذلك بتفاعل المواد الخام عند درجات حرارة عالية مع كميات من الأكسجين متحكم بها، ينتج عن هذه العملية مزيج غازي يدعى Synthesis gas (الغاز الاصطناعي) وتعتبر عملية التغويز من العمليات الفعالة لاستخراج الطاقة من المواد العضوية.

4 - المرحلة الاولى: التحلل الحراري Thermolyse، تتبعها المرحلة الثانية: التغويز.

5 - المرحلة الأولى: عملية تغويز، والمرحلة الثانية: تغويز.

الحلول على المدى المتوسط والبعيد

وهنا يجب اضافة وتطوير تشريعات وتعليمات والقيام بحملات توعية وترسيخ اساليب ادارة للتعامل مع معالجة النفايات ومن اهمها قضية العزل بين مواد النفايات قبل وصولها لموقع المعالجة. وعلى الاقل على هذا الاساس:

1 - المواد الورقية والمواد البلاستيكية والزجاج والمعادن الناتجة من القمامة المنزلية، كلاً على حدة.

2 - منع رمي او خلط المواد المنزلية الخطرة مع النفايات المنزلية، بل عزلها ومعالجتها بشكل منعزل.

والمقصود هنا نفايات مثل: البطاريات ومصابيح الاضاءة وبقايا الادوية والحبوب والمستحضرات الطبية والاصباغ والمواد الكيمياوية المنزلية وعلبها واوعيتها.

3 - عزل نفايات عمليات الانشاء والبناء مثل الخشب والحديد والاحجار والخرسانة، كلا على حدة.

4 - اعتماد مبادئ الادارة الحديثة في معالجة النفايات القائم على مبدأ الادارة المتكاملة للنفايات أي:

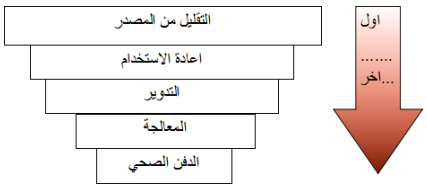

شكل يبين التراتبية الهرمية لادارة النفايات أو ما يسمى التراتبية الأوروبية لإدار النفايات. وهنا نلاحظ ان منع انتاج النفايات واعادة الاستخدام لها اولوية عالية[3]

ملاحظة على التراتبية الأوروبية لإدارة النفايات

تتضمن التراتبية الأوروبية الحالية لإدارة النفايات نظرة سلبية يجب ان تتسلح بمفهوم الاستدامة، ولنضع لها تسمية "هرمية ادارة النفايات المستدامة" وتستند هذه النظرة أو المفهوم على:

1 - الحفاظ على الموارد الطبيعية وحمايتها

2 - زيادة كفاءة النشاطات البشرية حسب المبدأ الآتي:

$$\text{الكفاءة} = \frac{\text{الناتج}}{\text{المستخدم}}$$

$$\text{Efficiency} = \frac{\text{output}}{\text{input}}$$

3 - تحسين جودة ونوعية الإنتاج والمنتوج (الناتج).

ونعني هنا بالنوعية:

- اطالة عمر استخدام المنتوج.
- تصميم المنتوج ليخدم عدة وظائف واغراض في نفس الوقت.
- تحفيز ودفع المنتجين والتجار والباعة لتوفير معلومات واضحة ووافية عن المنتج لتمكين المستهلك من تقييم كاف لما يشتري.
- دعم وترويج المنتجات التي يمكن تصليحها واعادتها للاستخدام بسهولة وسرعة.

4 - تشجيع المنتجات من المواد المعادة التدوير او المعاد استخدامها.

طرق ردم أو طمر النفايات

إن طريقة كب النفايات بشكل مفتوح، كما هو متبع في العراق هي اسلوب ضار وغير صحيح، ويعرّض الناس وبيئتهم لمخاطر جدية كما سبق ذكره، لذا يجب اتباع طرق الطمر الصحي العلمية الصحيحة وكأساس لذلك يجب وضع قانون يعرف اصناف المطامر حسب نوع النفايات ومخاطرها.

في المانيا مثلا يتم تصنيف المطامر بخمسة أصناف وكما يأتي[4]:

1 - الصنف صفر: وهو مطمر يحتوي على نفايات معدنية خاملة غير نشطة كيميائيا وقليلة الضرر مثل بقايا تربة غير ملوثة أو انقاض بناء غير ملوثة.

2 - الصنف واحد: هو مطمر لمواد قليلة الضرر تحتوي على القليل من المواد العضوية مثل النفايات المنزلية ذات الضرر القليل.

3 - الصنف الثاني: وهي المطامر التي تحتوي على النفايات المنزلية وكثير من المواد العضوية والتي يستمر تحللها لفترة طويلة من الزمن وينتج عنها غازات بكثرة وتكون نشطة بيولوجيا مما يكون خطرا ذا شأن على البيئة، لذا فتصميمها يجري تحت متطلبات اكثر صرامة.

4 - الصنف الثالث: وهي مطامر تحتوي على المواد الخطرة ويكون تصميمها خاصا، وبشروط شديدة الصرامة، وتحتوي على مواد شديدة الضرر مثل النفايات الخاصة.

5 - الصنف الرابع: وهذه مطامر تحت سطح الأرض تحتوي على نفايات ضارة من المناجم أو التي يستوجب دفنها داخل كسوة صخرية سميكة وصلبة ومغلقة تحت الأرض مثل نفايات المواد المشعة والمفاعلات النووية.

كما ان هناك تصنيفات مختلفة قليلا تتبع في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان.

في العادة يتم الطمر في حفرة طبيعية او يتم حفرها وعلى أرضية مسطحة بعد ان يتم دراستها وتصميمها من قبل مهندسين

مختصين، على ان يراعى في اختيار موقعها ما يأتي بشكل عام:

1 - ان تكون بعيدة عن مسارات المياه السطحية والجوفية وان يكون مستوى الحواجز الجيولوجية اعلى بما لا يقل عن متر عن اعلى مستوى للمياه الجوفية.

2 - تكون بعيدة بما يكفي عن التجمعات السكنية والمواقع الاثارية والسياحية والترفيهية.

3 - بعيدة عن مناطق النشاطات الزراعية والمحميات البيئية.

4 - ان تكون آمنة وبعيدة عن مناطق مخاطر السيول والفيضانات وانجرافات التربة وانهيارات سفوح المنحدرات والهزات والزلازل الأرضية.

وقبل البدء برمي النفايات واستعمال المطمر يتم اكساء أرضية المطمر وجدرانه بطبقات جيولوجية عازلة مانعة لنفاذية السوائل وفوقها شرائح عازلة وغير نفاذية من اللدائن الاصطناعية، كما يتم ضمان تصريف السوائل والغازات، التي ستنتج من التفاعلات البيولوجية والكيمياوية داخل جسم النفايات، بواسطة مبازل وشبكة انابيب صرف خاصة. وتأتي هذه الإجراءات التشييدية لتخدم ضمان منع الضرر على البيئة وللسيطرة على التفاعلات التي تجري داخل جسم النفايات. لذا يتم تشييد نقاط تفتيش تحيط بالمطمر لمراقبة وضمان التشغيل الصحيح للمطمر ولاعطاء التنبيهات في حالة حدوث اي تغييرات في البيئة المحيطة بالمطمر لاتخاذ اللازم ودرء اي ضرر محتمل.

ويتم الطمر على شكل طبقات وعند انتهاء الطمر يتم إغلاق المطمر بكسوة هندسية غير نفاذة للسوائل والغازات.

كما وتوصلت التكنولوجيا اليوم الى استخدام الغازات المنبعثة من تفاعل النفايات داخل المطامر لتوليد الطاقة والاستفادة منها. وكذلك السوائل الناتجة، ولكن هذا موضوع بحد ذاته ولا يتسع المجال هنا لمزيد من التفاصيل.

طرق حرق النفايات

وهذه تقنية للتخلص من النفايات عن طريق حرق المركبات العضوية وغيرها من المواد القابلة للاحتراق.

الطريقة التقليدية المتبعة في العادة تتم بدرجة 900 الى 1000 درجة مئوية وبكفاءة لا تتجاوز 90 بالمئة ويمكن ان تكون هناك مخاطر انبعاث النترات والكبريتات والمعادن الثقيلة وهروب الرماد السام، ولم تكن هذه المحارق تحتوي على تقنية فصل المواد للتخلص من المواد الخطرة أو القابلة لإعادة التدوير، ما ادى الى تشكيل مخاطر من تلك المحارق على صحة العاملين فيها وعلى البيئة المحيطة لغياب الأجهزة الملائمة والتنقية الجيدة للغازات المتكونة[5].

اليوم تتضمن عملية حرق النفايات تحويل النفايات إلى رماد يوجه إلى أسفل المدخنة أما الغازات المنطلقة والحرارة تتم الاستفادة منها في توليد الطاقة الكهربائية. وبعد تدوير الغازات المنطلقة لإنتاج الطاقة الكهربائية يتم بثها الى الهواء بعد تنقيتها من المواد الضارة. ويتم تحويل الطاقة الناتجة عن الحرق إلى طاقة كهربائية بعدة طرق تقنية مثل «استخلاص الغاز» (تغويز) أو استخلاص الغاز باستخدام القوس الكهربائي أو بواسطة التحلل الحراري أو عن طريق تقنية الهضم اللاهوائي. كما سبق ذكره اعلاه.

تم بناء العديد من المحارق ومنذ عدة عقود في العديد من الدول، وبينت التجارب أن حرق النفايات يقلص كتلة النفايات الكلية حوالي 70

بالمئة، وقد يزداد هذا الرقم بعد استخلاص المواد القابلة للتدوير ليصبح 80 بالمئة أو 85 بالمئة.

علما ان فعالية وكفاءة المحارق تعتمد ايضا على نسبة السوائل في النفايات والتي تختلف بين البلدان[6].

وهذا يعني أن هذه التقنية لا تعوض ولا تحل محل مطامر النفايات تماما ولكنها تقلص من مساحة وحجم مطامر النفايات فقط.

القوانين الحديثة في بعض الدول مثل المانيا تطلب معالجة جميع انواع النفايات حراريا قبل طمرها، وهذا له فوائد كثيرة فحرق النفايات له فوائد واضحة في مجال التخلص من النفايات الخطرة مثل التخلص من النفايات الطبية والكيمائية، حيث أن الحرارة تقوم بتدمير التأثير الخطير للسموم أو الجراثيم.

ومن الأمثلة على ذلك النفايات الناتجة عن مصانع المواد الكيميائية الحاوية على مواد شديدة السمية، والتي لا يمكن رميها في مياه الصرف الصحي[7] [8].

حصل حرق النفايات على شعبية خاصة في بلدان مثل اليابان التي تشح فيها مساحات الأرض، وتكون موردا نادرا، وكذلك في الدنمارك والسويد وهما بلدان بحاجة للطاقة، ولا يمتلكان مصادرها فاتجها للاستفادة من الطاقة المتولدة من حرق النفايات، كما ويقومان باستخدام الحرارة الناتجة لتزويد التدفئة المركزية في المدن.

لكن حتى اليوم لم تتجاوز نسبة الطاقة الكهربائية المولدة من النفايات 5 بالمئة في السويد. للاسف لا يتسع المجال هنا للتوسع اكثر في مجال حرق النفايات وتقنياتها.

خلاصة واستنتاجات وملاحظات

- النفايات ظاهرة مرافقة لتطور المجتمع البشري وتبرز بشكل خاص في المدن وستتفاقم هذه الظاهرة في العراق مع تقدم الزمن ونمو السكان والاستهلاك.
- من الضروري في العراق اتخاذ إجراءات ادارية وقانونية وهندسية مناسبة وعاجلة لحل مشكلة النفايات.
- هناك هرمية تراتبية لادارة النفايات ويجب مراعاة مبادئ الاستدامة في ادارتها.
- في اسفل وآخر هذه التراتبية يقع اسلوب طمر النفايات.
- يجب مراعاة الشروط التي تضمن الحفاظ على البيئة والصحة في مطامر النفايات وفي جمعها.
- اعتماد طرق حرق القمامة بشكل صحيح وصديق للبيئة واستغلال امكانية توليد الطاقة من النفايات ولكن عدم المبالغة في دورها.
- اعتماد طرق وتكنولوجيات لاعادة تدوير النفايات، مثلا في مجالات هندسة الانشاءات والتشييد.
- ملاحظة: تقتصر هذه الدراسة على النفايات المنزلية والبلدية الصلبة ولم تتطرق بتفصيل الى ما تحدثه عمليات استخراج النفط ونشاطات الصناعات الاستخراجية الاخرى من تلوث ومن نفايات، والتي قد تصنف ضمن النفايات الخطرة لاحتوائها على معادن ثقيلة ومواد سمية، وهذه تحتاج لمعالجة خاصة ولم يتسع المجال لذلك.

هوامش

1- Wilson, D.G., A brief history of solid-waste management. Int. J. Environ. Stud., 9 .(2) pp. 123–129, 1976. www.tandfonline.com/doi/abs/10.1080/00207237608737618 .Accessed on: 9 Jun. 2020

2- https://www.undp.org/iraq/stories/solid-waste-iraq-towards-clean-environment, ac- .cessed on: 5 May 2023

3- Department of Environment Food and Rural Affairs. UK. Government, Guidance on .applying the Waste Hierarchy, June 2011

4- Bauprofessor.de Lexikon, https://www.bauprofessor.de/deponieklasse/, accessed on: .25 May 2023

5- G. Tchobanoglous, F. Kreith, Handbook of Solid Waste Management, McGraw-Hill, .2002

6- Sunil Kumar, Municipal Solid Waste Management in Developing Countries, CRC Press; .Taylor & Francis Group, 2016

7- Jürgen Fluck: Kreislaufwirtschafts – Abfall- und Bodenschutzrecht, KrW-/AbfG, Abf- VerbrG, EG-AbfVerbrVO, BBodSchG, Kommentar, Vorschriftensammlung, Stand: 67. .Akt. C.F.Müller Verlag, Heidelberg, 2006

8- V. Lersner / Wendenburg / Versteyl (Hrsg.), Recht der Abfallbeseitigung – Das Abfall- wirtschaftsrecht des Bundes, der Länder und der Europäischen Union, Kommentar, , .Erich Schmidt Verlag Berlin, 2007

القدرات المستقبلية الخارقة للذكاء الاصطناعي

د. عادل كنيش مطلوب

إن القدرات التي امتلكتها روبوتات الدردشة أخيرا، وأولها كان تشات جي بي تي؛ أثارت الكثير من التساؤلات حول مستقبل المجتمعات البشرية والقدرات المتوفرة؛ حيث تدخلت في مهن هي من اختصاصات البشر حصرا عبر التاريخ؛ لذلك أثارت قدرات بعض من تطورات الذكاء الاصطناعي هذه مجددا التحذيرات، التي أطلقها البروفيسور ستيفن هوكينج Stephen Hawking في عام 2015؛ أحد أبرز الباحثين في العالم في مجال العلوم والتكنولوجيا؛ ومجموعة من العلماء الآخرين: مثل البروفيسور كيفين وارويك، وبيل كيت، مؤسس شركة مايكروسوفت، وأيلين ماسك، التقني المعروف مؤسس العديد من الشركات التقنية الحديثة... وأخرهم تحذيرات الاب الروحي للذكاء الاصطناعي جيفري هينتون (عالم النفس المعرفي وعالم الحاسوب البريطاني الكندي) التي صرح بها لـ بي بي سي نيوز، في 3 من مايس/مايو 2023 عن مخاطر الذكاء الاصطناعي، حيث ذكر "في الوقت الحالي، برامج الدردشة الآلية هي ليست أكثر ذكاء منا، بقدر ما أستطيع أن أقول. لكنني أعتقد أنها قد تكون كذلك قريبًا"[1]. كما أنضم أخيرا الى المحذرين يوشوا بنجيو، الحائز على جائزة ألين تورينج

Alan Turing في عام 2018 لعمله في التعلم العميق.

ذكر البروفيسور هوكينج ضمن سلسلة محاضرات ريث على قناة راديو 4 للـ بي بي سي، بـ "إن تطوير الذكاء الاصطناعي الكامل قد يعني نهاية الجنس البشري. وسوف ينطلق من تلقاء نفسه، ويعيد تصميم نفسه بمعدل متزايد باستمرار. لأن البشر، محدودي القدرات بسبب التطور البيولوجي البطيء، لذا لا يستطيعون التنافس، وسيتم تجاوزهم"[2].

كذلك هينتون حيث أكد" في الوقت الحالي، ما نراه هو أن أشياء مثل GPT-4 يتفوق على البشر في مقدار المعرفة العامة التي يمتلكها ويتفوق علينا كثيرًا. أما من حيث التفكير (التسبيب reasoning)، فإنها ليست جيدة بما فيه الكفاية، ولكنها تقوم بأعمال بالفعل

فيها تفكير بسيط "[1].
ما يدعم هذه المخاوف، أيضا، هو إنه في إحدى استطلاعات الرأي التي ذكرها توم تشيفرز[3] والتي أجراها باحثون في الذكاء الاصطناعي؛ فهم يعتقدون بأن هناك احتمالاً بنسبة واحد الى عشرين؛ بأن الذكاء الاصطناعي سيقتل الجميع في القرن المقبل: حتى لو كانوا مخطئين بنسبة 10 أضعاف، فلا يزال هذا الرقم مخيفًا.
نحن نعيش في وقت خطير بشكل فريد. تنمو القوة التكنولوجية للبلدان المتقدمة بمعدل لا يُصدق: يمكنهم إعادة برمجة الجينات، وتصميم الفيروسات، وبناء أنظمة الذكاء الاصطناعي التي يمكنها التفوق على البشر بعشرات الطرق، وتدمير مدن بأكملها بقنبلة واحدة، وتغيير مناخنا بشكل غير مباشر (أو حتى بشكل مباشر حسب بعض الدراسات!).
بكل تأكيد؛ أثر ويؤثر تطور الذكاء الاصطناعي على مجتمعاتنا بطرق متسارعة. والقرارات التي تحدد كيفية تطور مجالات المعرفة الجديدة هذه في النهاية تؤثر علينا جميعًا.
الإشكالية هنا هو إن الشركات الرأسمالية الاحتكارية، الآن، على شفير القدرة على التعامل مع اللبنات الأساسية للتطور البشري، ناهيك عن التغيير الذي لا يمكن التنبؤ به في العالم الأكبر من حولنا.
عندما نتطلع إلى المستقبل، هناك استنتاج مفاده أن هذه الشركات قادرة على فهم الحياة بمستواها الأكثر حميمي والقدرة على العبث بها؛ ربما تكون من أجل مصلحتنا أو بالإضرار بنا.
لقراءة الاحتمالات المستقبلية لهذه التقنية لا بد من الاطلاع عليها لمعرفة دورها في صياغة إنسان المستقبل وما سيكون عليه المجتمع القادم.

الذكاء الاصطناعي

في آب/ أغسطس من عام 1955، تقدمت مجموعة من العلماء بطلب تمويل بمبلغ 13500 دولار أمريكي لاستضافة ورشة عمل صيفية في كلية دارتموث، نيو هامبشاير. كان المجال الذي اقترحوا البحث فيه هو الذكاء الاصطناعي (Artificial Intelligence AI). في الوقت الذي كان فيه طلب التمويل متواضعا، كان تخمين الباحثين: بأنه سيشمل "كل جانب من جوانب التعلم أو أي سمة أخرى من سمات الذكاء يمكن، من حيث المبدأ، وصفها بدقة بحيث يمكن صنع آلة لمحاكاتها"[4].
منذ هذه البدايات المتواضعة، قامت الأفلام ووسائل الإعلام بإضفاء الطابع الرومانسي على الذكاء الاصطناعي أو عرضه كوحش كاسر شرير. ومع ذلك، بالنسبة لمعظم الناس، ظل الذكاء الاصطناعي كموضوع نقاش ومتعة وليس جزءًا من تجربة معيشية واعية.
في أواخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر 2022، تواجد الذكاء الاصطناعي، بشكل تشات جي بي تي (روبوت دردشة)، من تكهنات الخيال العلمي وأفلامه، ومختبرات الأبحاث ليتواجد على أجهزة الحاسوب المكتبية والهواتف لعامة الناس.
تشات جي بي تي هو أول وأحدث روبوت محادثة ذكي اصطناعي؛ وأكثرها إثارة للإعجاب حتى الآن. في الخمسة الأيام الاولى فقط، بعد إصداره، وصل عدد مستخدميه إلى مليون مستخدم. تم استخدامه بشكل هائل

لدرجة أن أجهزة تشغيله قد تجاوزت سعتها الاستيعابية عدة مرات. معلومات احصائيات شهر شباط، لسنة 2023، تشير الى إن عدد المستخدمين هو أعلى من 100 مليون مستخدم، وبزيارات شهرية للموقع بمعدل 1.8 مليار زيارة.

أوليات تصنيع تشات جي بي تي.

قامت مايكروسوفت بتمويل شركة تدعى "OpenAI" (ركز على الاسم)، الشركة التي طورته، باعتبار إن منتجها الجديد "تشات جي بي تي" سيكون بديلا أكثر كفاءة من محرك البحث الشهير لـ كوكل؛ لأنه لماذا تبحث عن شيء ما في محرك البحث بينما يمكن لـ تشات جي بي تي كتابة فقرة كاملة تشرح الإجابة؟ والدافع لهذا التمويل هو إن مايكروسوفت ستُضمن بأن محرك بحثها Bing سيزود بالروبوت الجديد؛ بعد أن ساهمت في الاستثمار في تطويره مع الشركة المطورة.

من خلال تعزيز محركات البحث الخاصة بمايكروسوفت وكوكل بصفات تشبه تشات جي بي تي، تأمل مايكروسوفت و كوكل بتغيير جذري في اقتصاديات البحث عبر الإنترنت من خلال تقديم إجابات جاهزة بدلاً من قائمة الروابط المألوفة لمواقع الويب الخارجية، وبذلك تنتهي فترة، ما اعتقده المستخدمون لمحركات البحث هذه بأنه، بحث مجاني، على الرغم من إن معلومات المستخدمين؛ هذه، هي المواد الأولية الأساسية لماكنات هذه الشركات، لتبدأ مرحلة الاستثمار في كل من جمع وتزويد المعلومات عن والى المستخدمين؛ وهذه المرة بمقابل اشتراكات مادية لتجني الشركات المليارات من الدولارات. كوكل تسارع إلى إصدار نسختها الخاصة من برنامج دردشتها، والذي يقترب من مراحل الإنجاز النهائية، كما إنها تعتزم أطلاق نسختها التجريبية من خدمة بحث أطلق عيها اسم "أس. جي. أي" أو "تجربة البحث التوليدي
(Service Generative Experience)

لكن ماهي الخلطة السرية وراء قدرات روبوتات المحادثة؟

استفادت روبوتات المحادثة من عدد من التطورات التقنية المنشورة في الأدبيات العلمية "مفتوحة المصدر" في العقدين الماضيين. لكن الابتكارات التي انفردت بها OpenAI هي سرية؛ لذلك فهي أقامت خندق تقني وتجاري لإبعاد الآخرين.

تشات جي بي تي قادر جدًا على القيام بمعالجات لأمور لا نهاية لها، وإيجاد الأجوبة الملائمة.

يمكن لـ تشات جي بي تي القيام بالعديد من المهام المتخصصة والمعقدة جدا. يمكنه كتابة برامج للكمبيوترات وفقًا لمواصفات المستخدمين، أو مسودة خطابات العمل، أو اجتياز الامتحانات الجامعية الأولية (أخر استطلاع لصحيفة طلابية في كامبردج أظهر بأن ما يقرب من نصف الطلاب استخدموا الروبوت). تقارير عديدة طرحت حول دور تشات جي بي تي في التعليم.

من قدراته على سبيل المثال اجتيازه لمتطلبات الحصول على رخصة العمل كطبيب في الولايات المتحدة.

تشات جي بي تي هو نوع مما يُعرف باسم "الذكاء الاصطناعي التوليدي"؛ والذي أحرز نجاحا استثنائيا بالمقارنة بالمنتجات

الأخرى لهذا النوع من "الذكاء"؛ التي استخدمت لإنشاء محتوى جديد أيضا، مثل Stable Diffusion وDALLE-2 و Midjourney. هذه الأنظمة تستخدم أزواج من نص وصورة من مجموعات من البيانات مثل LAION-5B (مجموعة بيانات عامة تتكون من 5.85 مليار زوج من الصور والنصوص)، لإنشاء صور نابضة بالحياة فازت حتى بالمسابقات الفنية.

اكتسب الذكاء الاصطناعي بعض القدرات الرائعة للتلاعب وتوليد اللغة، سواء بالكلمات أو الأصوات أو الصور. وبذلك اخترق الذكاء الاصطناعي نظام العمل في حضارتنا.

اللغة هي المادة التي تتكون منها الثقافة البشرية كلها تقريبًا؛ لذا ماذا سيحدث بمجرد أن يصبح الذكاء غير البشري أفضل من الإنسان العادي في سرد القصص وتأليف الألحان ورسم الصور وكتابة القوانين وحتى النصوص المقدسة؟

من خلال إتقان الذكاء الاصطناعي للغة، يمكنه تكوين علاقات ودية مع الناس، واستخدام قوة العلاقة الودية لتغيير آرائنا ووجهات نظرنا حول العالم. على الرغم من عدم وجود ما يشير إلى أن الذكاء الاصطناعي لديه أي وعي أو مشاعر خاصة به، فإنه يكفي لتعزيز العلاقة الودية المزيفة مع البشر.

في المعارك السياسية من أجل كسب العقول والقلوب، تعتبر العلاقة الودية هي السلاح الأكثر فعالية، وقد اكتسب الذكاء الاصطناعي للتو القدرة على إنتاج علاقات ودية على نطاق واسع مع ملايين الأشخاص.

نعلم جميعًا أنه على مدار العقد الماضي، أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي ساحة معركة للسيطرة على انتباه الناس. مع الجيل الجديد من الذكاء الاصطناعي، تتحول جبهة المعركة من الاهتمام إلى العلاقات الودية. ماذا سيحدث للمجتمع البشري وعلم النفس البشري عندما يحارب الذكاء الاصطناعي في معركة لتزييف العلاقات الودية معنا، والتي يمكن استخدامها بعد ذلك لإقناعنا بالتصويت للسياسيين أو شراء المنتجات؟

لقد أصيب الباحثون الذين يعملون عن كثب مع هذه الأنظمة بالإغماء بسبب دقة إحساسها، كما هو الحال مع نموذج اللغة الكبيرة . (Large Language Model LLM) ونموذج اللغة الكبير هذا، هو خوارزمية تعلم عميق يمكنها التعرف على المحتوى وتلخيصه من مجموعات البيانات الضخمة واستخدامها للتنبؤ أو إنشاء نص باستخدام GPT-3. وGPT-3 هو نموذج لغة تلقائي تم إصداره في عام 2020 استخدم التعلم العميق لإنتاج نص يشبه النص البشري. يزود بنص أولي كطلب، وينتج نص يتماشى مع الطلب بشكل أوسع وشامل.

من أدوات الذكاء الاصطناعي الأخرى المستخدمة حاليا هي:

1 - في توليد الفيديوهات وتحسينها.
2 - في توليد النصوص والردود الكتابية.
3 - في توليد الصور وتحسينها.
4 - في تصميم المحتوى وبناءها.
5 - في كتابة وتعديل البرمجيات.
6 - في توليد وتحسين الأصوات.
7 - وأخيرا؛ في زيادة الإنتاجية.

أنتج الذكاء الاصطناعي التوليدي أيضًا مخاوف بشأن الانتحال، واستغلال المحتوى الأصلي المستخدم في إنشاء النماذج، وأخلاقيات التلاعب بالمعلومات وإساءة

استخدام الثقة، وحتى "نهاية البرمجة".
في قلب كل هذا؛ هناك سؤال يزداد إلحاحًا منذ ورشة العمل الصيفية في دارتموث: سؤال مهم؛ هل يختلف الذكاء الاصطناعي عن الذكاء البشري؟
الجواب؛ نعم. هناك ميزات لكل منهما؛ فالذكاء البشري يمتاز بالقدرة على التكيف مع المتغيرات وبشكل سريع جدا، القدرة على القيام بأكثر من عمل (multitask)، كما يمتلك مهارات اجتماعية ممتازة، ولديه وعي ذاتي إضافة الى امتلاكه ميزة الابداع (in-novation). أما الذكاء الاصطناعي (لحد الان) فيمتاز بالدقة، والسرعة الخارقة في تنفيذ المهام الموكلة له، لكنه لا يمكنه التكيف مع المتغيرات بسهولة، ولا يمكنه إداء أكثر من عمل، كما إنه لا يمتلك وعيا ولا إبداعا.

ماذا يعني "الذكاء الاصطناعي" في الواقع؟

ما يؤهل أن يكون نظاما ما ذكاءً اصطناعيا، يجب أن يظهر مستوى معين من التعلم والتكيف. لهذا السبب، فإن أنظمة صنع القرار والأتمتة والإحصاءات ليست ذكاءً اصطناعيًا، وخوارزمية التعلم الآلي هي خوارزمية قابلة على التعلم من البيانات و"يقال إن برنامج الحاسوب يتعلم من التجربة E فيما يتعلق ببعض من المهام T وقياس الأداء P، تقوم الخوارزمية بالعمل على تحسين الأداء في تنفيذ المهام T، عبر قياس الاداء P، بالاستفادة من الخبرة المتولدة من تنفيذ التجارب E)".
يقع تعريف الذكاء الاصطناعي على نطاق واسع في فئتين:
• الذكاء الاصطناعي الضيق (Artificial Narrow Intelligence ANI)
•.الذكاء الاصطناعي العام (Artificial General Intelligence AGI). حتى الآن، الذكاء الاصطناعي العام بدأ بالظهور بشكل ضيق بسبب التقنيات الحديثة.
معظم ما نعرفه اليوم باسم الذكاء الاصطناعي لديه ذكاء ضيق - حيث يعالج نظاما معينا مشكلة معينة. على عكس الذكاء البشري، فإن هذا الذكاء الضيق للذكاء الاصطناعي لا يكون فعالاً إلا في المجال الذي تم تدريبه فيه: على سبيل المثال، كشف الاحتيال، أو التعرف على الوجوه، أو المقترحات التسويقية.
في الوقت الحالي، أبرز مثال على محاولة إن يعمل الذكاء الاصطناعي العام كما يفعل البشر؛ هو في استخدام الشبكات العصبية التي تتدرب على كميات هائلة من البيانات باستخدام آليات التعلم العميق، والتعلم العميق هو نوع معين من التعلم الآلي يعالج الاختلافات في ملائمة بيانات التدريب من أجل العثور على الأنماط التي تعمم على البيانات الجديدة. هناك نوعان من التعلم؛ الخاضع للأشراف وغير الخاضع للإشراف. التعلم الآلي لم ينجح في حل المشكلات المركزية في الذكاء الاصطناعي ويرجع ذلك جزئيا الى فشله في التعميم خصوصا عندما يكون عدد المتغيرات في البيانات عالي؛ مثلا لمتغير واحد نهتم بتمييز 10 مناطق اهتمام ويمكن تقدير قيم الدالة المستهدفة؛ أما ببعدين فنحتاج الى 10x10، في حين لثلاثة أبعاد نحتاج الى 103 ولتمييز d من الابعاد نحتاج الى O(vd) وهذا ما يعرف "ببلاء الأبعاد".
أما الشبكات العصبية فهي مستوحاة من طريقة عمل العقول البشرية. على عكس معظم نماذج التعلم الآلي التي تدير العمليات الحسابية على بيانات التدريب، تعمل الشبكات

العصبية عن طريق تغذية كل نقطة بيانات واحدة تلو الأخرى من خلال شبكة مترابطة، في كل مرة يتم فيها ضبط المَعلمات (parameters) لهذه البيانات (Information) المستنبطة من المعطيات (Data).

مع تغذية المزيد والمزيد من المعطيات لاستنباط البيانات منها عبر الشبكة، تستقر المَعلمات؛ النتيجة النهائية هي الحصول على شبكة عصبية "مدربة"، والتي يمكنها بعد ذلك إنتاج المخرجات المرغوبة من البيانات الجديدة - على سبيل المثال، التعرف على ما إذا كانت الصورة تحتوي على قطة أو كلب.

إن القفزات الكبيرة إلى الأمام في الذكاء الاصطناعي اليوم ورائها؛ التحسينات التكنولوجية في الطريقة التي يتم بها تدريب الشبكات العصبية الكبيرة، وإعادة تعديل أعداد كبيرة من المَعلمات في كل عملية تشغيل بفضل قدرات البنى التحتية الكبيرة للحوسبة السحابية (الحوسبة المبنية على الانترنت). على سبيل المثال، GPT-3 (نظام الذكاء الاصطناعي الذي يشغل تشات جي بي تي) والذي هو عبارة عن شبكة عصبية كبيرة بها 175 مليار مَعلمة، وتكلف حوالي 3 ملايين دولار شهريًا لتشغيلها.

ما الذي يحتاجه الذكاء الاصطناعي للعمل؟

يحتاج الذكاء الاصطناعي إلى ثلاثة أشياء ليكون ناجحًا.

• أولاً، يحتاج إلى بيانات عالية الجودة، كثيرة جدا، وغير متحيزة. عادة يستخدم الباحثون الذين يبنون شبكات عصبية مجموعات البيانات هذه مما يوفره التحول الرقمي للمجتمع. مثلا؛ يستمد ما يسمى بـ Copilot GitHub (الذي تم تطويره من شركتي Github المملوكة لمايكروسوفت و OpenAI)، من أجل زيادة عدد المبرمجين البشريين، بياناته من مليارات من الأسطر من التعليمات البرمجية المشتركة مفتوحة المصدر. تستخدم تشات جي بي تي ونماذج اللغات الكبيرة الأخرى مليارات من مواقع الويب والمستندات النصية المخزنة على الإنترنت.

ستستمر نماذج الذكاء الاصطناعي في التطور من حيث التعقيد والتأثير مع قيامنا برقمنة المزيد من حياتنا وتزويدها بمصادر بيانات بديلة، مثل بيانات المحاكاة أو البيانات من استخدامات اللعب؛ مثل لعبة Minecraft (تم بيع أكثر من 238 مليون نسخة، ويتواجد ما يقرب من 140 مليون لاعب نشط شهريًا بحسب إحصاءات عام 2021، كما إن اللعبة متوفرة على عدة منصات تشغيل ومتاحة لأعمار من الخامسة فما فوق).

• ثانيا، يحتاج الذكاء الاصطناعي أيضًا إلى بنية تحتية حسابية للتدريب الفعال. نظرًا لأن أجهزة الحاسوب أصبحت أكثر قوة، فقد يتم التعامل مع النماذج التي تتطلب الآن جهودًا مكثفة وحوسبة واسعة النطاق؛ أن تكون في المستقبل القريب متوفرة محليًا. Stable Diffusion، على سبيل المثال، يمكن تشغيله بالفعل على أجهزة الكمبيوتر المكتبية بدلاً من الحوسبة السحابية.

• إما الحاجة الثالثة للذكاء الاصطناعي هي النماذج والخوارزميات المحسنة.

الان؛ تستمر الأنظمة التي تعتمد على البيانات في إحراز تقدم سريع في مجال بعد مجال؛ الذي كان يُعتقد، في السابق، بأنه مجال ينفرد به الإدراك البشري (خصوصا بعد تضمين السببية في الذكاء الاصطناعي).

لكن، مع تغير العالم من حولنا باستمرار، تحتاج أنظمة الذكاء الاصطناعي إلى إعادة تدريبها باستمرار باستخدام بيانات جديدة. بدون هذه الخطوة الحاسمة، ستنتج أنظمة الذكاء الاصطناعي إجابات غير صحيحة من الناحية الواقعية أو لا تأخذ في الاعتبار المعلومات الجديدة التي ظهرت منذ أن تم تدريبها.

لماذا يحتاج الذكاء الاصطناعي إلى السببية في قراراته؟

يمكن لآلة لديها فهم السبب والنتيجة أن تتعلم أكثر مثل الإنسان، من خلال التنبؤ والتراجع. يشبه هذا النهج طريقة عمل الناس لشيء ما: يولد الناس علاقات سببية محتملة ويفترضون أن تلك التي تناسب الملاحظة هي الأقرب إلى الحقيقة. مثلا قد تؤدي مشاهدة إن الزجاج يتحطم عند سقوطه على خرسانة إلى الاعتقاد بأن تصادم الزجاج مع سطح صلب يتسبب في كسره؛ ويمكن كذلك التعميم؛ بإن إسقاط أشياء أخرى على الخرسانة يتسبب في تحطيمها، أو إن سقوط الزجاج على سجادة ناعمة، من ارتفاعات مختلفة يعطي انطباعات أخرى، لذا يمكن تحسين نموذج العلاقة والتنبؤ بشكل أفضل بالنتائج في المستقبل.

من الفوائد الرئيسية للتفكير السببي أنه يمكن أن يجعل الذكاء الاصطناعي أكثر قدرة على التعامل مع الظروف المتغيرة. أنظمة الذكاء الاصطناعي الحالية التي تبني تنبؤاتها فقط على الارتباطات بين البيانات معرضة بشدة لأي تغييرات في كيفية ارتباط هذه المتغيرات. عندما يتغير التوزيع الإحصائي للعلاقات المكتسبة - سواء بسبب مرور الوقت أو الإجراءات البشرية أو عامل خارجي آخر - سيصبح الذكاء الاصطناعي أقل دقة.

على سبيل المثال، يمكن أن يقوم باحث الذكاء الاصطناعي بتدريب سيارة ذاتية القيادة على طرقه المحلية في كندا مثلا، وقد يصبح الذكاء الاصطناعي جيدًا في تشغيل السيارة بأمان. لكن إذا قام بتصدير نفس النظام إلى لندن، سوف يفشل على الفور لسبب بسيط: السيارات يتم قيادتها باتجاهين مختلفين أحدهما على اليمين والأخر على اليسار، لذا فإن بعض العلاقات التي تعلمها الذكاء الاصطناعي ستكون عكسية. يمكنه إعادة تدريب الذكاء الاصطناعي من الصفر باستخدام بيانات من لندن، لكن ذلك سيستغرق وقتًا، ويعني أن البرنامج لن يعمل في كندا، لأن نموذجه الجديد سيحل محل النموذج القديم.

إن القول المأثور القديم القائل بأن ''الارتباط لا يعني العلاقة السببية'' - هو حجر عثرة أساسي في الذكاء الاصطناعي (تشير العبارة إلى عدم القدرة على استنتاج علاقة بين السبب والنتيجة بين حدثين أو متغيرات فقط على أساس ارتباطهما أو الارتباط الملاحظ بينهما). يمكن تدريب أجهزة الحاسوب على اكتشاف الأنماط في البيانات، حتى الأنماط الدقيقة جدًا التي قد تفوت على البشر. ويمكن لأجهزة الحاسوب استخدام هذه الأنماط لعمل تنبؤات. على سبيل المثال، أن بقعة تظهر في الأشعة السينية للرئة تشير إلى وجود ورم. ولكن عندما يتعلق الأمر بالسبب والنتيجة، فعادة ما تكون الآلات في حيرة من أمرها. إنها تفتقر إلى الفهم السليم لكيفية عمل العالم.

حتى تتمكن أجهزة الحاسوب من القيام بأي نوع من أنواع صنع القرار، فإنها ستحتاج

إلى فهم السببية. يقول كوكا أوغلو، من جامعة بوردو: ''أي شيء يتجاوز التوقعات يتطلب نوعًا من الفهم السببي. إذا كنت ترغب في التخطيط لشيء ما، وإذا كنت تريد العثور على أفضل سياسة، فأنت بحاجة إلى نوع من وحدة التفكير السببي''[6].

يمكن أن يساعد دمج نماذج السبب والنتيجة في خوارزميات التعلم العميق أيضًا الأجهزة المحمولة المستقلة على اتخاذ قرارات حول كيفية تنقلها في العالم. يقول كوكا أوغلو: ''إذا كنت إنسانًا آليًا، فأنت تريد معرفة ما سيحدث عندما تتخذ خطوة هنا بهذه الزاوية أو تلك الزاوية، أو إذا دفعت شيئًا ما''[6].

يكمن الحل المحتمل لهذه المشكلة في شيء يُعرف بالاستدلال السببي (Causal Inference) - طريقة رياضية للتأكد مما إذا كان أحد المتغيرات يؤثر بعضها على البعض الآخر.

لطالما استخدم الاقتصاديون وعلماء الأوبئة الاستدلال السببي لاختبار أفكارهم حول السببية. ذهبت جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية لعام 2021 إلى ثلاثة باحثين استخلصوا الأسباب والنتائج من التجارب الطبيعية.

الآن، هناك عدد متزايد من علماء الحاسوب الذين يعملون على دمج السببية مع الذكاء الاصطناعي لمنح الآلات القدرة على معالجة مثل هذه الأسئلة، ومساعدتهم على اتخاذ قرارات أفضل، والتعلم بشكل أكثر كفاءة، والتكيف مع التغيير.

في عام 2011، فاز بيرل بجائزة ألين تورينج، التي يشار إليها غالبًا باسم جائزة نوبل لعلوم الحاسوب، لعمله في تطوير حساب التفاضل والتكامل للسماح بالتفكير الاحتمالي والسببي. يصف تسلسلًا هرميًا من مستويات للمنطق. المستوى الأساسي هو ''الرؤية''، أو القدرة على تكوين ارتباطات بين الأشياء.

أنظمة الذكاء الاصطناعي الحالية جيدة للغاية في هذا الأمر. يشير بيرل إلى المستوى التالي على أنه ''فعل'' - إجراء تغيير على شيء ما وملاحظة ما يحدث. هذا هو المكان الذي تلعب فيه السببية.

يمكن للحاسوب تطوير نموذج سببي من خلال فحص التدخلات: كيف تؤثر التغييرات في متغير واحد على الآخر. بدلاً من إنشاء نموذج إحصائي واحد للعلاقة بين المتغيرات، كما هو الحال في الذكاء الاصطناعي الحالي، يقوم الحاسوب بتغيير قيمة واحدة أو أكثر من المتغيرات. قد يؤدي هذا التغيير إلى نتيجة جديدة. كل هذا يمكن تقييمه باستخدام رياضيات الاحتمالات والإحصاء.

أما بنجيو، فقد قام طلابه بتدريب شبكة عصبية لإنشاء الرسوم البيانية السببية - وهي طريقة لتصوير العلاقات السببية. في أبسط صورها، إذا تسبب أحد المتغيرات في تغيير متغير آخر، فيمكن إظهاره بسهم يمتد من مصدر التغيير إلى المتغير. وإذا كان الاثنان غير مرتبطين، فلن يكون هناك سهم يربط بينهما. تم تصميم شبكة بنجيو العصبية لإنشاء أحد هذه الرسوم البيانية بشكل عشوائي، ثم التحقق من مدى توافقها مع مجموعة معينة من البيانات. من المرجح أن تكون الرسوم البيانية التي تناسب البيانات بشكل أفضل دقيقة، لذلك تتعلم الشبكة العصبية إنشاء المزيد من الرسوم البيانية بمثل تلك، وتبحث عن واحد يناسب البيانات بشكل أفضل.

تتصدر القدرة على التوقع في التسلسل

الهرمي للتفكير السببي، والمفتاح هنا، هو التكهن بنتائج الإجراءات التي لم يتم اتخاذها. هذه الحقائق ذكرت في قصيدة "الطريق المهمل The Road Not Taken" لروبرت فروست (مثال رائع عن العلاقة المتبادلة بين الثقافة والعلوم). في هذه القصيدة، يتحدث فروست عن الاضطرار إلى الاختيار بين مسارين عبر غابة، ويعرب عن أسفه لعدم تمكنه من معرفة إلى أين يقود الطريق الآخر. حيث "إنه يتخيل كيف ستبدو حياته إذا سار في طريق مقابل آخر"[7]. هذا ما يرغب علماء الحاسوب في تكراره باستخدام آلات قادرة على الاستدلال السببي: القدرة على طرح أسئلة "ماذا لو".

إن توقع ما إذا كانت النتيجة ستكون أفضل أم أسوأ إذا اتخذنا إجراءً مختلفًا هي طريقة مهمة يتعلمها البشر. إنه سيكون من المفيد إضفاء قدرة مماثلة على الذكاء الاصطناعي لما يُعرف باسم "التراجع المضاد -counterfactual regret". يمكن للآلة تشغيل السيناريوهات على أساس الخيارات التي لم تتخذها وتحديد ما إذا كان من الأفضل صنع سيناريوهات مختلفة. استخدم بعض العلماء التراجع المضاد بالفعل لمساعدة الحاسوب على تحسين لعبه للبوكر.

يمكن أن تساعد القدرة على تخيل سيناريوهات مختلفة أيضًا في التغلب على بعض قيود الذكاء الاصطناعي الحالية، مثل صعوبة الاستجابة للأحداث النادرة. وبحسب بنجيو، تظهر الأحداث النادرة بشكل ضئيل، إن وجدت، في البيانات التي يتم تدريب النظام عليها، وبالتالي لا يمكن للذكاء الاصطناعي التعرف عليها.

إن تشات جي بي تي يمكن أن يستفيد، من دمج السببية. في الوقت الحالي، تخون الخوارزمية نفسها من خلال إنتاج نثر مكتوب بوضوح يتعارض مع نفسه ويتعارض مع ما نعرف أنه حقيقي عن العالم (هلوسة). مع السببية، يمكن لـ تشات جي بي تي بناء خطة متماسكة لما كان يحاول قوله والتأكد من توافقه مع الحقائق كما نعرفها.

عندما سُئل بنجيو عما إذا كان هذا النوع من الذكاء الاصطناعي سيخرج الكُتاب والصحفيين من العمل، قال إن ذلك قد يستغرق بعض الوقت. "ولكن ماذا عن فقدان وظيفتك في غضون عشر سنوات، لكن في المقابل يتم إنقاذك من السرطان ومرض الزهايمر"، لذا فهو يقول: "هذه صفقة جيدة"[6].

مستقبل الذكاء الاصطناعي

الشبكات العصبية ليست الطريقة الوحيدة للذكاء الاصطناعي. المعسكر البارز الآخر في أبحاث الذكاء الاصطناعي هو الذكاء الاصطناعي الرمزي (Symbolic AI) - بدلاً من هضم مجموعات من البيانات الضخمة، فإنه يعتمد على قواعد ومعرفة مشابهة للعملية البشرية لتشكيل تمثيلات رمزية داخلية لظواهر معينة.

القفزة الكبيرة القادمة للذكاء الاصطناعي هو الدمج بين نهجين رئيسيين للذكاء الاصطناعي (العام والرمزي) مما يؤدي الى ظهور هجين جديد يسمى الذكاء الاصطناعي العصبي (Neurosymbolic AI). إنه يأخذ خطوات صغيرة نحو التفكير مثل البشر وقد يأخذنا يومًا ما الى التعايش مع سيارات ذاتية القيادة.

لكن ميزان القوى يميل بشدة نحو الأساليب التي اعتمدت على البيانات على مدى

العقد الماضي، تشكل البيانات والحسابات والخوارزميات أساس مستقبل الذكاء الاصطناعي. تشير جميع المؤشرات إلى أنه سيتم إحراز تقدم سريع في جميع الفئات الثلاث في المستقبل المنظور.

عن شركة OpenAI

في الماضي، كان التقدم في الذكاء الاصطناعي مصحوبًا بأدبيات تمت مراجعتها من قبل النظراء.

في عام 2018، على سبيل المثال، عندما طور فريق كوكل شبكة BERT العصبية التي تعتمد عليها الآن معظم أنظمة معالجات اللغات الطبيعية (وهناك اعتقاد بأن تشات جي بي تي أيضًا)، تم نشر الأساليب في بحوث علمية تمت مراجعتها من قِبل النظراء وكانت اللغات المستخدمة في البرمجة مفتوحة المصدر.

في عام 2021، كان برنامج AlphaFold 2 من شركة ديب مايند، وهو برنامج استخدم في فك رموز "طي البروتين" المعقدة جدا، كان بمثابة اختراق للعلوم في ذلك العام. كان البرنامج ونتائجه مفتوحة المصدر بحيث يمكن للعلماء في كل مكان استخدامه لتطوير علم الأحياء والطب.

بعد إصدار تشات جي بي تي، ليس هناك سوى منشور مدونة قصير يصف كيفية عمله. لم يكن هناك أي تلميح إلى إي منشور علمي مصاحب، أو إن اللغة التي استخدمت في البرمجة هي مفتوحة المصدر.

لفهم سبب الاحتفاظ بسرية تشات جي بي تي، علينا أن نفهم قليلاً عن طبيعة الشركة التي تقف وراءه.

ربما تكون شركة OpenAI واحدة من أغرب الشركات التي ظهرت في وادي السيليكون. تم تأسيسها كمنظمة غير ربحية في عام 2015 لتعزيز وتطوير ذكاء اصطناعي "صديق" بطريقة بحيث سيفيد البشرية ككل. تعهد كل من أيلين ماسك وبيتر ثيل وريد هوفمان وغيرهم من الشخصيات التقنية الرائدة بمليار دولار أمريكي لتحقيق أهدافها.

كان تفكيرهم بأنه لا يمكننا الوثوق في الشركات الهادفة للربح لتطوير ذكاء اصطناعي قادر بشكل متزايد أن يتماشى مع ازدهار البشرية. لذلك، يجب أن يكون تطوير الذكاء الاصطناعي من قبل منظمة غير ربحية، وكما يوحي الاسم، بطريقة مفتوحة (OpenAI).

في عام 2019، انتقلت شركة OpenAI إلى شركة ربحية محدودة (حيث يقتصر المستثمرون على أقصى عائد يبلغ 100 ضعف لاستثماراتهم) واستثمروا مليار دولار أمريكي آخر من مايكروسوفت حتى تتمكن من التوسع والتنافس مع عمالقة التكنولوجيا. ويجري، الان، محادثات لزيادة الاستثمار إلى 10 مليارات دولار؛ وهذا رفع من قيمة شركة OpenAI الى 29 مليار دولار.

يبدو أن المال أعاق خطط OpenAI الأولية للانفتاح وخدمة البشرية ككل!

الربح من المستخدمين

إن OpenAI استخدمت التعليقات الواردة من المستخدمين لتصفية الإجابات المزيفة التي تهلوس تشات جي بي تي. ووفقًا لمدونتها، استخدمت OpenAI في البداية التعلم تحت الاشراف البشري (أي فرض طريقة تعلم بشري خارج الاستنتاج الالي

الذي تستخلصه الإحصاءات الرياضية) في تشات جي بي تي لتقليل ترتيب الإجابات المزيفة و / أو الإشكالية باستخدام مجموعة تدريب يدوية مكلفة.

لكن يبدو الآن أن تشات جي بي تي تم ضبطه عبر أكثر من مليون مستخدم متطوع. تخيل أن هذا النوع من ردود الفعل البشرية كم سيكون مكلفًا للغاية لو كان الحصول عليه بأي طريقة أخرى.

نحن نواجه الآن احتمال حدوث تقدم كبير في الذكاء الاصطناعي باستخدام طرق غير موصوفة في المؤلفات العلمية ومع مجموعات البيانات المقيدة بشركة يبدو أنها مفتوحة المصدر بالاسم فقط.

ماذا سيحدث لاحقا؟

في العقد الماضي، كان التقدم السريع للذكاء الاصطناعي، في جزء كبير منه، بسبب الانفتاح من قبل الأكاديميين والشركات على حد سواء.

جميع أدوات الذكاء الاصطناعي الرئيسية لدينا هي مفتوحة المصدر.

لكن في السباق لتطوير ذكاء اصطناعي أكثر قدرة، قد ينتهي ذلك. إذا تضاءل الانفتاح في الذكاء الاصطناعي، فقد نرى تباطؤ التقدم في هذا المجال نتيجة لذلك، وقد نشهد أيضًا تطور احتكارات جديدة.

لقد واجهنا للتو ذكاءً غريبا. لا نعرف الكثير عنه إلا أن البعض يعتقد بأنه "قد يدمر حضارتنا" إذا لم توضع ضوابط له. لذا يجب أن يقف النشر غير المسؤول لأدوات الذكاء الاصطناعي في المجال العام وأن ينظم الذكاء الاصطناعي قبل أن ينظمنا. وأول تنظيم هو جعل الذكاء الاصطناعي أن يفصح، إلزاميًا، عن أنه ذكاء اصطناعي. إذا كنت تجري محادثة مع شخص ما، ولا يمكنك معرفة ما إذا كان هذا الشخص إنسانًا أم ذكاءً اصطناعي – فهذه هي كارثة.

ما لم يتم معالجة هذا الانحراف الجشع للشركات الاحتكارية، فإن الشيء الذي يبدو أنه يمثل العصر الذهبي للذكاء الاصطناعي قد يشير في الواقع إلى نهايته.

هوامش

1- .https://www.bbc.co.uk/news/world-us-canada-65452940
2- https://www.independent.co.uk/tech/stephen-hawking-humanity-is-going-to-use-
3- .science-and-technology-to-wipe-itself-out-professor-warns-a6821341.html
.Tom Chivers, March 1, 2022, https://inews.co.uk
4- https://theconversation.com/not-everything-we-call-ai-is-actually-artificial-intelligence-heres-what-you-need-to-know-196732
5- Ian Goodfellow and Yoshua Bengio and Aaron Courville, Deep Learning, MIT Press, .2016, p. 97
6- https://www.nature.com/articles/d41586-023-00577-1?utm_source=Nature+Briefing&utm_campaign=780218d1c5-briefing-dy-20230227&utm_
7- .medium=email&utm_term=0_c9dfd39373-780218d1c5-44334717
https://www.poetryfoundation.org/poems/44272/the-road-not-taken

الثورة الرقمية والتعليم الرقمي في العالم العربي ورهان الحداثة

الأستاذة نزهة عمور
باحثة في علم الاجتماع في المغرب

اخترت هذا الموضوع لعدة أسباب: أولها، ما يحظى به موضوع التربية والتعليم من أهمية قصوى في كل العالم لاسيما بعد الجائحة، وبالخصوص في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا حيث يعتبر ضعف المنظومة التعليمية من أهم العوائق التي تقف في وجه إنجاح مشاريع التنمية المستدامة.

ثاني تلك الأسباب، ما تمثله الثورة الرقمية اليوم من فرصة حقيقية من أجل إصلاح أعطاب التعليم عندنا والتعرف على البدائل التي تقدمها في هذا المجال. وبهذا الصدد تحدثت مساعدة المديرة العامة لليونسكو للتربية ستيفاني جيانيني في تموز/ يوليو 2022، عن ضرورة إحداث تحول في التعليم لكي يتصدى للمشكلات الجديدة للقرن الحادي والعشرين، وقد بين تقرير اليونسكو الذي صدر مؤخرا بشأن مستقبل التربية والتعليم، أنه يتعين تعديل المناهج وطرق التعليم لكي تتأقلم مع معطيات تغير المناخ والعولمة والثورة الرقمية وغيرها من مستجدات العصر.

كما قامت المديرة العامة لليونسكو السيدة أودري أزولاي في القمة الأخيرة حول التعليم، والتي انعقدت بأيلول| سبتمبر 2022 بمشاركة أكثر من 130 دولة، تحت عنوان "تغيير التعليم من أجل تعليم أخضر" بتقديم، إستراتيجية المنظمة لتغيير التعليم، من خلال "تغيير المدارس لتصبح أماكن للتعلم ونماذج للحياة المستدامة وتكييف المناهج وتطوير المعلمين، بحيث يتمتع كل متعلم بالمهارات التي يحتاج إليها للإبحار في عالم وسائل التواصل الاجتماعي والخوارزميات والذكاء الاصطناعي" [1]. وأكدت اليونسكو أنها ستمضي في هذا الزخم قدما لتحقيق الهدف العالمي المتمثل في توفير تعليم جيد للجميع بحلول عام 2030.

السبب الثالث لاختياري هذا الموضوع، هو الرغبة في ربط منبرنا الموقر هذا، منبر حوار التنوير، بما يحدث حولنا اليوم من متغيرات عالمية هائلة، تفرض علينا إعادة قراءة واقعنا وتحديد مواقع الضعف في مجتمعاتنا بمنظور مختلف يساعدنا على طرح أسئلة جديدة، والأسئلة عندما تكون دقيقة هي من تقودنا إلى الحلول الصحيحة، وهذا يذكرنا بقيمة السؤال في الدرس الفلسفي، حيث اعتبر الإغريق وبالتحديد منذ سقراط أن السؤال أهم من الجواب.

يصعب على الباحث اليوم في أي مجال من مجالات العلوم الإنسانية، أن يتناول بالتحليل أي موضوع من مواضيعها دون الأخذ بعين الاعتبار ما يعيشه العالم وبشكل متسارع

لاسيما في العقدين الأخيرين من ظواهر جديدة، غيرت وجه العالم وأساليب العيش فيه وجعلته في نفس الوقت يبدو وكأنه بالفعل قرية صغيرة، وذلك بفضل الثورة الرقمية أو ثورة المعلومات، التي جعلت المعلومة كما الخبر ينتقلان من أقصى الأرض إلى أقصاها في زمن حقيقي (في نفس اللحظة)، كما جعلت المعرفة بكل فروعها متوفرة للجميع من خلال خدمات الإنترنت وتطبيقاته العديدة التي باتت تختزن جُل الذاكرة الإنسانية ماضيا وحاضرا...، الأمر الذي غير مفاهيم عديدة كما غير نظرتنا إلى أمور كثيرة، وخاصة منها المعرفة حيث أصبحت الأمية مرادفة للجهل بالعالم الرقمي وتطبيقاته وعدم القدرة على الاستفادة من خدماته.

إن العالم الرقمي وتكنولوجيا المعلومات أصبح بالفعل عالما مترامي الأطراف، مؤثر في جُل مناحي الحياة، من الاقتصاد والمال إلى النقل والإعلام فالصحة والتعليم والثقافة والفن... والقائمة تطول كما ونوعا مع التطور السريع الذي تعرفه الثورة الرقمية.

نحن إذن، أمام ثورة شاملة غيرت وجه العالم وستغيره أكثر لأنها حسب الخبراء ما تزال في بداياتها، تدعى بالثورة الرقمية، فما هي الرقمية وما الذي يميزها عن الثورات السابقة؟

تعريف

تعد الثورة الرقمية ثالث ثورة صناعية يعرفها العصر الحديث، ويرى جيرمي ريفكن في كتابه "الثورة الصناعية الثالثة"، "أننا نكون إزاء ثورة صناعية تجديدية، عندما يقترن الانتقال من استخدام مصدر للطاقة إلى مصدر آخر من خلال ظهور شبكة جديدة من الاتصالات" [2] من هذا المنظور، يمكن التمييز بين ثلاث ثورات عرفها العالم المعاصر:

فالثورة الصناعية الأولى، قامت على الطاقة المتولدة من الفحم الحجري، وإنشاء شبكات السكك الحديدية والملاحة البحرية، وفي الثانية، تم اكتشاف طاقة النفط والكهرباء، فنشأت شبكتا النقل الطرقي والاتصالات السلكية واللاسلكية. وفي الثورة الحالية ظهرت شبكة جديدة هي الإنترنت، ويجري العمل الآن على استبدال الطاقة الأحفورية بموارد نظيفة جديدة، كالرياح والماء والشمس.

ويمكن القول أن ما ميّز الثورتين الأولى والثانية هو أن نصيب مجتمعات العالم الثالث في بدايتها كان ضعيفا، خاصة في الفترة الاستعمارية، إذ غالبا ما استغلت بلدانه كمخازن للمواد الأولية لتطوير صناعات البلدان الأوروبية وتشييد بناها التحتية خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تم تسخير البشر وتهجير الأيدي العاملة لأبناء المستعمرات ونقلهم بالآلاف للعمل في مجالات شاقة كبناء الطرقات وحفر المناجم والأنفاق وبناء الجسور ومد السكك الحديدية وغيرها من الأعمال الشاقة في ظروف صعبة، مقابل أجور زهيدة، وقد استمر نهب المستعمرين الأوربيين لتلك البلدان خاصة في أفريقيا إلى ما بعد الفترة الكولونيالية. كما أن ما شيده الاستعمار من بنى تحتية في البلدان المستعمرة، كان أساسا لخدمة المعمرين وتحسين ظروف عيشهم وتسهيل عملية نقل البضائع والمواد الأولية إلى بلدانهم.

في الثورة الرقمية، نحن أمام وضع جديد، أمام ثورة بعيدة عن روح الأنانية*، ثورة عالمية بكل معنى الكلمة تضع نفسها كخيار مفتوح أمام كل من يسعى إلى الانخراط فيها والاستفادة من خدماتها وتكييفها حسب احتياجاته، وقد

يتعلق الأمر بشخص أو بمجموعة أشخاص كما بمؤسسة أو دولة.

صحيح أن بلدان الجنوب لم تساهم في الثورة الرقمية ولكنها كغيرها من بلدان العالم تستفيد ولو بتفاوت من خدماتها الجُلى؛ وفي مقدمتها ربح الوقت والمال وتعزيز الحَكامَة وتقريب الإدارة من المواطنين.

وقد عملت الثورة الرقمية على عولمة العالم وعلى تعميم المعرفة وسهولة الوصول إلى المعلومات، إذ يكفي أن تتوفر على هاتف ذكي أو حاسوب أو لوحة إلكترونية لتصبح متواصلا مع كل العالم وبين يديك أو في حقيبتك جُل المعلومات والمعارف التي راكمتها الإنسانية في مجالات العلم والمعرفة، شرط أن تحسن استعمالها مع إجادة إحدى اللغات التي تعمل بها.

لا يخفى على أحد مدى الأسئلة الشائكة التي تثيرها الثورة الرقمية وما ألحقته وما ستلحقه مستقبلا سواء بالعلاقات الإنسانية والاجتماعية وبالأنماط الإنتاجية التي ألفناها أو حتى بنظرة الإنسان إلى نفسه وللعالم، فالذكاء الاصطناعي سينقلنا إلى مجتمع الآلة الذكية التي ستصبح جزءًا من حياتنا اليومية، وتتمتّع بنفس قدرات الإنسان وأكثر. هنالك أسئلة يطرحها الذكاء الاصطناعي حول حدوده وإمكانياته وكيف يمكن أن يتطور دون أن يتوصل مثلا إلى القدرة على السيطرة على الإنسان والتحكم فيه.

إلا أن ما يهمنا في هذا البحث هو موضوع الرقمنة وإسهامها في مجال التعليم الرقمي، وإلى أي حد يمكن أن يشكل رافعة للتنمية؟

تعريف التعليم الرقمي

تكمن أهمية التعليم الرقمي في جانبه البيداغوجي أساسا، ففي الوقت الذي نجد فيه التعليم التقليدي مازال يتمحور حول الأستاذ في عملية تلقينية قائمة على الحفظ، أصبحنا في التعليم الرقمي أمام مفهوم جديد للتعليم والتعلّم تتحول فيه علاقة الأستاذ بالطالب من علاقة تبعية مطلقة إلى عملية تشاركية يتحول المعلم فيها إلى مرشد ومصاحب للعملية التربوية، تاركا للتلميذ مهمة البحث عن المعلومة، لأن جُل المعلومات أصبحت موجودة على الإنترنت، وهو ما يؤهل التلميذ للاعتماد على النفس، ويُنمّي لديه حب المعرفة، وطرح السؤال، ويؤهله لتطوير مَلَكَاتِه العقلية الأساسية، كالفكر النقدي والتحليل والمقارنة والاستنتاج وغيرها من الآليات الفكرية التي تساعده على بناء شخصيته المستقلة.

إن مفهوم التعلم في المجال الرقمي يتمحور أساسا حول تحقيق هذه الأهداف، من أجل بناء أفراد قادرين على الإبداع والابتكار، وما أقل المبدعين والمبتكرين لدينا ولا أدل على ذلك من أن أغلبهم يبتكرون ويبدعون عندما يلتحقون بالجامعات الأجنبية.

قد يسأل السائل هنا: كيف استطاعت البلدان التي أصبحت متقدمة أن تنجح في مجال التعليم حتى قبل ظهور الرقمنة؟ وما الذي يمكن أن تضيفه الرقمنة إلى هذا التعليم الناجح أصلا؟ والجواب هنا هو إدراكهم المبكّر للأهمية القصوى للعملية التربوية. وقد ظل البحث التربوي في أولويات اهتماماتهم بهدف صقل المواهب، وإبراز قدرات التلاميذ والحيلولة دون أن تصبح المؤسسة التربوية مكانا للإقصاء، لأن فشل الطالب غالبا ما يكون فشلا للمنظومة التعليمية وليس للطالب نفسه، فحسب هذا المنظور لا يخلو أي تلميذ من قدرات أو مواهب، يجب على المعلم

والمؤسسة التربوية مساعدته نفسيا وتربويا على اكتشافها وتطويرها.
ولعل نظرية "جان ديوي" -وهو من أشهر أعلام التربية الحديثة- والتي تسمى بنظرية "التعليم التقدمي"، القائمة على ضرورة ربط النظريات التربوية بالأهداف التربوية مع الحرص على تجنب تأثير الأفكار السائدة والتقاليد الموروثة والتركيز مقابل ذلك على الديالكتيك؛ أي منهجية بناء الدرس حيث يتعين على المعلم القيام بإعداد منهجي لمراحل الدرس من خلال تحديد الأهداف المفترض بلوغها، (وهو ما يسمى في علم الديالكتيك بالتعلم بالأهداف) والتأكد فيما بعد من خلال عملية التقييم من الوصول إلى تلك الأهداف، اعتماداً على طرح أسئلة تركيبية على الطلاب عند نهاية الحصة لقياس مدى استيعابهم للدرس وأهدافه.
يبقى الشطر الثاني من السؤال، وهو ما الذي يمكن أن تضيفه الرقمنة للتعليم؟ سواء في الغرب أو الدول المتقدمة عموما؟ الجواب هنا هو أن إيجابيات التعليم الرقمي جد هامة بالنسبة لكل المجتمعات وذلك لعدة أسباب:
أولا؛ الجانب الاقتصادي، سواء الاقتصاد في الوقت أو الاقتصاد في بناء المدارس والجامعات الذي يوفره التعليم عن بعد.
ثانيا؛ من الناحية البيداغوجية، يقوم التعليم الرقمي على مفهوم التعلم الذاتي وهو ما كانت تسعى إليه النظريات التربوية الحديثة، كما أشرنا سابقا، والذي أصبح تحقيقه أسهل مع التعلم الرقمي من خلال الإنترنت ووسائل الاتصال الذكية، الأمر الذي يوفر للطالب فرصة البحث والاجتهاد والاعتماد على النفس.
ثالثا؛ تعزيز الجانب الثقافي، من خلال توسيع آفاق البحث الثقافي التي يتيحها الإنترنت وبالتالي تنمية الفضول المعرفي لدى الطلاب.
رابعا؛ التعلم مدى الحياة، ذلك الهدف الأسمى الذي سعت إليه النظريات التربوية الحديثة، على اعتبار أن عملية التعلّم لا تتوقف وتجديد المعارف وتطويرها أمر ضروري من أجل بناء مجتمع المعرفة والبقاء فيه، وهو المكسب الذي يمكن أن يحققه التعليم الرقمي لطبيعته المختلفة والتي جعلته معرفة نقالة يحملها الإنسان أينما ذهب ويسألها وقتما شاء.

المغرب والثورة الرقمية والتجربة في مجال التعليم الرقمي

قياسا إلى بلدان العالم الثالث، تعتبر التجربة المغربية في مجال الرقمنة تجربة جيدة نسبيا خاصة فيما يتعلق برقمنة القطاع المالي والاقتصادي والإداري وغيرها من المرافق والخدمات التي تتم رقمنتها تِباعا، ويعود ذلك لما راكمه المغرب من تجارب في هذا المجال منذ عقدين أو يزيد، مما جعله من بين المستثمرين في مجال الرقمنة في أكثر من بلد أفريقي.
إلا أن هناك حاجة إلى تعزيز هيكلة هذا المجال وتوسيع تجربة الرقمنة وتسريع وتيرتها لتصل إلى كل الجهات والمناطق.
وبهذا الصدد يقول الأستاذ الحسين الساف وهو أحد الخبراء المغاربة في مجال الإعلام الرقمي وهندسة مضامين التعليم عن بعد:
"نعيش حاليا تحولا حقيقيا على مستوى الرقمنة، فهنالك كثير من الممارسات والعادات التي تغيرت بفعل شبكة الإنترنت، حيث بدأنا نتكلم عن مفاهيم جديدة مثل مفهوم" (المواطنة الذكية)، فالمواطن المغربي لم يعد مجرد متلقي أو مستهلك لما تفرزه الشبكة العنكبوتية، بل

أصبح فاعلا ومؤثرا، يخبر وينتج ويعلم ويقيم ويسوق بل ويبتكر سلع وخدمات، هذا الفاعل الجديد يجب التركيز عليه في جل السياسات المتعلقة بالتحول الرقمي، ويكفي أن نعلم أن المغرب يتوفر الآن على 26 مليون ربط إنترنيت منزلي، ولديه 40 مليون هاتف ذكي؛ (أي أكثر من عدد سكانه) و15 مليون حساب على الفايسبوك، إضافة إلى عشرات الملايين من حسابات تويتر والتطبيقات الأخرى. وهذا معناه أن المغرب قطع أشواطا طويلة في مسألة البُنى التحتية في المجال الرقمي، ولكنه مع ذلك مازال يشكو من الأمية الرقمية، لذلك أرى أن هنالك ثلاث نقاط يجب التركيز عليها: **أولا**، العمل على وضع برامج وسياسات حكومية بإشراك خبراء متخصصين والاستعانة أيضا بكفاءات القطاع الخاص ومؤسسات المجتمع المدني للتغلب على الأمية الرقمية التي تظل عائقا في توسيع وتطوير الرقمنة.

ثانيا: إدراج مواد تكنولوجية في التعليم بكل مراحله.

ثالثا: توفير الإمكانيات المادية والبشرية لتوسيع وتحديث البنية المعلوماتية الوطنية.

رابعا: العمل على تكوين أجيال قادمة في مجال تكنولوجيا المعلومات والتي سيكون لها دور أساسي في ترسيخ الرقمنة مستقبلا في بلادنا" [3]. كما صرح وزير التعليم السيد شكيب بنموسى منذ بضعة شهور: "بأن إدارته ستقوم بوضع مجموعة مهمة من اللوحات الإلكترونية لصالح مجموعة من المؤسسات التربوية، بهدف تحسين جودة العملية التربوية بواسطة الرقمنة سواء بالنسبة للأساتذة أو التلاميذ، وستشمل هذه العملية تقنيات التعليم عن بعد كحل لمشكل الاكتظاظ داخل الأقسام، إضافة إلى حل مشكل الأقسام التي تضم عدة مستويات، ومعالجة المشاكل المتعلقة بالدعم المدرسي. إننا مقتنعون بأن استعمال الرقمنة وإدماجها بشكل منهجي في العملية التربوية من شأنه أن يساعد على التغلب على هذه الإكراهات. هذا بالإضافة إلى إخضاع المربين القدماء إلى عملية التكوين المستمر والتأطير من جديد، لأنهم سينخرطون في رؤية بيداغوجية جديدة ستتطلب منهم مجهودا جديدا واستعدادا أيضا" [4].

هذه التصريحات وغيرها كثير سواء من طرف خبراء أو مسؤولين في مجال التربية، تؤكد عزم المغرب على اللجوء إلى التعليم الرقمي وخاصة لتقنية التعليم عن بعد، والتي اكتشفها المغاربة إبان أزمة كوفيد، وانقسم حولها الرأي العام المغربي آنذاك بين مؤيد ومتشكك في هذا النوع من التعليم غير مضمون النتائج. لا شك أن اللجوء لهذه الطريقة غير المألوفة في التعليم لم تلق إبان الجائحة قبولا عاما سواء من المؤطرين أو الطلاب أو أولياء أمورهم، ليس فقط بسبب الطبيعة المختلفة لهذا التعليم، وإنما أيضا في طريقة اللجوء إليه، التي اتسمت بالسرعة وعدم الإعداد الجيد، سواء فيما يتعلق بتكوين المؤطرين، أو توفير الأجهزة اللازمة للتلاميذ وحتى للمعلمين، إضافة إلى ضعف شبكات الاتصال التي لم تكن مهيأة لاستقبال الضغط المتزايد من طرف ملايين المستعملين في نفس الوقت، مما أدى إلى حدوث انقطاعات متكررة أثرت بشكل سلبي على سير عملية التعليم عن بعد. وكان العالم القروي والمناطق النائية الأكثر تضررا بسبب ضعف الشبكة العنكبوتية أو انعدامها أحيانا.

وبهذا الصدد لابد من الإشارة إلى أن المغرب

وبالرغم من كل الإكراهات التي فرضتها أزمة الكورونا، استطاع إلى حد لا بأس به، النجاح في إنقاذ السنتين الدراسيتين اللتين عرفتا انتشار الجائحة، وذلك بفضل الدور الأساسي الذي قام به "مركز التعليم الرقمي بالرباط الذي يضم احدث الكفاءات والتقنيات البيداغوجية لتتبع المسار الدراسي عن بعد".

وهو عبارة عن مختبر تابع لجامعة محمد السادس التقنية، تم إنشاؤه سنة 2017 لمواكبة التطور الرقمي الذي يعرفه العالم في مجال التعليم وتطوير مهارات الأساتذة، من أجل الانتقال من نموذج التعليم الحضوري إلى المجال الرقمي القائم على تقنيات التعليم عن بعد. يضم هذا المركز أخصائيين في الرقمنة يشتغلون مع الأساتذة من أجل تطوير دروسهم وتقديمها من خلال المنصات الرقمية عوض الأقسام، كما يتوفر المركز على استوديوهات مختلفة للتسجيل وإنتاج الدروس، وكاميرات تستخدم أحدث التكنولوجيات المتطورة، لتمكين الأساتذة من إعداد الدروس بشكل مهني، وتوضيبها من قبل تقنيي المعلوميات وذلك قبل تقديمها على المنصات الخاصة.

في البداية كان هذا المركز يشتغل مع مجموعة من المدارس النموذجية التابعة لولاية مدينة الرباط، كوسيلة تجريبية لتطوير آليات التعليم عن بعد. غير أن ظروف الجائحة وما صاحبها من فرض الحجر الصحي وقرار الحكومة السريع بإغلاق المدارس والانتقال إلى التعليم عن بعد كحل مثالي لإكمال المقررات التعليمية وإنقاذ السنة الدراسية، جعل أنظار المسؤولين تتجه إلى "مركز التعليم الرقمي التابع لجامعة محمد السادس التقنية" لما يحتويه من إمكانيات لوجيستيكية وموارد بشرية مؤهلة، إضافة إلى الخبرة التي راكمها في الميدان. وهكذا لعب هذا المركز دورا محوريا عبر توظيف الاستوديوهات الخاصة لتسجيل وإنتاج الدروس، مع فتح استديوهات جديدة في مدن مغربية أخرى.

وهكذا فقد ساعد وجود هذا المركز أو المختبر بتكنولوجياته المتطورة والخبرة المتوفرة لدى الفاعلين فيه من اجتياز أزمة الكوفيد بالنسبة للتعليم في المغرب.

وبهذا الصدد يقول الخبير رفيق العلمي عن تلك الفترة: "لقد تم اتخاذ القرار بالتحول من التعليم التقليدي إلى التعليم الرقمي بين عشية وضحاها، وهو القرار الذي كان يحتاج إلى كثير من التحضير والعمل من اجل إخراجه على أكمل وجه، لكن ظروف الكوفيد، فرضت علينا العمل بسرعة، وكان بالفعل فرصة لكي يفهم الناس أهمية هذا التعليم، أي التعليم عن بعد، وأنه من الممكن أن يكون مكملا للتعليم الحضوري، وحتى بديلا عنه إذا ما توفرت الشروط اللازمة لإنجاحه، وهنا لابد أن أشير إلى الدعم الكبير الذي تلقاه هذا المركز خلال أزمة كورونا، سواء من وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، إضافة إلى الجامعات المغربية والمكتب الشريف للفوسفاط، مما أمكننا من سداد الخَصَاص المرتبط بقلة الإمكانيات ومحدودية التجارب المرتبطة بالتعليم الرقمي ببلادنا. وكل ما نرجوه هو أن تستمر تلك الجهود بنفس الزخم لإعطاء التعليم عن بعد أهميته وقيمته الحقيقية" [5].

ما الذي يستطيع هذا التعليم تقديمه سواء للمغرب أو لباقي البلدان العربية؟

يستطيع هذا التعليم أن يقدم الكثير لبلداننا خاصة في مجال التنمية البشرية التي هي

أساس التنمية المستدامة، من خلال المساعدة على حل كثير من المعضلات الاجتماعية التي تقف سدا في سبيل تطور مجتمعاتنا والتي يعود جزء كبير منها إلى ضعف المنظومة التعليمية منهجا ومضمونا وتأطيرا. فمازال التعليم العام عندنا يتبع مناهج عفا عليها الزمن، إضافة إلى ظاهرة التسرب المبكر التي تنتج جيوشا من العاطلين في رعيان الشباب، وضعف أو غياب مؤسسات التكوين المهني أو ارتفاع كلفتها بالنسبة للطبقات الفقيرة، والزواج المبكر للبنات الناتج أيضا أما عن غياب المدرسة أو بعدها عن أماكن السكن، إضافة إلى ضعف واهتراء البُنى التحتية للمؤسسات المدرسية في المناطق الفقيرة، التي تجعلها فاقدة لأية جاذبية بالنسبة للأطفال الصغار والمراهقين على السواء.

إن ما يميز التعليم عن بعد هو كلفته المتدنية، إضافة إلى اختصاره للمسافات، وقدرته على التأقلم مع حاجيات مختلف الفئات الاجتماعية، لكن تفعيل كل تلك الإيجابيات يحتاج إلى تنظيم وتأطير وإلى حملة تحسيسية، سواء من طرف الدولة أو الإعلام أو المجتمع المدني أو الهيئات المحلية المنتخبة.

لقد أشرنا سابقا إلى أن المغرب يملك 40 مليون هاتف نقال في الوقت الذي لا تتعدى ساكنته 37 مليون نسمة بما فيها المغاربة المقيمين في الخارج؛ إن الهاتف النقال كاف ليتحول إلى وسيلة للتعلم في كل مناطق المغرب شريطة تعميم الشبكة العنكبوتية وتزويدها بالقوة الكافية التي تجنبها الانقطاعات في المناطق الضعيفة التغطية.

والتعليم هنا نقصد به التعليم الموجه للطبقات المحرومة والمهمشة على الخصوص، من محو الأمية، إلى إعطاء فرصة جديدة للنساء والرجال الذين يرغبون في استكمال تعليمهم، إلى تأمين التكوين المهني للتلاميذ المُتسَربين في مهن مطلوبة كالكهرباء، مثلا، أو السباكة أو الزجاج أو غيرها من المهن الكثيرة المرتبطة بمجال البناء، إضافة إلى تعلم الحرف اليدوية واللغات والانفتاح أيضا على تعلم الخدمات المرتبطة بالانترنت، مثل السياحة والفندقة وغيرها.

لقد أصبح لدينا في المغرب كما في باقي البلاد العربية جيش من المتقاعدات والمتقاعدين من بينهم نسبة عالية من المعلمين والأساتذة الذين يمكن توظيفهم للقيام بهذه المهام، والتي لن تضطرهم للخروج من منازلهم، كما يمكن فتح المجال لأي ذي معرفة أو صنعة أو حرفة يرغب في الإسهام في هذا المشروع التنموي بامتياز.

لقد أصبح التعليم عن بعد واقعا عالميا، تتبناه الجامعات والمدارس في كثير من البلدان المتقدمة، وهو في اتجاه أن يصبح مجانيا في كثير من الجامعات العالمية بما فيها جامعة هارفرد التي أطلقت مجموعة من التخصصات عن بعد، منها المدفوعة ومنها من تدرس بالمجان، كما تم إحداث جامعة أمريكية اسمها "جامعة الشعب" أول جامعة مجانية للتعليم عن بعد، ويمكن الدراسة فيها باللغة العربية أيضا.

النرويج مثلا قررت أنه عما قريب، سيكون في إمكان أي طالب التسجيل بجامعاتها دون مقابل، أي تعليم عن بعد مجاني.

وهنا نطرح التساؤلات التالية:

- هل نحن مقبلون على عصر تكافؤ الفرص في التعليم والتعليم العالي على الخصوص بل ومجانيته أيضا، ذلك المكسب الذي عجزت عن تحقيقه أعتى الديمقراطيات؟

- هل نحن مقبلون بالفعل على مجتمع للمعرفة يفتح ذراعيه للجميع؟
- هل الحضارة المقبلة ستكون من صنع كل الشعوب بفضل انفتاح فرص المعرفة أمام للجميع؟
- ما مصير الجامعات كبنايات في حال انتشار التعليم عن بعد؟

أسئلة كثيرة قد نجد جوابها في تعريف رئيس جامعة هارفارد الأمريكية لورانس باكو [6] Lawrence S. Bacow للتعلم الرقمي حيث يسميه بـ''الانزلاق'' أو تسونامي الذي سيجرف الجامعات والمدارس، معلنا أننا بحاجة إلى تحول التعليم إلى تعلم رقمي وفي سنة 2030 ستصبح 80 بالمئة من جامعات أمريكا رقمية، لا يوجد بها صفوف أو كتب أو مدرسين. نحن في عالم تجتاحه ثورة رقمية جارفة. إذا لم نتواءم معها سنضيع. والبداية تكون بصدور قرار حكومي بالاعتراف بالتعلم الرقمي. وفي نهاية المطاف فإن التعلم الرقمي هو التعلم الحقيقي، ففيه يُتاح للطالب ولوج الأفق الواسع للمعرفة الذي يؤهله إلى تعليم نفسه بنفسه.

عن الحداثة والتعليم

كما نعلم جميعا فإن سؤال ''التعليم والحداثة'' كان دائما وما يزال موضوع أخذ ورد في بلداننا العربية، غير أنه لم يحظ بالأولوية التي حظي بها موضوع ''التراث والحداثة'' و''الأصالة والمعاصرة'' وغيرها من المواضيع ذات الطابع السجالي الإيديولوجي والتي أظهرت التجارب أنها لا تحل بقرار سياسي وإنما بسيرورة اجتماعية قوامها تعليم مستنير ينشأ أفرادا برؤى جديدة وطموحات مغايرة. لم يحتل موضوع ربط التعليم بالحداثة المكانة التي كان يستحقها، وظل شعارا أكثر ما هو وسيلة للتغيير الحقيقي، ربما لأن الحركات الوطنية بالبلاد العربية، ظلت في عمقها محافظة تسعى إلى الإصلاح ولكنها تخشى التغيير، لذلك ظل سؤال التعليم مرتبطا أساسا برهان التنمية، دون التفات إلى أهميته في بناء عقول الأفراد القادرين على الاندماج في العالم المعاصر والإبداع فيه.

وغالبا ما كانت صيغة السؤال حول التعليم تحمل جوابها المبسط والمتمثل، في ضرورة ربطه بالتنمية وسوق الشغل والحال انه يمثل العائق الأساسي أمام التنمية وتوسيع سوق الشغل، نظرا لافتقار خِرّيجِيه لروح النقد والإبداع والبحث عن التميز.

وكانت المرجعية دائما، النتائج التنموية المبهرة التي حققتها بلدان شرق آسيا كسنغافورة وكوريا الجنوبية والصين أيضا في وقت قياسي لا يتعدى ثلاثة عقود على كل المستويات من خلال اعتمادها على تطوير وإصلاح منظومتها التعليمية بالأساس.

والحقيقة أن ما قامت به تلك البلدان كان تغييرا شاملا لمنظومة تعليمية عفا عليها الزمن وليس إصلاحا للمنظومة القديمة، إذ لا علاقة بين المفاهيم الفلسفية التي كانت تقوم عليها التربية التقليدية والمفاهيم الفلسفية الجديدة للتربية الحديثة، دون أن يعني ذلك التخلي عن ثقافة تلك البلدان أو تراثها، فهذا لم يشكل أبدا هاجسا عند الإصلاحيين الأسيويين، فقط هم انتبهوا قبلنا إلى أهمية المنهج في العملية التربوية أكثر من تزويد الطلاب بمحفظة ثقيلة مليئة بالكتب التي سرعان ما تنتهي صلاحيتها مع تطور المعارف والبحوث العلمية. لقد فهموا أن التعليم أساسه الإبداع بما فيه الإبداع المهني وليس التلقين الذي يوهم صاحبه أنه استوعب

كل شيء عندما استظهر دروسه كاملة كما تلقاها من معلمه، لتقف العملية التعليمية عند هذا الحد الفاصل بين الإبداع والجمود.

وبهذا الصدد يقول "وو بن"، صاحب كتاب "الصينيون المعاصرون، التقدم نحو المستقبل انطلاقا من الماضي" في وصفه للتحديث الذي طرأ على المجتمع الصيني والذي بفضله تحول المجتمع الصيني التقليدي إلى مجتمع عصري حداثي، ويذكر في مقدمة الأسباب التي سهلت ذلك الانتقال، عامل تحديث التعليم حيث يقول: "منذ أن ألغت الصين نظام التعليم الإمبراطوري في عام 1905 وهي تعمل على تحديث التعليم بصورة تدريجية، وأسست نظاما لتحديث التعليم يشتمل على التعليم العادي والتخصصات العليا واستمرار تعليم الكبار، وأصبح قبول تحديث التعليم عامل مهم لتحقيق تحديث أفراد المجتمع (...) أن تأثير المدرسة في تحديث الإنسان بعيد المدى جدا، ولا يجعل التعليم في المدارس الإنسان يولع بطلب العلم فحسب، بل يجعله أكثر قدرة على انتهاج أسلوب العقل للتعامل مع الحياة، وإنشاء مفاهيم جديدة للقيم. ناهيك عن أن المعارف التي يتلقاها بصورة رسمية في المدارس تلعب دورا مباشرا في تشكيل تحديثه ويمتد تأثيرها إلى سلوكه في الجوانب الأخرى" [7].

في نفس الموضوع يشرح "أليكس إنجلز" بإسهاب أهمية تحديث الأفراد بالنسبة لتحديث المجتمع، مشيرا إلى أن: "للأفراد دورا جوهريا في مسيرة تنمية وتحديث الدولة كلها، ولا يمكن أن نطلق على دولة ما لقب دولة حديثة حقا إلا عندما يكون شعبها من العصريين، وتتغير سيكولوجية الشعب وإعماله إلى الصفات الحديثة، ويحقق العاملون في أجهزة الإدارات الثقافية والاقتصادية والسياسية الحديثة نوعا من التحديث يتوافق مع تطوير العصرنة. إن تحديث الأفراد يعد عاملا لا يمكن الاستغناء عنه لتحديث الدولة. وهذا العامل ليس نتاجا ثانويا لنهاية عملية التحديث، بل أنه شرط مسبق لتحديث النظم ويعتمد عليه تطوير الاقتصاد لفترة طويلة لإحراز النجاح" [8].

هذا التوجه نحو بناء الإنسان باعتباره ركيزة التقدم والضمانة الأساسية لاستمرار عملية التطور ونجاحها، هو نفسه الذي نجده في كل التجارب الآسيوية انطلاقا من اليابان، فالصين، إلى أصغر البلدان وأفقرها من حيث الثروات الطبيعية مثل سنغافورة وكوريا الجنوبية. واسمحوا لي هنا بإعطاء مثال من المغرب مجددا ينطبق تماما مع هذا التحليل، ويتعلق الأمر بالمبادرة الوطنية للتنمية البشرية التي أطلقها المغرب منذ 2005 ولا زالت مستمرة إلى يومنا هذا، هدفها القضاء على الهشاشة والفقر خاصة في الأرياف والأحياء الهامشية للمدن، عن طريق النهوض بالطاقات البشرية من خلال إدماجها في مشاريع تنموية يتم خلقها وتمويلها بشكل تشاركي بين المستفيدين الذين يساهمون في التمويل بنسبة 10 إلى 20 بالمئة فيما تمول المبادرة الباقي من قيمة المشروع، واغلبها مشاريع مقولات صغرى والأكثر صغرا، تحفيزا للأفراد على تنمية إمكانياتهم وتطوير مناطقهم، مما يسهم في تحسين مداخلهم والرفع بالتالي من مستوى عيشهم. لكن نتائج هذه المبادرة لم ترق إلى المستوى المرجو منها بسبب انتشار الأمية في تلك الأوساط وخاصة بين النساء، الأمر الذي شكل عائقا في قدرتهن على التطور كما على التسيير الذاتي ومن ثم على المضي بعيدا بمقاولاتهن. وهذا أكبر دليل على انه في حالة

غياب أو ضعف المنظومة التعليمية، فإن قدرة الإنسان تصبح منعدمة ليس فقط على الإبداع والابتكار بل وحتى على الاستقلال بذاته وتطويرها، حيث يتحول العامل البشري من رافع للتنمية إلى عائق في طريقها.

والمأمول بالنسبة إلينا في هذه الورقة أن يساعد التعليم الرقمي مستقبلا على خروج بلداننا من حالة الهشاشة البشرية إلى حالة النضج الإنساني من خلال تحرير البشر ليس فقط من الجهل والأمية، بل ومن الروح الاتكالية والتبعية والخوف من اخذ المبادرة.

إن ما يؤهل التعليم الرقمي في رأيي للقيام بهذه المهام -مع تأمين تأطير في البداية على الأقل- هو قيامه أساسا على التعلم الذاتي وتنمية حب المعرفة وتقييم الذات. وكلها أمور تساعد على تطوير الملكات العقلية الأخرى، كممارسة التحليل والنقد والمقارنة والسؤال وغيرها من العمليات الفكرية التي تساعد الطفل منذ البداية على تكوين شخصيته الخاصة. ولعلنا بتحقيق هذه الأهداف نكون قد وضعنا مجتمعاتنا على طريق الحداثة الحقيقية التي تنطلق من تحديث الأفراد أولا، والتي أشار إليها كما رأينا "وو بن" في حديثه عن تجربة تحديث الإنسان في المجتمع الصيني، وأيضا في تعريف "أليكس إنجلز" لدور للإنسان الحديث في تحديث المجتمع، (وبالمناسبة يعد "أليكس إنجلز" من أشهر العلماء الذين اشتغلوا في مجال دراسة تحديث البشر وصفات الإنسان العصري).

لابد من الاستدراك للإشارة، إلى أن التعليم الرقمي متعدد وليس واحدا، فهنالك التعليم عن بعد الذي تحدثنا عنه سالفا والذي عشناه جميعا خلال أزمة الكوفيد، وهنالك التعليم الرقمي الحضوري الذي يجري داخل القسم لكن مع الاستعانة بالوسائط التكنولوجية سواء من طرف المعلم وحده، حيث يستعين بتلك الوسائط من اجل الشرح والتوضيح، أو بإشراك التلاميذ من خلال تزويدهم بأجهزة الكومبيوتر أو باللوائح الإلكترونية وهنا يتحول التعليم في الصف إلى تعليم رقمي مئة بالمئة وهو نموذج منتشر اليوم في أغلب البلاد الأوروبية وخاصة في البلدان الاسكندنافية.

أود قبل أن أختم هذه الورقة أن أتطرق إلى مسألتين هامتين طالما شغلتا الفكر العربي، الأولى تتعلق، بسؤال النهضة، لماذا نجحت النهضة الأوروبية وفشلت النهضة العربية، والسؤال الثاني يتعلق بمسالة العلاقة مع التراث أو ما يسمى بإشكالية الأصالة والمعاصرة.

سأحاول التطرق لهاتين المسألتين باختصار شديد، وذلك لقناعتي منذ فترة طويلة، أننا أعطينا لهذه المواضيع وما تفرع عنها من قضايا أخرى أكثر من الوقت والجهد اللازمين، دون أن يعني ذلك نكران أهميتها بطبيعة الحال.

بالنسبة للسؤال الأول، حول أسباب فشل النهضة العربية بالرغم من أن المؤسسين لها -على الأقل على المستوى النظري- كانوا إصلاحيين حقيقيين، مؤمنين بضرورة تحديث مجتمعاتهم وإخراجها من حالة التخلف المزمنة المتمكنة منها، عن طريق إصلاح الأعطاب وإزالة كل العوائق التي تقف أمام نهضتها وتقدمها، فنادوا بضرورة الإصلاح السياسي، والإصلاح الاجتماعي، والإصلاح الديني، وتحرير المرأة وغيرها من قضايا الإصلاح الكبرى.

لكن الملاحظ هو أن هذا الفكر الإصلاحي النهضوي على أهميته لم ينجح في تغيير المجتمعات العربية ولا في إصلاحها في أي مجال من المجالات، بل على العكس بدأ هذا

الفكر بلهجة عالية النبرة، وأخذ بالتراجع شيئا فشيئا إلى أن وصلنا اليوم إلى فكر إسلامي يتزعمه محافظون ومتزمتون ووجدنا أنفسنا ننتقل من فكر محمد عبده والطهطاوي إلى القرضاوي وعمرو خالد وغيرهم كثيرون، والسبب في رأيي هو أن مطالب النهضويين العرب لم تكن تعبر عن مطالب اجتماعية حقيقية نابعة من واقع الناس وحاجاتهم بقدر ما كانت مطالب نخبوية لفئة من المثقفين الحداثيين، سرعان ما تبخرت أمام واقع الاستبداد السياسي، وغياب القاعدة الشعبية. في حين نجحت النهضة الأوروبية واستمرت أفكار التنوير قوية، وتطورت وترسخت مبادئها عبر العقود والسنين، لأنها ببساطة، جاءت معبرة عن حاجة الناس لأنماط جديدة من التفكير تساير الواقع المتحول وتعيد تنظيم المجتمع تبعا لما لحقه من تغيير على كل المستويات، بسبب الثورات والتحولات التي عرفتها أوروبا.

بالنسبة للسؤال الثاني المرتبط بموضوع الأصالة والمعاصرة، اعتقد انه سؤال ينطوي على مغالطة، وكأننا كعرب ومسلمين مطالبين بالاختيار بين الاثنين، والحال أننا مزيج منهما معا، فإذا اتبعنا هذا المنطق وقلنا جدلا أننا مع المعاصرة أو مع الحداثة أين سنترك التراث وأين سنترك الأصالة...، المسألة لا تتعلق بقرار سياسي بقدر ما تتعلق بالإنسان حامل هذا التراث والمتطلع ربما أيضا للمعاصرة، والمسألة هي أنه يجب أن نخرج من فكر الثنائيات القائم على التقابل والتضاد، الأصالة أو المعاصرة، الاشتراكية أو الليبرالية، الحرية أو العبودية، الإيمان أو الكفر...

لماذا مثل هذه الخيارات لا تعني دولا مثل الصين أو اليابان مثلا أو حتى ماليزيا أو إندونيسيا المسلمتين؟

كتبت كتب كثيرة في العالم العربي حول موضوع الأصالة والمعاصرة، وكتبت كثير من الكتب والبحوث حول تلك الكتب وما تزال الحلقة في دورانها دون نتيجة تذكر، والحال أن المسألة لا تتعلق بالقطع مع التراث لأن ذلك عمليا غير ممكن، إن الحل من أجل تجاوز أوضاعنا الراهنة لا يكمن في القطع مع التراث وإنما في التراكم الثقافي والمعرفي الذي يفضي إلى التحول، فالتغيير أساسه التراكم وليس القطع مع الماضي.

انطلقت بداية هذه المحاضرة من ضرورة الرهان على التعليم وخاصة التعليم الرقمي، لما يوفره من تربية بيداغوجية سليمة بفضل قيامه على التعلم الذاتي ومنحه مساحة أكبر للطلاب من أجل التفكير والإبداع وأيضا لما يوفره من تكافؤ للفرص في التعليم، إضافة إلى إمكانية تدارك الوقت الضائع بالنسبة لمجتمعاتنا ومنحها بالتالي الفرصة لتتحول إلى مجتمعات للمعرفة، ولأننا لا نستطيع الانسلاخ عن عالم آخذ في الصغر بفضل العولمة وثورة المعلومات التي أصبحنا جزءًا منها، فإن التراكم المعرفي مستقبلا قد يكون هو وسيلتنا لإنجاز نهضة حقيقية.

الهوامش:

1- أنظر موقع اليونسيكو unesco.com
2- جيريمي رفكين، الثورة الصناعية الثالثة: كيف تغير الثورة الموازية الطاقة والاقتصاد والعالم، ترجمة سعيد الحسنية، ط 1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2012، ص143.
* بالرغم من جانبها الربحي حيث بلغت أرباح الفايسبوك على سبيل المثال 113,6 مليار دولار في عام 2022 أغلبها جاء من الإعلانات. (التحرير)
3- أنظر موقع تيلي ماروك «مركز التعليم الرقمي يضم أحدث الكفاءات والتقنيات البيداغوجية لتوفير إمكانية تتبع المسار الدراسي عن بعد»، المغرب «جامعة الغد».
4- شكيب بنموسى يستعين بشركات الاتصال لتعزيز رقمنة التعليم. أنظر موقع Madar21
5- رفيق العلمي مدير مختبر رقمنة التعليم بجامعة محمد السادس متعددة التخصصات التقنية. أنظر موقع تيلي ماروك.
6- طلال أبو غزالة، «تحديات التحول الرقمي في العالم العربي»، أنظر الموقع العربي2.
7- وو بن، الصينيون المعاصرون: التقدم نحو المستقبل انطلاقا من الماضي، ترجمة عبد العزيز حمدي، الجزء الأول، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص 276.
8- المرجع نفسه، ص 274.

مراجع إضافية

– مجموعة من المؤلفين نحن والثقافة الرقمية، إشراف زهور كرام، ط 1، الرباط، مطبعة الأمنية، 2018.
– نور الدين مشاط، المدرسة المغربية وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، ط 1، منشورات مجلة علوم التربية، العدد 28، 2011.
– عزيز جناني، الموارد البيداغوجية الرقمية ومنهجية تطويرها، ط 1، الرباط، دار أبي رقراق، 2014.
– زيز جناني، تكنولوجيا التعليم وبناء المعرفة: نظرية البرمجيات الثلاث، ط 1، الرباط، دار أبي رقراق، 2018.
– نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات»، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001.
– حسان الباهي، الذكاء الصناعي وتحديات مجتمع المعرفة: حنكة الآلة أمام حكمة العقل»، ط 2، الدار البيضاء، دار إفريقيا الشرق، 2020.

إشكالية الهوية الثقافية للدولة

نجاة تميم

أستاذة الأدب الفرنسي وباحثة

"ظلت الهوية (الثقافية) – الوطنية محسوسة لفترة طويلة ولكنها ليست قابلة للتحديد".

جاك لوغوف

عنوان مركب من عدة مفاهيم؛ هي في الحقيقة مفاهيم مترابطة ومثيرة للجدل. كُتب الكثير عنها من منطلقات فكرية مختلفة ومتعددة. في هذه المقالة، سنحاول معرفة ماهية الهوية ومقاربتها بالهوية الاجتماعية - الثقافية وهوية الأمة - الدولة. فكيف يا ترى تحدد الهوية الثقافية للأمة والدولة؟ وما العلاقة بينهما وهل يمكن حصر الهوية الثقافية للدولة في هوية ثقافية واحدة أم هي متعددة؟ وهل بالإمكان تحديد الهوية الثقافية - الوطنية للدولة؟ قبل التطرق إلى موضوع الهوية الثقافية، فهل نحن نعاني، حقا، من أزمة هوياتية؟ ومشغولون فردا وجماعة، بمن أنا؟ من نحن؟ ومن الآخر؟ يعترف دافيد هيوم بأن مسألة الهوية الفردية تشكل متاهة. فبحسبه، الـ"أنا" ليست حقيقة مستقلة، بل هي نتيجة لتنظيم العالم الاجتماعي[1]. إذا فالهوية تنشأ من الاعتراف المتبادل بالذات وبالآخر ومن خلال عميلة صراع يتم فيه تكوين التفاعلات الفردية والممارسات الاجتماعية الموضوعية والذاتية. وبهذا يجب أن نعتبر هويتنا كسيرورة، كما نفعل ذلك مع الزمن. لأن الهوية ليست جوهرا بقدر ما هي استمرارية للتغيرات.

الهويات الثقافية - الاجتماعية

إننا لا نستطيع ذكر مصطلح الثقافة دون ربطه بالهوية. فالفرنسي اليساري إدغار موران (1921-) يتفق مع جيل دولوز وبيير فليكس غتاري في كتابيهما، عن الهوية، الموسوم "الجذمور" (1976Rhizome)، على أن لكل فرد هوية واحدة ومتعددة. وبحسب دينس كوش، أن مفهومي "ثقافة" وهوية ثقافية" مترابطان إلى حد كبير. وذلك لأن الثقافة يمكنها أن تكون من دون وعي هوياتي، ويمكن أن تخضع إلى حد كبير لصيرورات لا واعية. أما الهوية فتحيل إلى معيار انتماء واع، مبني على تناقضات رمزية[2]. ويضيف أن مسألة الهوية الثقافية تحيل منطقيا أولا على مسألة أكثر اتساعا وهي مسألة الهوية الاجتماعية. ولأن هناك مجموعات اجتماعية متعددة، هناك أيضا أنواع من الهويات الاجتماعية، قد تكون ذات طابع اجتماعي كالاختلاف الطبقي، أو فزيائي-

بيولوجي كالاختلاف الجنسي (المظهر الجسدي أو التفضيل الجنسي) أو ذات طابع ثقافي (اللغة، والدين والتاريخ) أو الاختلاف الإثني[3].
إن الهوية الاجتماعية لا يمكن ببساطة اعتبارها، بديهيا، إيجابية. فالشعور بالانتماء مهم جدا، وتقدم الهوية الاجتماعية إجابة لسؤال "من أنا؟ ومن نحن؟". قد يكون لهذه الهوية الاجتماعية جانب مظلم؛ لأن الإجابة عن هذا السؤال تكون ضمن الحدود التي رسمتها الجماعة. وقد تُبنى هذه الهوية في كثير من الأحيان على حساب الآخر، وربما على إقصائه. تتطور هذه الهويات الاجتماعية في سياق العلاقات والهياكل الاجتماعية، وقد تتغذى على النمطية المعكوسة بين المجموعات أو على العلاقات المتوترة بين المهيمن والمهيمن عليه، وأيضا من خلال تداخل المجموعات أو الاحتكاك بالآخر. كما أن الهوية يمكن أن تبُنى "إيجابيا أو سلبيا"[4].
لكن يا ترى إلى مدى تتداخل الهويات الاجتماعية وما هي الجوانب المظلمة لظاهرة الهوية الاجتماعية؟ نلاحظ أن في بلد واحد هناك أنواع مختلفة ومتعددة من الحدود الاجتماعية التي تتداخل المجموعات داخلها. فالحدود بين الرجال والنساء تتقاطع مع تلك الموجودة بين الأبيض والأسود أو مع تلك الموجودة بين الطبقات الاجتماعية العليا والدنيا[5]. فيمكن للمرء أن يكون عضوا في عدة مجموعات اجتماعية في الوقت نفسه. وتكون بذلك له هويات اجتماعية متعددة. على سبيل المثال، سيدة سوداء، مسلمة، أمازيغية، مغربية، افريقية، نسوية، حقوقية، لاعبة تنس... إلى غير ذلك من الانتماءات والهويات الاجتماعية التي يمكنها ترتيب أولوياتها والإمكانات التي يتم تنشيطها أو لا يتم تنشيطها، وذلك حسب الزمان والمكان والقناعات. وهذا أيضا يعتمد على السياق الثقافي والوضع الاجتماعي.

إن تجربة الهوية الشخصية لا تعد دائما تجربة إيجابية، لأنها ترتبط بما هو ذاتي وأيضا بالوسط الاجتماعي والسياسي وبثقافة الطبقة المهيمنة. فأحيانا المجموعات المهيمن عليها تتبنى النظرة السلبية التي تكونها عنهم الطبقة المهيمنة. ونرى ذلك، على سبيل المثال، عند النساء التقليديات اللواتي ينظرن إلى أنفسهن على أنهن ضعيفات أو النظرة الدونية التي تشعر بها مجموعات من السود. وبذلك يتبنون، بدون وعي، نظرة الآخر السلبية عنهم. وهذا يحدث أيضا عندما نقارن أنفسنا بالغرب، فنقع في فخ المشاعر الجياشة والنزوع إلى الدفاع عن أنفسنا. لكن مع هذا، فامتلاك هويات مختلفة في الوقت نفسه يطرح مشاكل أقل مما قد يعتقده المرء.

الثقافة - الحضارة

إن أصل كلمة الثقافة من الكلمة اللاتينية -cul ture ، التي بدورها تنحدر من كلمة Colere وتعني عند الرومان الاشتغال بالأرض؛ الزراعة. وقد استعمل سيسيرو Cicero عام 45 قبل الميلاد هذا المصطلح culture، في "مناقشة توسولكوم"، وذلك ليشرح لطلابه بأن الفلسفة هي التي تتعامل مع العقل؛"Cultura Animi, filosofia est". وأصبح الآن هذا المصطلح مفهوما يملك أكثر من169 تأويلا وتعريفا، جمعه، عام 1952، الأنثروبولوجيان ألفريد كروبير وكليد كلوكهون وتوصلا إلى التعريف التالي: " الثقافة هي كل ما يتم تدريسه أو نقله في مجتمع معين والطريقة التي يتم بها تنفيذ هذا التعلم والنقل"[6]. ولأن أساس كلا من مفهومي الثقافة والهوية غير ثابت وفي تغيير مستمر، ولا يوجد شكل أو نمط واحد ونهائي لهما، فإنهما يلعبان دورا مهما في عملية التطور والمثاقفة في العالم الاجتماعي. وهذا يعني، أنهما كائنات حية، تولد وتنمو وتتطور، تبنى ويعاد

بناؤها باستمرار داخل التبادلات الاجتماعية[7].
وعندما يقصد بيير بورديو معالجة الثقافة في معناها الانثروبولوجي الثقافي، فإنه يلجأ إلى مفهوم آخر؛ الهابتوس. وهو انساق من الاستعدادات المستدامة والقابلة للنقل، وقابلة، مسبقا، للاشتغال بوصفها بُنى مبنية، أي باعتبارها مبادئ مولدة ومنظمة لممارسات وتمثلات يمكن لها، موضوعيا، أن تتأقلم مع هدفها، من دون افتراض رؤية واعية للغايات والتحكم الصريح في العمليات الضرورية من أجل بلوغها[8].

يقول كوش أن الثقافات لا توجد بمعزل عن العلاقات الاجتماعية. ولأن هذه العلاقات غير متساوية فإن تراتبا فعليا سينتج من هذا التراتب الاجتماعي[9]. ويصنفها بثقافات شعبية، وثقافات جماهيرية وثقافات الطبقة والثقافة العمالية والثقافة البرجوازية. وقبل كل الثقافات، هناك بحسب إرنست رينان، ثقافة إنسانية[10]. أما ماركس، الذي انتقد مثالية فلسفة هيغل، خلال إقامته بباريس عام 1843، والتي تعتبر ان الثقافة (مثل الأفكار) هي العامل الرئيس في حياة أي مجتمع، دون تطرقه للعوامل السياسية والاقتصادية، أما ماركس فقد ذكر أن ''المجتمع هو الذي ينتج الثقافة وليست الثقافة هي المسؤولة عن إنتاج المجتمع''[11]. في سياق القرن الثامن عشر، ظهر أيضا مصطلح ينافس مصطلح الثقافة وهو كلمة ''حضارة''؛ مشتقة من اللاتينية civis ، و تعني مواطن، أما كلمة civilis فتعني ما يخص المواطن. وكلمة حضارة تشير إلى المجتمع المديني وأصبحت تعني الموقف والسلوك المناسبين تجاه المواطن[12]. ويفضل يوهان هيزنخا -Hu izinga، الأنثروبولوجي الهولندي ومؤسس التاريخ الثقافي باللغة الهولندية وتاريخ العقلية، الحديث عن الثقافة باعتبارها حضارة تربط بين التفكير والتأمل والخبرة والعمل. وبالحضارة نعني المدنية الإنسانية والتي تشمل كل ما نشير إليه اليوم بالثقافة، ولا سيما السياسة والمواطنة والسعي المرتبط بالسلوك المنظم والمشاركة السياسية والأخلاق الحميدة التي يمكن أن يتوقعها المواطنون من بعضهم البعض. والغرض من الحضارة بهذا المعنى هو: ''التطور الأخلاقي والفكري للإنسان''[13]. إلى ستينيات القرن الماضي، كانت الكلمتان ''ثقافة'' و''حضارة'' تُستخدم، أحيانا، من دون تمييز[14]. لكن هناك أيضا تفسير آخر يقول أن الثقافة تخص التطور الفردي اما الحضارة فتشمل التطور الجماعي.

وأحد مفاهيم الثقافة هو اعتبارها مكونة من أربعة عناصر ''تنتقل من جيل إلى آخر بالتعلم وهي القيم، والقواعد - المعايير، والمؤسسات والمصنوعات اليدوية''[15]. ويمكن لمفهوم الثقافة أن يستوعب مفهوم الحضارة وذلك لأن الثقافة هي أيضا ''تصميم نمط الحياة''، بحسب الأنثروبولوجي الهولندي تنيكا-J. Ten nekes . كما أن التفكير الفلسفي في ثقافتنا ليس مجرد نشاط نظري، ولكنه يهدف إلى رسم سياسة عامة تجاه المستقبل. فالثقافة دينامية، يشارك الافراد، كل على طريقته، في دينامية تغييرها. ويعني هذا الانعكاس الفلسفي للثقافة أننا منخرطون في ''استراتيجية الثقافة'' أو كما يقول أستاذ فلسفة السياسة الهولندي هنك وولدين Henk Woldring أن ''الثقافة أسلوب حياة المجتمع''[16]. وبحسب تعبير الباحث الاقتصادي صالح ياسر، فإن ''الأيديولوجيا لا تكمن في الأفكار فحسب، بل تتسع لتشمل العادات والتقاليد، (نمط الحياة) لتشكيلة ما، تجسد ممارسات التشكيلة الاجتماعية''[17].

أما كوش فيستشهد، بقول جورج باستيد، بأن لا وجود لثقافات نقية، وثقافات خليط. فكل الثقافات وبفعل ظاهرة التفاعل الثقافي الكوني،

هي ثقافات مزيج بدرجات متباينة تصنعها الاستمراريات والتقاطعات [...] وما يؤكد عليه باستيد أن استمرارية ثقافية معينة غالبا ما تخضع للإيديولوجيا أكثر مما تخضع للواقع[18]. وهذا يذكرنا بما جاء في البيان الشيوعي "الذي أكد على أن الأفكار والآراء السائدة في عهد من العهود لم تكن سوى أفكار الطبقة السائدة"[19]؛ طبقة مهيمنة تستخدم السلطة السياسية لفرض أيديولوجية (دغمائية) معينة، من خلال أجهزة الدولة ومؤسساتها، وذلك بهدف إخضاع المجتمع لسيطرتها وإعادة انتاج ايديولوجياتها المسيطرة.

وبحسب إرنست غيلنر، يجب الحفاظ على الثقافة كثقافة. وليس باعتبارها ناقلة لمعتقد ولو بطريقة خفية. كما يمكن للمجتمع أن يعيد ثقافته الخاصة بشكل مباشر وليس من خلال الوسط الغامض للدين، على حد قول دوركايم[20].

الأمة - الدولة

ساهم عصر التنوير في بروز مفهوم جديد وذلك منذ تأسيس مبدأ حق الأمم في تقرير مصيرها. وبرزت القومية السلافية والقومية العربية والقومية الإفريقية[21]. ومن ثم ارتبطت كلمة "أمة" برغبة الشعوب في تنمية هويتها الخاصة وانجاز الاستقلال التام. وعندما أصبحت فكرة الجنسية شائعة جدا في القرنين التاسع عشر والعشرين، طالبت الشعوب بمكانتها من خلال حروب التحرير وذلك لتأسيس الدولة الحديثة المستقلة. وصف إرنست رينان الأمة على أنها مجموعة أفراد يجمعهم الماضي والمصالح المشتركة. ووصفها أيضا فولتير "بجماعة تجمعهم مصالح". ونعرف الاختلاف بين النظرية الفرنسية الكونية لتكوين الأمة، من خلال مفهوم الثقافة، culture الذي يعتمد قواعد كونية، تولي أهمية كبيرة لقيمة وكرامة الإنسان وتؤمن بمساواة البشر وحقوقه، وبين النظرية الألمانية المحلية Kultur التي تقوم على المفهوم الجرماني المستند على مفاهيم الإثنية واللغة والذي يحيل على تحديد التباينات القومية والعمل على تثبيتها. تعمقت دراسة التاريخ لجذور الأمة. وحدث هذا منذ عام 1830 في دولة بلجيكا الفتية، وفي اليونان خلال حرب التحرير في 1829-1821 ضد الإمبراطورية العثمانية، وظهور الدولة الإيطالية الموحدة، ودول حررت نفسها من الحكم النمساوي وعملية توحيد الأراضي الألمانية ودول أخرى غيرها. وبدأ البحث التاريخي المكثف في كل مكان من أجل تحديد ملامح هوية الأمة من خلال الكشف عن جذورها في الماضي والحصول على جواب لسؤال من نحن؟ وتميز القرن التاسع عشر بولادة فكرة الأمة - الدولة و بعدها بظهور الفكرة القومية، التي ركزت على الأسس التاريخية لتوجه الشعوب نحو الاستقلال[22]. وفي البداية، تأسست القومية لوضع حدود سياسية تحمل هوية ثقافية جماعية. أما حاليا فاليمين المتطرف يقابل الأمة - الدولة بمفهوم الدولة - الأمة، المتجانسة ثقافيا والمبنية على الإقصاء[23]. ويصبح بذلك بدل الأمة "باني الدولة"، على حد قول فالح عبد الجبار، تصير الدولة "حامل الأمة"[24].لقد أسس القوميون مثل بول دي لاغارد[25] وأدولف هتلر تعريفاتهم للأمة من خلال علم الأحياء وجادلوا بأن الدول الموجودة في كيانات في العالم كانت موجودة منذ زمن سحيق. كان لاغارد، الذي عاش فترة توحيد ألمانيا، في نهاية القرن التاسع عشر، يعتبر أن فترة حكم بسمارك فترة انحطاط ثقافي بسبب التحديث والليبرالية. كما أنه كان مؤمنا بمؤامرة اليهود الذين أتوا بأفكار التنوير حول الديمقراطية والاشتراكية، بحسب قوله. أما آخرون فقد رأوا أن أساس الأمة يكمن في ثقافة

تقليدية لم تتغير أبدًا. وهذه النظريات وغيرها كانت مبررًا للنزعة القومية العدوانية في أوروبا في أوائل القرن العشرين، والتي هُزم ممثلوها بسقوط النازية والفاشية في عام 1945. ونتيجة التحديث والليبرالية، اقترح غيلنر، وهو منظر مهم للقومية، أنه ينبغي النظر إلى الإسلاموية الحديثة (الإسلام السياسي) بنفس منظور تأثير التحديث السريع والأزمة الهوياتية الذي تأسست من خلاله، كرد فعل، القومية. فالإسلامويون مثلهم مثل القوميين يتظاهرون بالالتزام بالقواعد الديمقراطية ولكن لديهم ميول غير "ليبرالية" (بمعنى غير ديموقراطية ومعادية للحرية الفردية) محتملة بسبب رغبتهم في الوحدة والهيمنة على المجتمع[26].

أما مفهوم الدولة، بحسب تعريف ماكس فيبر الشهير، فهي ذلك الجسم داخل المجتمع الذي يحتكر القوة المشروعة، ولا يجوز استعمال العنف إلا من خلال السلطة السياسية المركزية؛ فهي هيئة ذي قوة خاصة. وهذه الهيئة أو الهيئات هي الدولة. لكن، بحسب غيلنر، هناك مؤسسات لا تحتكر الاستخدام القانوني للقوة في المنطقة التي تتواجد فيها. فمثلا الدولة العراقية، التي كانت تحت الانتداب البريطاني، كانت تتسامح مع النهب الذي يحدث بين القبائل، وكان اللصوص يقدمون تقاريرا بأمانة إلى أقرب مركز شرطة قبل وبعد عملية النهب، مع سجل بيروقراطي أنيق للضحايا والغنائم[27]. مع ذلك فمبدأ فيبر الأساسي يبدو منطقيا. الدولة هي تطور مذهل للغاية للتقسيم الاجتماعي للعمل؛ ومن وظائفها التركيز على تطبيق القانون.

ووفقا للمفهوم الماركسي، فإن الدولة هي نتاج الحياة الاجتماعية، تظهر فقط في مرحلة لاحقة من التطور الاجتماعي. وغالبا ما تظهر من خلال الصراع مع مجموعات أخرى. ولا تحافظ على بقائها إلا بعد أن تؤدي التنمية الاقتصادية إلى المزيد من تقسيم العمل و اكتساب الملكية الخاصة دورا هاما في الحياة الاجتماعية[28].

كان ينظر، منذ هيغل، إلى الدولة القومية أو بما يسميه الآن اليمين المتطرف الدولة - الأمة، باعتبارها الحل الأسمى لتحقيق السيادة والحرية والتنمية، حتى في النظم الشمولية. أما "ماركس فقد بنى نظريته في التحرر الإنساني على فرضية تلاشي الدولة الحتمي أو اضمحلالها أو إحلال إدارة الأشياء محل إدارة البشر (السياسة)، أي مجتمع يقود شؤونه وينظمها بنفسه"[29].ويقترح فالح عبد الجبار أنه بالإمكان أن نستخدم مصطلح "تشكيل الدولة" للدلالة على ضم الجماعات الإثنية والدينية والثقافية المختلفة في دولة موحدة عبر مؤسسات تتيح المشاركة السياسية والاقتصادية والثقافية للشرائح والطبقات على قاعدة تمثيل حر مفتوح[30].

الهوية الوطنية – الثقافية للدولة

الهوية الثقافية أو "الهوية الوطنية" كما يسميها فرانسيس فوكوياما في كتابه الموسوم "الهوية"، هي في الواقع بناء تاريخي. وقد يُرمز لها بأدوات رمزية كالعلم والنشيد الوطني وتتجسد أيضا في الإجراءات الإدارية والحدود المادية وكل أنواع الفنون. ويقول رينان في مقالته الموسومة "ما هي الأمة؟" التي ألقاها في السوربون عام 1882، إذا حددنا هويتنا الوطنية اعتمادا على ما هي عليه أو على ما يجب أن تكون عليه، فهي بالتأكيد بناء وليس وهم[31]. وفي هذا المجال، تقول نتالي هاينك أيضا، أن الهوية ليست حقيقة موضوعية، لكنها ليست مجرد وهم[32]. هل يمكننا، فعلا، التعبير عن هوية ثقافية لأمة أو دولة. فالفاعلون الاجتماعيون والأمة والدولة هي مفاهيم تتعلق بظواهر مختلفة. يمكن للدولة أن تشمل أشخاصا ينتمون إلى شعوب مختلفة.

يمكن أيضا لشعب أن يعيش في دول متعددة. والهوية الثقافية هي التي تشكل شخصيتهم الثقافية وتساهم في التعرف عليهم. والشعب هو جماعة اجتماعية ثقافية يدرك أعضاؤها أنهم ينتمون إليها. وقد يوجد هذا الشعب في سياق سياسي، ولكن يمكن أن يتشتت في دول مختلفة. وإذا كان لهذا الشعب وعي سياسي في ما يخص هويته ويريد تكوين وحدته السياسية الخاصة، فإننا يمكن ان نتحدث عن وعي تشكيل أمة. والأمة، وفقا للغة الكلاسيكية، هي جماعة من الشعوب نمت إلى حد كبير وكونت وحدة في عملية تاريخية، بأخلاقها وعاداتها ولغتها الخاصة ووعيها السياسي. والأمة هي حالة معينة من العلاقات بين الثقافي والسياسي. وهذا ما حدث بعد الثورة الفرنسية؛ إذ ظهرت صورة موجزة للأمة. إذ بنيت بفرض اللغة الفرنسية كلغة رسيمة للبلد. لكن الأمة ليست مجرد كيان ما قبل سياسي تم إنشاؤه تاريخيا، بل هو مجتمع ديمقراطي من المواطنين بهوية سياسية. وعلى حد قول هابرماس، لا توجد هوية الأمة في القواسم المشتركة الإثنية والثقافية، ولكن في تسلق جبال الديمقراطية والمشاركة والتواصل. أما رينان، الذي قال قبل قرن، أن وجود الأمة هو ''استفتاء يومي'' وجوهر الأمم أن يتقاسموا أشياء كثيرة وينسون أشياء أخرى.

وفي النقاشات السياسية، فإن الهوية غالبا هي الهوية الوطنية، وقد تشير إلى روح الدولة القومية وحضارتها. لكن هاينك تطرح أن الهوية الوطنية ليست سوى واحدة من عدة هويات يمكن من خلالها تصور هويتنا (تماما كما ترتبط كلمة ''قيمة'' تلقائيا بالأخلاق، في حين أنها ليست سوى جانب واحد منها). وتضيف أن من المستحيل أن نعتبر قضية الهوية الوطنية يسارا أو يمينا؛ فالعامل المحدد هو السياق الذي يغذي القضية، وفوق كل شيء المجموعة المرجعية التي ستكون على المحك وتكون هويتها في خطر[33]. لكننا نلاحظ أيضا أن الدولة الحديثة تنزع إلى أحادية الهوية الثقافية. فنجدها تصدر بطاقات الهوية الوطنية تفرض هوية على حاملها؛ ففي تركيا مثلا، فإن البهائيين واليزيديين وبعض المجموعات المسيحية كالبروتستانت غير معترف بهم رسميا. وتصنف الدولة التركية الأفراد المنتمين لهذه المجموعات على أنهم مسلمون وتثبتها بذلك على بطاقات الهوية الوطنية[34].

تشير الهوية الثقافية، أيضا، إلى تحديد أو الشعور بالانتماء إلى مجموعة معينة. لكن الهوية، بحسب قول كوش هي ليس معطى وإنما هي مُبنى. وفي هذه الحالة، يمكن لوسائل بناء هذه الهوية الثقافية أن تساهم في السيطرة على أفراد المجتمع. وهذا ما انتقده أدورنو وهوركهايمر (مدرسة فرانكفورت)، بعد عودتهما من المهجر (أمريكا) إلى ألمانيا. فمن وجهة نظرهما، فإن وسائل الإعلام الجماهيرية التي تمولها الأنظمة الدكتاتورية وحتى الأنظمة التي تبدو ديمقراطية (أمريكا) هي وسائل هيمنة اجتماعية، تجعل الافراد ينساقون وراءها[35]. وبما أن الهوية الثقافية - الوطنية معقدة ومتعددة الأبعاد؛ يشرح رينان العناصر الهوياتية الممكنة لتكوين الأمة. فيبدأ بالإثنية الموحدة. ويعطي أمثلة عن شعوب فرنسا وألمانيا وإيطاليا والجزر البريطانية التي كانت خليطا من دماء متعددة، لكنها، مع هذا، استطاعت أن تبني أمما حديثة. ويضيف أن نجعل السياسة ترتكز على التحليل ''العرقي'' فإننا سنبنيها على وهم؛ لسبب بسيط هو في الحقيقة، لا يوجد عرق خالص، كما لا توجد تراتبية عرقية بحسب المفكر الألماني يوهان غوتفريد فون هردر (1744-1803)، مؤسس القومية الإثنية الأوروبية؛ وذلك لأن كل البشر من عرق واحد وربما من أصول

إثنية مختلفة(36). أما العنصر الثاني المحتمل لتكوين الهوية الثقافية للدولة، فهو اللغة. لكن في الولايات المتحدة وبريطانيا يتحدثون نفس اللغة لكنهم لا يكونون أمة. وكذلك حال اللغة الاسبانية في أمريكا اللاتينية واسبانيا. أما الدين، كعنصر ثالث، فلا يستطيع أن يوفر أساسا كافيا لتأسيس الجنسية الحديثة. ففي دول عديدة، هناك تعدد الديانات والمذاهب. أما المصالح فهي أيضا مهمة جدا لتكوين علاقات قوية بين الناس. لكن هل تكفي لخلق أمة وهوية ثقافية. وهناك أيضا العامل الجغرافي وبما نسميه الحدود الطبيعية التي هي بالطبع تلعب دورا مهما في تقسيم الأمم وكعنصر تاريخي أساسي. وبحسب رينان، ليست الأرض أكثر أهمية من الإثنية في صنع أمة، فالإنسان هو كل شيء في تكوين هذا الشيء المقدس الذي يسمى شعبا. الأمة مبدأ روحي، يشكله عنصران، أحدهما في الماضي والثاني في الحاضر؛ الأول يحيل إلى حيازة مشتركة لإرث غني من الذكريات والآخر هو الموافقة الحالية والرغبة في العيش معا والإرادة لمواصلة تحقيق الميراث التي تلقيناه معا(37).

ففي كندا مثلا، يتحدثون عن "أمة واحدة، لغتان وثقافات متعددة". لكن السؤال؛ هل القوميون الفرنكفوريون يقبلون بذلك؟ يبدو، بالأحرى، أن كندا دولة تتكون من أمم، ولغتين وثقافات متعددة. يقول العالم السياسي بيير مانيت، أن معظم الديمقراطيات كان لها إحساس متطور بالهوية الوطنية التي حددت سيادتها. لكن هذه الدول لم تظهر للوجود ديموقراطيا، كفرنسا وألمانيا وبريطانيا وهولندا. لقد أسست بعد نضال سياسي طويل وعنيف من أجل الأرض والثقافة في ظل أنظمة غير ديمقراطية. لكن عندما فتحوا السياسة على الخيار الديمقراطي لم يجادلوا حول السكان الأصليين أو الحاليين. وتشكلت فيما بعد دول وفدراليات التي يسميها جان – جاك شُفَليي الدولة – الأمة.

إن الهوية الوطنية يمكن أن تبنى على أسس سياسية ليبرالية ديمقراطية (بمفهوم الحرية، حقوق سياسية وعدالة اجتماعية) وعلى الخبرات المشتركة التي من خلالها يمكن للمجتمعات أن تزدهر. ولأننا نعلم أن الشعور بالهوية الوطنية أمر حاسم للحفاظ على نظام سياسي حديث، يجب أن تتوفر، بحسب فوكوياما، ست عناصر؛ أولا، الأمن المادي. فالشعور بالهوية الوطنية السلبية الضعيفة، سيدفع إلى تفكك الدولة وإلى حروب أهلية. ثانيا، يؤكد على أهمية قيادة حكيمة ونزيهة وانخفاض الفساد الإداري والمالي؛ عادة يُحوِّل السياسيون البيروقراطيون الموارد العامة إلى مجموعتهم الإثنية أو منطقتهم أو عشيرتهم أو أسرتهم أو حزبهم السياسي. فهم يفضلون مصلحتهم الخاصة على المصلحة العامة. وثالثا، أهمية التنمية الاقتصادية في بلورة الهوية الوطنية. فمثال على ذلك، الهويات الوطنية القوية في اليابان وكوريا الجنوبية التي أنجبت نخبا، انصب اهتمامها على التنمية الاقتصادية، في تلك البلدان، أكثر من تركيزها على الثراء الذاتي. والعنصر الرابع يكمن في تعزيز واسع للثقة. وتعمل هذه الأخيرة على تسهيل التبادل الاقتصادي والمشاركة السياسية. وهذه الثقة ترتكز على رأس المال الاجتماعي، الذي أكد عليه رينان أيضا في تكوين الأمة. أما العنصر الخامس، فيتجلى في الحفاظ على شبكة أمان اجتماعية قوية تساهم في العدالة الاجتماعية وتقلص الفوارق الطبقية. وأخيرا يمكن للهوية الوطنية-الثقافية أن تجعل الديمقراطية الليبرالية ممكنة التطبيق. وهذه الديمقراطية الليبرالية تكمن في إبرام عقد بين المواطن والسلطة وبين المواطنين أنفسهم(38). نظريا، لا غبار على هذه الشروط لبناء هوية ثقافية وطنية للدولة، لكن ما نلاحظه ان هذه الليبرالية التي مهدت الطريق

للتطور الديمقراطي، لم تأخذ في الحسبان الحقوق الأخرى غير السياسية؛ الاجتماعية والاقتصادية[39]. وجعلت الفرد يتحمل تبعات فشله في تأمين حياته. كما أنها لم تؤمن عدالة اجتماعية التي تشدد النظرية الماركسية على أن المواطنة أي المساواة السياسية، لا تكتمل إلا بالمساواة الاجتماعية، أي المساواة في الحقوق الاجتماعية والاقتصادية. وبما أن للعملة وجهان؛ فإن مصطلح الهوية الوطنية أخذ، أيضا، سمة سلبية وذلك لأنه اقترن بإحساس تضامني إثني (وطائفي)، الذي عرف بالإثنية القومية. وهذا ما نلاحظه أيضا في الدولة الطائفية. ففي هذا الشكل من الهوية يتم إقصاء من لا ينتمي إلى هذه المجموعة. والمشكلة لا تكمن في الهوية الوطنية في حد ذاتها ولكن الطريقة العنيفة، القائمة على التعصب وعدم تقبل الآخر من خلال تهميشه أو إقصائه.

لا شك أن الهوية الثقافية للدولة تساهم في الشعور بالانتماء وتخلق صماما آمنا سليما داخل العالم الاجتماعي. ومفهوم الهوية له بُعد أيديولوجي أكثر منه علمي. ونرى أن نيكولا ساركوزي استخدم هذه الثيمة، في عام 2007، الهوية الوطنية – الثقافية (المبنية على اللغة الفرنسية منذ الثورة الفرنسية)، وجعلها موضوعا بارزا في حملته الانتخابية. كما أنشأ لاحقا وزارة الهوية الوطنية. وفي عام 1981، قام نقاد سينمائيون فرنسيون بتشكيل "لجنة الهوية الوطنية" وذلك للتصدي للتأثير الثقافي الأمريكي؛ فيما يخص صناعة السينما وتأثير اللغة الإنجليزية المتزايد. وسبقهم أيضا الحزب الاشتراكي الفرنسي عندما أدرج ثيمة الهوية الوطنية (الثقافية) في سبعينيات القرن الماضي. لكن ماذا عن ثقافة الدولة؟ يقول هايزنخا، أننا منذ الحرب العالمية الأولى، نرى عملية جارية في العالم وهي "غرق الثقافة" في السياسة، بحسب تعبيره، والتي يتم من خلالها اعتبار الثقافة، مسبقا، وعن وعي أسمى من الثقافة السياسية. وهكذا فإننا بالكاد يمكننا أن نرى الثقافة كعظمة مثالية منفصلة عن ارتباطها بدولة معينة. كما أن مفهوم الثقافة كفكرة، بحد ذاتها، تتغير بشكل لإرادي بالنسبة لنا، متجلية في مفهوم الدولة للثقافة. فعندما توسع الدولة نطاق نشاطها أكثر فأكثر، وتلتف بذلك وبشكل متزايد حول الثقافة، من خلال امتلاك الصلاحيات واستغلال القوى الثقافية لمصالحها، فإن الرجحان السياسي على الثقافة يمكن أن يشكل خسارة وخطرا على الإنسانية. آنذاك، بحسب بيير بورديو، تصبح الهوية الثقافية للدولة هي "ثقافة الطبقة المهيمنة". والسؤال المطروح، هل يمكن للسياسي أن يحل محل الحكمة والتصرف النبيل؛ المبدأ التوجيهي الوحيد للثقافة الذي يرتقي بالمجتمع إلى الأفضل[40].

وختاما، اثمن وصف بول فاليري للإنسان (الأوروبي) كون هويته الثقافية لا تحدد بإثنية أو لغة أو تقاليد وإنما تحدد بالرغبات وسعة الإرادة"، وأضم صوتي لخلاصة كوش، بأن لا وجود لهوية ثقافية (للدولة) في ذاتها، قابلة للتعريف بصفة نهائية[41]، وأنها معركة أبدية، مليئة بالصراع، ولن تحصل على إجماع، بحسب لوغوف[42].

وذلك لأن الهوية الثقافية هي بناء اجتماعي مستمر، ورأسمال اجتماعي، تقوم عليه فكرة وطنية، بحسب رينان، ومقتنعة كذلك بإمكانية الدولة أن تكون حيادية في معاملتها للمواطنين على قدم المساواة فيما يتعلق بهويتهم والطريقة التي يعبرون بها عنها.

الهوامش

1- .ranck Salaün, Hume et l'identité personnelle, PUF, Paris, 2003, p.83

2- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة،2007، ص148.

3- Joost Tinnekes, Identiteit: een sociaal –wetenschappelijke beschouwing, In; "De mens die je bent", Kok Agora, kampen, 1995, pp.37–47

4- .Ibid

5- .Ibid

6- .Jos van Remudt, Inleiding Identiteit en burgerschap, Amsterdam, Boom, 2018, p.19

7- كوش ، ص 154.

8- .Pierre Bourdieu, Le sens pratique, Paris, Minuit, 1980, p.88

9- كوش، ص 120.

10-Ernst Renan, Discours et conférences de l›Académie française et de l›Académie des inscriptions .et Belles–lettres, Paris, Calmann Lévy–Éditeur, 1887, p. 301

11-ديفيد إنغليز وجون هيوسن، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة لما نصير، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013، ص 39.

12-Woldring, H. E.S, Cultuur en nationalisme in de spiegel van de vreemdeling, In "De mens die je .bent over identiteit", Kampen, Kok Agora, 1995, pp.49–77

12-Johann Huizinga, Geschonden wereld. Een beschouwing over de kansen op herstel van onze .beschaving. Haarlem, H.D. Tjeenk Willink, 1945, pp.7–26, pp.74–76

14-كوش، ص 43.

15-Techno–science.net

16-.Woldring, H.E.S, pp. 50–51

17-صالح ياسر، الدولة، السلطة، الطبقات الاجتماعية، بغداد، بيت الكتاب السومري، 2019، ص 47

18-كوش، ص 115.

19-ماركس، انجلز، بيان الحزب الشيوعي، موسكو، دار التقدم، 1974، ص 65، نقلا عن صالح ياسر، ص47.

20-.Ernst Gellner, Naties en nationalisme, Amsterdam, Wereldbibliotheek, 1994, p.181

21-Mario Albertini, L'Idée de la nation, in Institut international de philosophie politique, Annales de .philosophie politique, nr. 8, Paris ,Université de Paris, 1969, p.5

22-Harry van den Eerenbeemt, Geschiedenis en identiteitsbesef, lokaal, regionaal, nationaal en Euro– .pees niveau, In «Cultuur en Identiteit" Tilburg, Tilburg University Press, 1995, p. 39

23-.Thierry Baudet, De Aanval op de Natiestaat, Prometheus, Amsterdam, 2016

24-فالح عبد الجبار، دولة الخلافة . التقدم إلى الماضي («داعش» والمجتمع المحلي في العراق)، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017، ص 39.

25-Francis Fukuyama, Identiteit, Waardigheid, ressentiment en Identiteitspolitiek, Amsterdam/Antwer– .pen, Atlas Contact, 2018, p.89

26-.Ibid., p.96

27-.Ibid., p.12

28-Valkhoff, MR. J, De marxistiese opvattingen over recht en staat, Nijmegen, Socialistische uitgeverij, .1976, p. 3

29-ياسر، ص 13.

30-عبد الجبار، ص37.

31-.Ernest Renan, op. cit., pp.277–310

32-.Nathalie Heinich, Wat onze identiteit niet is, Amsterdam, Prometheus, 2020, p.14

33-.Ibid,. p.31

34-عبد الله أحمد النعيم، الإسلام وعلمانية الدولة، القاهرة، دار ميريت، 2010، ص274.

35-إنغليز وهيوسن، ص67.

36-Colette Guillaumine, L'idéologie raciste: Genèse et langage actuel, La Haye, Mouton, .1972, p.2

37-.Ernest Renan, op. cit., pp. 277–310

38-Fukuyama, op., cit., pp. 161–178

39-عبد الإله بلقزيز، في الماركسية، مراجعات أولية، «النهضة»، العدد 27، شتاء – ربيع، 2019، ص62.

40-.Joost Huizinga, op.cit., p.104

41-كوش، ص 170.

42-صحيفة هولندية NRC Handelblad https://cutt.us/oJMvL

التاريخ والسرد ومأزق الحقيقة

محمد دهموش

أستاذ اللغة العربية، باحث في تحليل الخطاب،
حاصل على الماجستير من جامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء.

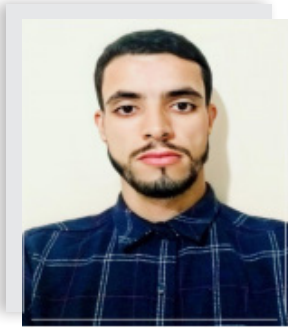

يعتبر الإنسان كائنا يعيش في الزمن ومحيطا به وتحده جغرافيا مكانية، لهذا عني بدراسة حاضره وماضيه من أجل كشف تطور الحياة حسب التسلسل الزمني المستمر، وغايته الأولى أخذ العبرة والإفادة من التجارب البشرية السابقة لخدمة الحاضر والمستقبل، فصار يطلق على كل عودة للبحث في الماضي تأريخا والباحث في قضايا الماضي مؤرخا. يُعرف التاريخ بكونه ذلك المجال البحثي الذي يسعى إلى إعادة أحداث الماضي والبحث عن عللها و نتائجها، فهو بهذا المعنى "يساعد على فهم الحاضر" [1]. وبالتالي فالتاريخ ينطلق من الحاضر من أجل اكتشاف الماضي. وبتعبير آخر " إن علم التاريخ هو ذلك الفرع من المعرفة الإنسانية الذي يستهدف جمع المعلومات عن الماضي وتحقيقها وتسجيلها وتفسيرها" [2]. ومن جهة أخرى، يحيل التاريخ على الأحداث التي وقعت في الماضي، فهو بهذا المعنى، أحداث متعلقة بالماضي، وفي نفس الوقت هو بحث وتفسير لتلك الأحداث وذلك تماشيا مع توجهات المؤرخين، حيث إن الماركسيين، على سبيل المثال، يعتبرون دراسة التاريخ كشفا عن صراع الطبقات وتشكل البنيات المكونة للمجتمعات وفق ضوابط يحددها الإنتاج الاقتصادي بدرجة أولى .

لقد ظل هاجس الحقيقة لصيقا بالتاريخ، خاصة، حين يتم العودة الى الماضي التاريخي فنجد أنه في حاجة إلى إعادة بناء وتجديد لما يخالط تلك المعرفة من أكاذيب وتزوير تخدم أغراضا بعينها، حيث " لاتصلنا الوقائع التاريخية نقية؛ لأنها لا تكون كذلك أبدا ولا يمكن أن تكون؛ إذ إنها تنعكس دائما بأشعة الشمس على عقل مدونها" [3]. وبالتالي، فإن المؤرخ يتأثر تأثيرا لا يمكن تجاهله بالمجتمع الذي ينتمي إليه ،وكذلك بالأحداث السياسية والثقافية التي توجه أفكاره الخاصة، لهذا الغرض، يلزم تطوير آليات الاشتغال للبحث عن الحقائق التاريخية وتفسيرها تفسيرا منطقيا وموضوعيا.

من هذا المنطلق يمكن صياغة إشكالية تثير البحث في التاريخ وفي علاقته بالسرد والحقيقة معتمدين في ذلك مفاهيم "بول

ريكور'' في معالجته لقضية التاريخ في علاقته بالقارئ والذاكرة والهوية والتمثل.
إذا كان التاريخ سردا يقوم على تحبيك أحداث واقعية حدثت فعلا بواسطة اللغة، فكيف يمكن للمؤرخ أن لا يخيب أفق انتظار القارئ الذي يتوقع منه الحقيقة بعيدا عما هو تخييلي ؟؛ لأن الميثاق القائم بين القارئ والمؤرخ يقوم على كشف الحقائق الماضية والوقائع التاريخية. على غرار هذا السؤال تتمخض أسئلة أخرى لها علاقة بمصادر الكتابة التاريخية كالذاكرة والشهادة والخبر ... ومدى صدقها ونزاهتها؟

1. التاريخ والسرد والحقيقة

1.1. في مفهوم الحقيقة التاريخية

يصعب منذ الوهلة الأولى تحديد تعريف جامع وموحد لمفهوم الحقيقة، وذلك راجع لتعدد الحقول المعرفية التي توظفه، فالحقيقة في مجال الفلسفة، تختلف عن نظيرتها في العلوم الرياضية والعلوم التجريبية . أما الحقيقة التاريخية فيعرفها معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية بكونها ''تتمثل في إعادة بناء الماضي بما يتضمنه من أحداث جزئية وعينية. وتقتضي هذه الحقيقة مثل الحقيقة التجريبية نوعا من الموضوعية'' (4). فإذا كان الوصول إلى الحقيقة التاريخية هدف المؤرخ، فإن المدارس التاريخية الحديثة اختلفت نظرتها إلى منهجية كتابة التاريخ ، فالمدرسة الوضعية الألمانية اعتبرت التاريخ علماً كغيره من العلوم ،خاصة العلوم الطبيعية الذي ينطلق من التجربة ويتوخى الدقة العلمية من خلال دراسة الوثيقة باعتبارها وصفا إحصائيا يتطلب التفسير والفهم على عكس ما كانت عليه الكتابة التاريخية سابقا، حيث'' كان قدماء المؤرخين كهيرودتس قليلي الاكثرات لصحة الحوادث، وكان شأنهم مقتصرا على استنساخ ما كانوا يسمعونه من أقاصيص'' (5).
على ضوء هذا، سعت المدرسة المنهجية ومدرسة الحوليات إلى وجوب تخليص التاريخ عموما من السرد والطبيعة القصصية التي تدفعه أن يكون أقرب إلى التخييل أكثر منه إلى الواقع . مما يعني أنه فاقد لعلميته. بينما نجد آخرين يرون ''أن صياغة الحبكة تشكل مع ذلك مكونا أصليا من عملية كتابة التاريخ'' (6)، فمبدأ التحبيك هو الذي يمنح للنص التاريخي تماسكه الشكلي والدلالي. فما دام السرد موجودا أينما وجد الانسان حسب تعبير رولان بارت، فليس من الغريب أن يرتبط بالتاريخ الذي هو جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان، فهذا الأخير كائن تاريخي. وبالتالي، فإن المؤرخ لا يستغني عن السرد في إعادة تشكيل الماضي الذي وقع فعلا. ''إنه حين لا يكون ثمة سرد لا يكون ثمة تاريخ'' (7). فهما يشتركان في بناء الحدث (التحبيك) ومرتبطان بالزمن بالمزج بين المحتوى (المادة التاريخية) وبين الشكل (السرد) حسب هايدن وايت، هنا نعيد استحضار السؤال السابق بصيغة أدق: هل يمكن للمؤرخ أن يتحلى بالموضوعية أثناء كتابته للتاريخ بواسطة السرد دون الانزلاق إلى ما هو تخييلي؟
ليس من اليسير الإجابة عن هذا السؤال فـ ''بول ريكور'' يعتبر المشكلة متعلقة بالذاكرة وليست مرتبطة بالتاريخ، فالذاكرة من هذا المنظور تحتفظ بالماضي الذي يصاغ تاريخا وهنا يحضر التمثل باعتباره جزءا محركا للذاكرة فهو التصور الذي تتبناه الذاكرة عن شيء معين. '' فإذا كانت مهمة الذاكرة حفظ

الماضي، فإن مهمة التاريخ هي إعادة بناء ما حفظته الذاكرة، ولما كانت الذاكرة عبارة عن صور، فإن التاريخ هو الصيغة اللفظية المعبرة عنها" [8].

سواء كانت هذه الذاكرة فردية أم جماعية. إذ لا يمكن القول بكتابة التاريخ دون الاستناد إلى الذاكرة " فالذاكرة تقودنا مباشرة إلى التاريخ لأنها الحاملة الأولى للتاريخ ولولاها ما كان هناك من علم لكتابة التاريخ" [9] ، وبهذا المعنى، يمكن القول أن الذاكرة هي "حصيلة حوار بين الماضي والحاضر " [10]. وهنا يطرح إشكال آخر يتعلق بموضوعية الذاكرة، أي: كيف نتيقن من أن ما تكونه الذاكرة قد حصل فعلا إن لم يكن عرضة للنسيان؟

2.1. الذاكرة مصدرا للحقيقة

لقي مفهوم الذاكرة انتشارا واسعا خلال القرن العشرين في مجال التاريخ والسوسيولوجيا والأنثربولوجيا نتيجة الأحداث السياسية التي شهدها العالم، مثل بداية الاستعمار والتوسع الإمبريالي وما خلفه ذلك من آثار على بلدان العالم الثالث، والحربين العالميتين. كل تلك الوقائع جعلت مفهوم الذاكرة حاضرا لإعادة بناء الأحداث التاريخية ومساءلتها.

يحيل مفهوم الذاكرة على "القدرة على التمثل الانتقائي الحاضر، الفردي أو الجماعي لأحداث وحالات ماضية، ويتم هذا التمثل عبر مسار معقد من إدراك الأحداث وتسجيلها وترميزها وتخزينها وإعادة إنتاجها في شكل صور ذهنية في زمن ماض إلى استحضارها وذكرها، أو التذكير بها حسب معطيات الحاضر الذي يتم فيه ذلك" [11]. ويتبين من خلال هذا التعريف ان الذاكرة انتقائية أثناء عملية التذكر، كما أنها تنطلق من زمن الحاضر إلى الماضي لتعيد تشييد معنى الواقعة التاريخية التي تم انتقاؤها ومن تم تأويله. يميز أرسطو في سياق الحديث عن الأفعال التي تنتجها الذاكرة بين نوعين من التذكر، فالأول مرتبط باستحضار الذهن للذكرى وهذا الاستحضار مرتبط بالزمن ، والثاني مرتبط بالبحث الجاد للذاكرة، فهو بهذا "قام بوضع خط فاصل بين حضور الذكرى البحث وبين فعل التذكر" [12].

إن المؤرخ الذي يستنطق الذاكرة لتتكلم وتتذكر ما وقع في الماضي فإنه بهذا الإجراء ينقذ الذاكرة الفردية والمشتركة من النسيان والتلاشي بفعل سيرورة الزمن بمعناه الأرسطي، فيلجأ المؤرخ إلى استعمال اللغة مما يعني وجود الوعي، وبالتالي الحفاظ على الهوية التي توازي الذاكرة ، فإذا كانت الحدث مختزنا في ذاكرة الفرد باعتباره ذاتا واعية مستقلة ، فإن الهوية التي يمثلها ستكون فردية بدرجة أولى ، على العكس من الذاكرة التي تعبر عن الجماعة من خلال حفظها حدثا تاريخيا يخص جماعة معينة ، هنا تصير الهوية جمعية. لكن في المقابل لا يمكن تصور ذاكرة فردية بمعزل عن ذاكرة أوسع وأشمل تخص الجماعة، ويمكن توضيح ذلك بمثال: إن حدث نفي ملك المغرب محمد الخامس من طرف المستعمر الأجنبي يمثل حدثا تاريخيا محفوظا في ذاكرة فردية تخص الملك، إلى جانب هذا، فالملك يشكل جزءا من ذاكرة المغاربة الجماعية ورمزا لهويتهم، مما يعني أن الذاكرة الفردية تذوب في الذاكرة الجماعية، بل وتستمد منها وجودها واستمراريتها لغاية الحفاظ على الهوية التي تتبناها الجماعة.

إذا كانت كتابة التاريخ تحتاج إلى الذاكرة

كمصدر ومنطلق أساسي للكتابة، فإن هذه الذاكرة لا تكون دائما سليمة لتحري الصدق فهي يشوبها النسيان والإقصاء أحيانا، من هنا حدد "بول ريكور" أنواعا من الذاكرة التي تتعرض للاعتداء فتكون هذه الذاكرة مدبرة أو مرغمة أو محظورة، فهذا الاعتداء المسلط على الذاكرة تتباين مسبباته بين الزمن (الظروف الصحية والاجتماعية والأخلاقية) والسلطة والأيديولوجيات السائدة التي تبرز تاريخا معينا دون آخر في ظل ثنائية المركز والهامش وبين الرسمي وغير الرسمي.

يطرح ريكور مفهوما آخر يتعلق بالذاكرة وهو الشهادة، أي شهادة الشاهد الذي عاش الحدث (أنا كنت هناك حين وقع ما وقع)، فهذا المفهوم قريب من مفهوم التاريخ الأصلي عند هيجل الذي هو "تاريخ حي و مباشر، يصف فيه المؤرخ الواقع الذي عاشه وساهم فيه. ومثال هذا الصنف من التاريخ شهادات أبطال المعارك والقادة" [13].

إن الذاكرة باعتبارها شاهدا يقدم شهادة حدث مضى من أجل كتابته من طرف المؤرخ ، فإنني أرى أنه من المستبعد أن يظل المؤرخ وفيا للحقيقة التي حفظتها الذاكرة مع أنه من المستبعد أيضا أن تكون الذاكرة وفية للحقيقة؛ لأنها هي الأخرى في علاقة بالهوية السردية التي يحفظها المؤرخ بواسطة الكتابة السردية والتي تخص تحديدا الفئة التي تفرض نفسها على بقية الهويات الأخرى التي وصفت بالمهمشين، وبالتالي لا تخلو الحقيقة التاريخية من وجهة نظر تذويتية تدفع بالذاكرة الى اختلاق الإضافات تضاف إليها إضافة المؤرخ التي تنسجم مع غرضه الأيديولوجي فتضيع أجزاء من هذه الحقيقة التاريخية ؛ لأنه "مهما كان المؤرخ موضوعيا في نقله الحوادث وحصيفا في تقويمه الأدلة ومدققا في تحديده تواريخ ما حدث ، فإن روايته لا ترقى إلى أن تكون تاريخا بمعنى الكلمة" [14]

علاوة عن كون الخطاب التاريخي جزء من العلوم الإنسانية والاجتماعية فهو يتغير بتغير القراء وتغير السياقات، وهذا يجعله مساويا للخطاب الأدبي بالرغم من صرامة مناهج مقاربته. وبالتالي من اللازم النظر إلى التاريخ نظرة الشك، فإذا اشتغل مؤرخان بدراسة حدث تاريخي موحد ينتمي إلى الماضي، فإن النتائج ستكون متفاوتة لما سيشوب تلك الخلاصات من انفعالات كل منهما، لكن ريكور يؤكد على أنه لا يجب على المؤرخ الذي يعتمد السرد أن يشعر بالحرج جراء تشابه شكل الكتابة عنده مع ما ينتجه المبدع القصصي ، فالحقيقة لا يمكن الوصول إليها ، والحدث التاريخي الواقع في لحظة تاريخية معينة من الصعب استرجاعه كما وقع ، فيكفي المؤرخ أن يقدم صورة تكون قريبة نسبيا من حيثيات الحدث التاريخي .

تركيب

على ضوء ما تقدم، يمكن أن نخلص إلى أن كتابة التاريخ بواسطة لغة سردية يطرح إشكالية تتعلق بعلاقة المؤرخ بالماضي، فهو لا يختلف عن المبدع ، لكن العقد الذي يربط كل منهما بقرائه مختلف ، فالأول ، أي المؤرخ لا ينتظر القارئ منه غير الحقيقة وكل ما يقدمه من معرفة تاريخية فهي تقابل بالصدق؛ نظرا لفعل الميثاق الموجود بينهما والمؤسس على إظهار الحقائق . في حين يقوم ميثاق المبدع مع القارئ على أن ما ينتجه المبدع يدخل ضمن خانة التخييل

التاريخي ومادته تكون بعيدة عن الحقيقة بفعل تدخل خيال المبدع وطغيانه على الأحداث التاريخية الموظفة، لكن رغم هذا الميثاق المعلن بين المبدع والقارئ المعتمد الصيغة السردية والذي لا يهدف وراءه إلى اكتشاف الحقائق ، فإنه ، غالبا ما نجد تمردا وتجاوزا من لدن القارئ حين يقدم المبدع على مخالفة الحقائق التاريخية أو تشويهها ، وبالتالي فما دام الميثاق مبنيا على الخيال والإبداع، فلماذا يحاسب المبدع جراء خياله ؟. في الوقت الذي لا تخلو فيه المعرفة التاريخية من ذاتية المؤرخ ومن توجهاته السياسية، إلا أنه يظل في نظر القارئ يقدم حقيقة. وهنا لابد من استحضار الذاكرة بكل مستوياتها وأنواعها للقول بأن الحقيقة التاريخية صعبة المنال؛ نظرا لما يحيط بالذاكرة من ظروف عامة لا تسعفها في قول ما حدث فعلا.

من اللازم النظر إلى التاريخ الذي يوظف تقنيات السرد نظرة الشك والريبة ؛ لأنه يوظف لغة الإبداع، مما يعني الحاجة إلى التأويل ، فالخطاب التاريخي كغيره من الخطابات مفتوح على تعدد التأويلات؛ لكونه يوظف الرمز الذي هو من مرتكزات المادة التاريخية .ومن هنا ،فإنه ينبغي للمؤرخ الانفتاح على تخصصات علمية ، كالعلوم التجريبية والأنثربولوجيا والحفريات، وذلك لغرض الاستفادة من مناهج الاشتغال المتنوعة لتفادي هفوات النسيان والأمراض التي تتعرض لها الذاكرة بوصفها مصدرا من المصادر التاريخية المعتمدة في البحث التاريخي بواسطة الشهادة ونقل الخبر عن طريق الشفاهة على شكل سرود وحكايات.

الهوامش

1- كوثراني وجيه، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل، دراسات في البحث والبحث التاريخي ، ط1، بيروت ، دار الطليعة للنشر والطباعة ،2000، ص13

2- رأفت الشيخ ، معنى التاريخ ،من موقع www ,islamstory,com ،تاريخ الزيارة : 2020-05-07 :30: 21H

3- كار ادوارد، ،ما هو التاريخ، ترجمة ريهام عبد المعبود، ط1، بيروت ،عالم الأدب للترجمة والنشر، 2018،ص 22

4- سعد جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تونس، دار الجنوب ،2004، ص 167.

5- لوبون غوستاف، فلسفة التاريخ، ترجمة عادل زعيتر، مصر ، دار المعارف، 1954، ص53.

6- ريكور بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة جورج زيناتي، ط1، بيروت ، دار الكتاب الجديد المتحدة ،2009 ، ص 360.

7- هايدن وايت ،»قيمة السردية في تمثيل الواقع»، ترجمة ثائر ديب ،مجلة أسطور، العدد 11، يناير 2020، ص 181.

8- بريمي عبد الله، السيميائيات الثقافية، مفاهيمها وآليات اشتغالها، ط1، عمان، دار كنوز المعرفة، 2018، ص 138 .

9- بول، ص 16

10-عبد الله، ص140

11-الطاهري عبد العزيز ، الذاكرة والتاريخ: المغرب خلال الفترة الاستعمارية 1912-1956، ط1، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر ،2016، ص32

12-ريكور بول، ص 53

13-السيد ولد اباه، التاريخ والحقيقة عند ميشال فوكو، ط1، لبنان، دار المنتخب العربي، 1994، ص23.

14-هايدن وايت، ص 18.

نصوص قديمة

عن التاريخ والتأويل وحقيقة الرابع عشر من تموز *

كامل شياع

في مقدمة كتابه الأخير "عصر التطرفات" يلاحظ أريك هوبسباوم أنه "في جميع الأحوال ليس من المحتمل لمن عاش هذا القرن الاستثنائي أن يمتنع عن الحكم. لكن الفهم يظل هو الأصعب". ما الذي يجعل فهم التاريخ صعبا؟ الجواب المباشر هو لأن الفهم لا ينفصل عن الإقامة في التاريخ وصنعه والذي هو في نفس الوقت صنع الإنسان لنفسه. بعبارة أخرى أن صعوبة الفهم تبدأ من لا إمكانية النظر في التاريخ من زاوية متجردة كما هو الحال مع الطبيعة مثلا. وبما أن التاريخ هو حصيلة تداخل الذاتي بالموضوعي، المرغوب بالمفروض والخيالي بالواقعي، فقد تعددت زوايا مقاربته: إنه كليّة تبحث عن كليتها. تعدد المقاربات تحتمها عوامل إيديولوجية أو نظرية، تعكس الأولى مصالح اجتماعية أو نظرية سياسية أو خلفيات ثقافية تفسر بالاستناد إليها أحداث الماضي ويعاد

تشكيلها من حيث الأهمية والأسبقيات. وعادة ما يكون اختلاف الأيديولوجيات الحديثة على الماضي امتدادا لاختلافها على الحاضر. إلا أن العكس يمكن أن يكون هو الصحيح بالنسبة للفرق والطوائف الدينية، فالاختلاف بينها يبدأ من التنافس على امتلاك حقيقة الماضي. وفي الحالتين لا يخفى الفهم المتداول، والذي ينتمي الى مجال الوعي اليومي، تحيّزه سيّما وانه يعبّر عن نفسه في شروط صراعية وسجالية مباشرة.

أما الثانية، أي الاختلافات النظرية، فتفرض نفسها بالدرجة الأولى على المختصّين بدراسة التاريخ وتتأتي من مناهج البحث كما من المفاهيم. وإذا عزف المؤرخون إجمالا عن تقديم الحكم على الماضي وفهمه، فلا يكفيهم ذلك الاختلاف، لأن أبجدية الفهم عندهم ذات ترتيب غير موحد. فمنهم من يقرأ التاريخ كسجل لإرادة الأفراد العظام، أو مآثر لعامل واحد أو غاية نهائية محددة، ومنهم من يرجعه إلى تدخّل العناية الإلهية، أو يراه كعملية خطيّة أو دورانية. وبينهم آخرون يفرغونه من المعنى والقوانين. ولكل واحدة من هذه النظريات أو القراءات نقيضها الذي يعد إمساك الصورة بالمقلوب. ومن هنا لا نستطيع أن نعثر على نسخة واحدة للتاريخ أو على تقدير إجماعي لكل صغيرة وكبيرة فيه. فالتاريخ محمول دائما على صيغة الجمع. انه تواريخ أو روايات تنتج من داخل سياق بحث المؤرخين عن الموضوعية والحقيقة. ورغم اختلاف مقارباتهم واجتهاداتهم، فأن اعتمادهم الموضوعية أو التجرد النسبي كمعيار يهديهم إلى قراءة أحداث الماضي وفق منطقها الخاص، والى نبذ الأهواء والأحكام الجاهزة، يسمح بوضعهم في خانة واحدة هي خانة الداعين إلى إمكانية التوصل إلى فهم عقلي للتأريخ.

لكن هل هناك فعلا إمكانية من هذا النوع؟ قد يكون ليو تولستوي أفضل من يمثل الموقف الرافض لهذه الإمكانية. ففي الخاتمتين اللتين ألحقهما بملحمته "الحرب والسلم" تبنى تولستوي موقفا لا إداريا من التاريخ، موحيا بذلك بلزوم تحرير سرد أحداثه من قيود التعليمات الفلسفية، وتركها تجابهنا بتجلياتها المثيرة وامتداداتها العشوائية وانبثاقاتها المفاجئة. ولهذا فالإصرار على معرفة التاريخ ستدمر تفرّد حقيقية. فأي معنى للفعل الإنساني إذا كانت معرفته ممكنة حتى قبل الآتيان به؟ كم سيكون مرعبا كشف خبايا النفس الإنسانية؟ وما قيمة الحضور في التاريخ إذا ما صودرت منه تلك القوى الغامضة التي تحرك البشر بهذا الاتجاه أو ذاك؟ هكذا يكون أمامنا موقفان؛ واحد للمؤرخين "الموضوعيين" وهو يتقصى النتائج عبر الأسباب والظواهر عبر البواطن الدفينة والدوافع المباشرة عبر الضرورات الخفيّة. والآخر ويمثله تولستوي، يقف متأملا البعد السامي للتاريخ كمرادف لما هو لا نهائي وغير عادي وغير قابل لتمثيلات الوعي. بعبارة فلسفية فان التاريخ بالنسبة لتولستوي ينتمي إلى عالم الشيء بذاته، ذلك العالم الذي نقاربه بالمصادرات وحدها ولا ندرك منه إلا تجلياته الخارجية بهيئة وقائع منفردة ومعطيات جزئية في تغيره الدائم يقاد التاريخ بغايات غامضة تحيّر الفهم وتخذل الاستنتاجات الثابتة والأحكام القاطعة. فما هو خيّر ومفيد من ظواهره يمكن أن ينقلب بسرعة، حسب تولستوي، إلى سيئ وضار. وكذا يمكن أن تنقلب الأدوار المجيدة لأبطاله إلى كوارث.

عدم الاطمئنان إلى وجود خارطة ثابتة للدلالات التاريخية واستبعاد اجتماعها في "عمارة" متماسكة لم يدفع تولستوي وحده لتعليق الحكم. فهذا ماوتسي تونغ الذي لم يفهم من السياسة إلا كتدخّل واع للتأثير على حركة التاريخ وضبط إيقاعه، ينحو منحى سابقه اللا ادري. فعندما سُئل مرة عن رأيه بالثورة الفرنسية، وكانت قاربت ذكراها المئوية الثانية، أجاب بأن الوقت لم يزل مبكرا للحكم عليها، ويحتمل رأيه أكثر من تفسير واحد. فلعله أراد التهرب من تقديم اعتراف واضح بأهمية تلك الثورة التي دشنت عصر البرجوازية. أي انه ربما أراد الاستهانة بالتراث السياسي والحقوقي للبرجوازية وذلك من منظور مستقبلي يراهن على تراث، لم يحن أفضله بعد، للاشتراكية والشيوعية من ناحية أخرى. قد تدفعنا إجابته المقتضبة للتفكير في احتمال أكثر تعقيدا، عندئذ يكون لماو سبب آخر لإرجاء الحكم على الثورة الفرنسية، غير انتظار الحدث الأعظم الذي سينفي كل ما سبقه ليبدأ التاريخ الحقيقي للإنسانية. ولعلّ سبب ماو يعود إلى تسليم غير مصرح به بزوغان التاريخ في تحولاته وفي تشكيلاته. فإذا أوحى ظاهر الأحداث أن تعاقبها الزمني يتضمن، بل يحتم، نسخ اللاحق للسابق والمقموع للسائد، فان عمقها يوحي بخلاف ذلك. على مستوى العمق يظهر التاريخ محكوما بصيرورة دائمة لا تنتظرها لحظة اكتمال أو محطة أخيرة وتتهاوى عندها الحدود والامتيازات التراتبية للمستقبل على الحاضر وللحاضر على الماضي. فليس التعاقب الزمني هو الذي يحدد حقيقة التاريخ، وإنما التناسب المتغير للعلاقات التي تربط أحداثه. ونكون في هذه الحالة إزاء نظرة تاريخية جذرية، أي نسبية، ترفض مقولات الاستمرار والتواصل الخّطي على مستويي حدوث الحدث والتفكير فيه. أو نكون إزاء نظرة تأويلية تماهي الأحداث الكبيرة مع النصوص التأسيسية التراثية، فتدعي أن وراء المتحقق فعليا آفاق كاملة غير متحققة، مثلما أن وراء النصوص المغلقة مدلولات مفتوحة وغير مطروقة بعد. وربما قاربت عبارة ماو الآنفة الذكر هذا القصد، فالثورة الفرنسية بالنسبة له ما زالت مشروعا أوليا يتطلب ترجمة جديدة بلغة السياسة والحقوق والثقافة والاقتصاد. من سيفعل هذا وكيف؟

في كتابه "مقدمة للحداثة" يقول هنري لفيفران: التاريخ يواصل مسيرته كقوة اغترابية رغم الوعي المتزايد بالاغتراب، فتجلياته الآنية تباغت حنكة الوعي وتصميم الإرادة، وتبقى عائمة في تأجيل دائم وعود النهاية التي تبشر بها الأيديولوجيات. ليس للتاريخ مثيل في إبداع التنويعات على سخرية القدر، وليس هناك من يدانيه مكرا في التلاعب بالمتناقضات. يكفي هنا أن نتذكر النتائج العكسية التي انتهت إليها أكثر أشكال التدخل فيه ادعاءً بالجذرية والشمولية، والعواقب السلبية التي تفتقت عنها أكثر الأفعال توكؤا على الوعي واليقين الفلسفيين. أي مقارنة بليغة وراء استعارة النظم الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية النهاية الحتمية من نظيرتها الرأسمالية لتترك لها ما ادعته أصلا لنفسها.... أي المستقبل؟

الاعتراف بموضوعية التاريخ، التي لا ترادف بأي حال القول بقدريته ، يعادل الاعتراف بمكره الخفي ومفارقاته غير المتوقعة، أو الاعتراف بحضور الإنسان فيه طورا وغيابه عنه طوراً آخر. الاعتراف بهذه الموضوعية يعني أيضا إمكانية تصّور زمن التاريخ وزمن الإنسان (بالمعنى الوجودي أو النفسي)

منخلعين وغير متطابقين.
ومشكلة الوعي الأيديولوجي ومأساته تكمن في تناسي الزمن الخاص للتاريخ. ذلك الزمن المتأرجح بين خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء، بين خلق ممكنات مرغوبة وبين وأدها في أي لحظة، مشكلة الوعي الأيديولوجي أن يؤنسن التاريخ مسقطا عليه نهاية سعيدة (بطريقة تقارن بالرؤية الأخروية للأديان والطوائف)، ويستعجل محو الفواصل بين ما هو قائم وما لم يحن أوان قيامه بعد. لكن كل هذا الاختزال ضروري للأيديولوجيات لكي تمضي في تعميم منطق الجزء على الكل ومنطق اللحظة على الزمن لكي تجعل المستقبل حتمياً والطريق إليه قويماً بيناً. بالمقابل يرد التاريخ على تمثيلات الأيديولوجيات بان يجعل إشراقها ظلاما وإرادويتها عمقا... فيوقفها بحركة واحدة في نقطة الصفر، ويريها أنها ما لم تكن مأخوذة بالهذيان فعلى الأقل بفقدان التمييز بين ما يبقى وما ينبغي أن يزول. يمكن الآن أن نجمع ما تقدم في أربع نقاط:
أولاً؛ أن صعوبة فهم التاريخ لا تكمن فقط في التوفّر على مادة دراسته من وثائق شهادات وآثار ...وإنما أيضا في تباين زوايا النظر إليه فلسفياً. وقد رأينا كيف يذهب البعض إلى أن فهم التاريخ يقف عند ظواهره دون جوهره، وانه ـ الفهم ـ لا يبرر تقديم أحكام نهائية عنه، أو انه يفترض إمكانية النفاذ إلى قوانينه مع عدم القدرة على مواكبتها دون توهمات ذاتية.
ثانيا؛ مع عدم وجود نقطة أخيرة تمنح امتيازاً لتصور الماضي وفق غاية ثابتة أو اجتماعية، تصبح معروفة التاريخ مجالاً لصراع التأويلات. فمن نقاط عدة متباينة في تزامنها أو في تعاقبها تنحدر احتمالات عدة للتأويل تمثل البعد الذاتي من حركة التاريخ. فكل تأويل يشكل مصدر إضافة لقيمة الحدث المؤول...أي لا يكتفي بالتسجيل دون إعادة التشكيل.
ثالثا؛ لا يتضمن الادعاء بأن مقاربة التاريخ لا تتم من خلال المعرفة العلمية الدقيقة أن التأويل بحدِ ذاته يخلو من مسلمات أو مسبقات متحيزة. كذلك فأنه لا يخلع قيمة متساوية على جميع التأويلات المطروحة عن حدث أو سيرة أو عهد. رغم الانتقائية التي تحكم التعامل مع الوقائع والمعطيات فإن للتأويل مستويات متعددة تحددها معايير الانطباق على الموضوع، التماسك الداخلي والفائدة العلمية. ويمكن للتأويل، عند استيفائه شرط البحث أن يتجاوز إغراءات السرد ليطرح تعميمات نظرية ومعارف صلبة.
رابعا؛ لا ينفصل التأكيد على وجود تمايز في درجة موضوعية التأويلات عن التأكيد على موضوعية التاريخ والمتمثلة في استقلاله عن إرادة ووعي الفاعلين فيه واشتراطه لأدوارهم ونتائج أفعالهم. في هذه الحالة يخطئ من يماهي موضوعية التاريخ مع صورته كقوة خارجية غريبة تجهض مسعى البشر وتحاصر وجودهم. الاستنتاج الأدق المترتب على القول بالموضوعية يفضي إلى رفض معارضة التاريخ الفعلي بتمثيلاته التخيلية والمؤمثلة، والى اعتبار تحقق أو عدم تحقق التمثيلات غير مرتبط بعامل الإدارة وإنما بالكيفية التي يبسط بها التاريخ نفسه. خلاف الطبيعة التي تقودها قوى عمياء لا تعي ذاتها في الزمن، فإن التاريخ تحركه قوى واعية ويتجاذبه توتر بين الأفعال ونظام الأشياء.
لا تقترح الاستطرادات أعلاه أكثر من مقدمة عامة قد تكون مفيدة للتفكير في حدث محدد

تعددت أشكال الإخبار عنه واختلفت الأحكام عليه. الحدث المقصود هو ذلك الذي وقع في الرابع عشر من تموز 1958 وحّول النظام السياسي العراقي إلى جمهوري بعد أن كان ملكيا.

سنشير إلى أربعة أنواع من الكتابة عن هذا الحدث. أولاً؛ المذكرات المنشورة لبعض الضباط الأحرار. ثانيا؛ التقييمات والمعالجات الصادرة عن المنظور القومي البعثي للسلطة. ثالثا؛ الكتابة التاريخية الأكاديمية كما تجلت في سفر حنا بطاطو "الطبقات الاجتماعية القديمة...." . رابعا؛ وجهات نظر متفرقة لكتاب وصحفيين في المنفى.

كل واحد من هذه الأنواع أراد إبراز بعد أو أكثر من أبعاد الحدث. فالمذكرات أعادت نسج الحدث من خلال التفاصيل الجزئية والأدوار الفردية. والنوع الثاني أرخ له من زاوية أيديولوجية مسلمتها الأساسية أن عبد الكريم قاسم خطف الثورة وانحرف بها عن مبادئها القومية، وان "ثورة" البعث في 1968 هي وريثة تلك المبادئ وأداة إعادة حركة التاريخ إلى مضمارها الصحيح. النوع الثالث يدرس الحدث في سياقه التاريخي وبقدر مشهود له في سعة الاطلاع والتجرّد. أما النوع الأخير فيدعو إلى مراجعة الحدث بصورة جذرية ومن زاوية ما ترتبت عليه من نتائج وخيمة وطويلة الأمد كتدخل العسكر في السياسة وبروز الظاهرة السلطوية، ويعتبره بمعنى ما المدخل للكارثة التي أصابت العراق حاليا.

من بين هذه المقاربات المختلفة في سرد الحدث وتقييمه سنتوقف عند الاثنتين الأخيرتين لأنهما يخدمان السؤال الذي وضع من اجله هذا المقال، وهو، هل ما حدث في الرابع عشر من تموز كان ثورة أم انقلابا؟ كما نلاحظ فأن النوعين الأول والثاني من الكتابة يسلمان منذ البداية بأن الذي حدث كان ثورة وليس انقلابا. والملفت أن المقاربة القومية البعثية لم يهمها من الحدث إلا دور الإرادة السياسية في تحقيقه، ولم تعتبره ثورة إلا من باب الاستئثار به وإعادة امتلاكه. فـ " ثورة" السابع عشر من تموز 68 هي ثورة تموز 58 بعينها ولكن بعد أن أزيح عنها رجالها غير المرغوب بهم وسياساتها غير القومية. على النقيض من هذا تقرأ دراسة حنا بطاطو حدث تموز 58 من خلال مفرداته دون الوقوع في انحيازات القوى التي تصارعت عليه، وتحلل انعكاساته على المستويات الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية دون إصدار أحكام قيمة. يبدأ بطاطو نقاشه بالرد على فكرة ويلدمارجي غالمان السفير الأمريكي السابق إلى العراق والتي وصفت الحدث التموزي بأنه مجرد انقلاب نفّذته حفنة صغيرة من الضباط، وبأن الحشود البشرية التي تدفقت إلى الشوارع "لم تمثل العراقيين وإنما (كانت) مجموعة من السفاحين وقطاع الطرق جنّدها دعاة محرضون"(ص 806 من الطبعة الانكليزية).

أما بالنسبة إلى حنا بطاطو فإن دور الجماهير كان أكبر وأهم مما صوره السفير الأمريكي، لكنه في نفس الوقت لم ينكر أنه في فوضى التغيير الجذري ثمة دائما دور لقطّاع الطرق ولأعمال العنف والقسوة. لقد قطع نزول الجماهير إلى الشارع إمكانية الثورة المضادة، واسند موقف المجموعة الصغيرة من الضباط التي قادت ونفذت التحرك الذي شكل ذروة "نضال جيل كامل من الطبقات الوسطى ودون الوسطى والعاملة" وكان تتويجاً لنزعة عصيانية تجسدت في انقلاب بكر صدقي

(36) وحركة رشيد عالي الكيلاني (41) ووثبة كانون وانتفاضتي عامي (52) و(56). ضمن هذا السياق التاريخي يمكن النظر إلى حدث تموز 58 كنقلة جذرية غيرت نظاما بنظام. أما إذا تركنا مقدماته التاريخية ونظرنا إليه من زاوية نتائجه اللاحقة فسنبلغ مع بطاطو نفس الاستنتاج. يقول "ما كان ممكنا لظاهرة سياسية سطحية أن تفجر العواطف بتلك القوة، وان تثير المخاوف والآمال بتلك الجدّية كالتي تخللت الفترة المحصورة بين عامي 58 و59. إن الرابع عشر من تموز قد جلب حقا أكثر من مجرد تغيير حكومة. فلم يقوّض النظام الملكي ولم يضعف بصورة جذرية الموقف الغربي في المشرق العربي وحسب، وإنما أيضا أثر بعمق في حظوظ جميع الطبقات الاجتماعية" (ص 806-807). ما يشير له بطاطو هنا يرتقي في الحقيقة إلى قطيعة تاريخية جلبت إلغاء المكانة الاجتماعية للطبقات القديمة من شيوخ إقطاعيين وملاكي أراض حضر، وتغييراً نوعيا في مواقع وأدوار الشرائح الوسطى ودون الوسطى والعمال وفي علاقات الملكية في الريف.

ويعود حنا بطاطو ليتعرض إلى النتائج العميقة لذلك التدخل العنفي، وذلك في مجال تفسيره للأخطاء والتذبذبات التي وقعت فيها الثورة. فيذكر من بين الأسباب، عدم وجود تجانس لدى الطبقة الوسطى وانقسام ممثليها في الجيش الذي كان هو السلطة، وضغط الطبقات الدنيا التي كان يحركها الحزب الشيوعي. لكن الحاسم بين الأسباب، حسب رأي بطاطو، تمثل في أن كسر الثورة لبنية السلطة القديمة والتشكيلات الطبقية التقليدية قد أدى إلى "خلخلة التوازنات الحساسة بين مختلف الجماعات العرقية والطائفية في العراق، وبشكل خاص تلك التي كانت قائمة بين العرب والأكراد والشيعة والسنة (807). في ضوء هذا يمكننا الاستنتاج بأن مأساة ثورة تموز 58 نتجت عن اقتران عدم سيطرتها على ديناميكية الصراعات بين القوى والأفكار في الداخل، مع عوامل ضغط خارجي فرضته السياسات الاستعمارية الغربية والتيار القومي الناصري.

لا شك في أن تحليل بطاطو، كما لخصناه عكس قناعة سائدة بأن ما حصل كان ثورة، لكننا نجد اليوم من لا يكترث به ويعارض "حكمه" القناعة السائدة التي يراها متجذرة في شعارات بالية وبلاغات خطابية جوفاء. ففي العصر الليبرالي الجديد، عصر سقوط أيديولوجيات التحرر، عادت عبارة السفير الأمريكي السابق إلى العراق لتفرض نفسها في سوق التداول. الانقلاب هو الكلمة المناسبة لوصف فعل ضباط طائشين من قبل مثقفين فتنتهم، كما يبدو، الليبرالية مثلما فتنتهم قبلها الماركسية، وأغمضوا عيونهم عن عسرها وأوجاعها. وردت مفردة الانقلاب بصورة عرضية في مقالات صحفية خصصت لأوضاع العراق الراهنة، لكنها لم تدعم من يعتمدها بحجج وأدلة صورت حدث تموز 58 كجرثومة ماض استفحلت لتفتك بالحاضر. وواضح أن صفة الانقلاب تتضمن حكما سلبيا على تغيّر ضرب الحالة "الطبيعية" للأشياء ليشيع فيها اللاستقرار واللاشرعية واللامعنى. حسب القائلين به فهو وحده يفسر أصل وفصل كل صغيرة وكبيرة وقعت في العراق خلال العقود الأربعة الأخيرة، لكنه بحد ذاته لا يحتمل تفسيراً من خارجه بعوامل اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية. انه السطح والعمق معاً. فهذا الانقلاب فتح الباب على مصراعيه

للتنافس على احتكار البعد السياسي، لأكثر أشكاله عنفية ولا حضارية، ومعه ظهرت نزعة إرادوية تقدّس السلطة لذاتها وتتخيل المجتمع طيناً من صلصال بيد صانع محترف هو الحاكم. وإذا كانت هذه هي حقيقة حدث الرابع عشر من تموز 58 فسوف لا يصعب مد خطوط مستقيمة بينها وبين ما تلاها وتشخيص أوجه شبه وقرابة بين دكتاتورية عبد الكريم قاسم الرحيمة ودكتاتورية صدام الهمجية، ورغم أن الأمر لم يصل بعد إلى إجراء مماهاة صريحة بين الظاهرتين، إلا أن اختلافهما يبدو في الدرجة لا في النوع. وعلاقتهما التي يتخللها عامل الزمن الذي يشكل مع عامل المكان الشرطين المسبقين لتحديد الظواهر وبالتالي اختلافها، هي كعلاقة الواقع بالإمكانية أو البذرة بالثمرة. ولهذا فنزع صفة الثورة عن الأولى - لأن الثورة وفق منطق المراجعين ينبغي أن تقترن بنقلة إيجابية خصوصاً في مجال الحق السياسي - يشمل الثانية المدعية وراثتها. أو بطريقة معكوسة فان الشطب على الثمار المرّة للحاضر، وهي لسوء الحظ كثيرة ولا تترك في النفس إلا مداداً قليلاً من الأمل، ييسر الاستغناء عن بذرة الشر التي زرعها العبدان كريم وسلام! ولعمري فإن هذه المعادلة الشرطية الحسنة النيّة تضع المجتمع العراقي ككل بين قويسات بانتظار استبداله بآخر ينطق بقيم الديمقراطية والمدنية من المهد. بلغة التحليل النفسي، فأن الذي حصل في الرابع عشر من تموز 58 هو أشبه بجريمة قتل الأب (الذي هو النظام الملكي في هذه الحالة). وستلاحق لعنة غياب الأب/ الرمز فاعلي الجريمة من أفراد وجماعات إلى يوم غير معلوم. وليس من المستبعد تماما أن قصد كتابات المراجعة أو التحريفية (جرياً على عبارة بائدة لا تعني اليوم سوى التفكير بطريقة مختلفة) هو للتذكير بأن حقيقة من هذا الحجم لا تظهر إلا متأخرة وبعد طول نسيان أو إنكار. والحال فأنه مع استحالة العودة إلى أيام الملكية لا يبقى إلا أن نقرّع أنفسنا على ما فعلناه في التاريخ أو على ما فعله التاريخ بنا. الخطأ التاريخي المحكوم بظروفه القاهرة، يتحول هنا إلى محرم (تابو) يعلو على التاريخ.

من المحتمل أيضاً أن ورود مفردة الانقلاب في الكتابات المذكورة بررّه اعتراف مسبق بأن الذي حصل فعلاً في 58 كان ثورة أنطفأ وهجها من اللحظة الأولى؛ إنها ثورة بفعل ما قوضته أي النظام القديم وليس بفعل ما تمخضت عنه، إنها ثورة ولو بالمعنى السلبي للكلمة لأنها على حدّ ملاحظة ذكية لحنا بطاطو جلبت انعطافاً عميقاً في بنية المجتمع العراقي ككل دون أن تتمكن من الإمساك بقيادة الأمور سياسياً. ولعل ما رشحها لان تسمى انقلاباً هو هذا الفشل السياسي تحديداً.

لكن هل يكفي الفشل السياسي الذي جاء به التنازع المحموم على السلطة بين العسكر وتسابق الأحزاب على الشعارات التعبوية الثورية، لتفسير عجز الثورة عن تحقيق ما كان ينبغي لها تحقيقه؟

لماذا لم تحتل الديمقراطية آنذاك نفس الأهمية التي تحتلها اليوم؟ هل يمكن مقارنة درجة الوعي بها في فترة ما بعد نهاية الحرب الباردة مع درجة هذا الوعي أيام التحرر من الاستعمار والاجتهاد على أنسب الطرق لدخول الاشتراكية؟ بل إذا كانت الديمقراطية دون سواها هي المطلوبة فهل يمكن تصور تحققها دون وسائط وظروف هي بالتأكيد أكثر نقصا من الهدف الذي تصبو إليه؟

حقاً أن البشر يصنعون التاريخ ولكنهم يفعلون ذلك وفق شروطه، فليس وعيهم، الذي يأتي متأخراً عن لحظته التاريخية، هو الذي يحدد كينونتهم، كما يقول ماركس، وإنما العكس هو الصحيح.

إنّ وعي البشر لما تحقق ولما لم يتحقق من التاريخ هو جزء من التاريخ نفسه وجدلية التقدم والتراجع لا تمنح الأول صفة الإيجاب المحض والثاني صفة السلب المحض، ولا تعترف بامتياز للأول على الثاني. ليس التاريخ ظاهرة جمالية بل واقع ثقيل ومؤذ لأنه لا يقف دون التمادي على الغايات المنتظرة منه أو على الرغبات المسقطة عليه والتي تحاول إنهاء القصة قبل الأوان. والأسئلة الموضوعة على التاريخ هي مثل الغايات المودعة فيه، لا تطرح بصورة مجردة وإنما تعايش على مستويي الوجود والفعل.

ولهذا لا تعثر على "إجاباتها" لا في زمن الممارسة المفتوح والناقص أبداً. هذه الإجابات هي مثل ثعلب ندرك منذ البداية أننا سوف لا نهتدي إلى مكانه بالضبط، ناهيك عن الإمساك به دون أن يحول ذلك من مطاردتنا له. أما عندما نتخيل الإجابات في متناول اليد، عندما نعجز عن تقدير الفاصلة الزمنية بين الفعل والوعي، بين الحدث والذاكرة. فالمجاز الأنسب للتاريخ هو مجاز القنفذ، هذا الحيوان المنطوي على نفسه يكون دائما حيث يكون وبالكاد يتحرك إذا ما اقتربنا منه. والذي يرى التاريخ وفق المجاز الأخير هو الأكثرية استعداداً للادعاء بامتلاكه وبسطه وتبسيطه كيفما يشاء، وبالتالي للحكم عليه بدلاً من فهمه. ولا يساوره في هذا شك بأنه في الحقيقة يمارس عنفاً نظرياً عليه، ناتجاً عن توهمّ مركزية ما للذات، توهمّ يرجع الغياب إلى الحضور والآخر إلى الأنا.

بالطبع فإن القول بخلاف هذا، أي الدفاع عن استقلالية التاريخ وافتراق حركته عن مخططات الذات العارفة، لا يتضمن إضفاء صنمية عليه ومصادرة حقّ نقده واحتمالات تأويله. فمعرفتنا به لا نبلغها إلا من خلال التأويلات، وهذه تتفاوت في قوتها. فنسخة حنا بطاطو عن حدث الرابع عشر من تموز 58 هي أكثر تعقيدا وإقناعا - لأنها تحديداً افترضت كل التاريخ الحديث للعراق لتفسير حدث واحد من أحداثه الفاصلة - من النسخة الأحادية للذين اعتبروا الحدث مجرد انقلاب فوقي عطّل الحركة "الطبيعية" للتاريخ وهيّأها لانحدارات مأساوية.

عدا التفاوت المشار إليه فإن حجة التأويل، كما يبدو، لم توضع في موضعها الصحيح عند حصرها بالمفاضلة بين مفردتي الثورة والانقلاب. إن حدث تموز 58 فتح، ولو فترة قصيرة، آفاق خيال اجتماعي جديد لمفاهيم الشعب والسلطة، للحياة الخاصة والعامة، للقانون والاحتفال، للمعتقدات الشعبية والسياسية، للمدينة الكبيرة والتظاهر. وهذه المفردات تستحق قبل غيرها براعة التأويل لنقل فهمها من مجال الأسباب السياسية والاقتصادية المباشرة إلى مجال الدلالات النفسية والثقافية العميقة.

---

* (الثقافة الجديدة)، العدد 278/أيلول – تشرين الأول 1997

نصوص مترجمة

علاقات قوى السلطة في روسيا اليوم *

بقلم: ديتا غيرنس
ترجمة: رشيد غويلب

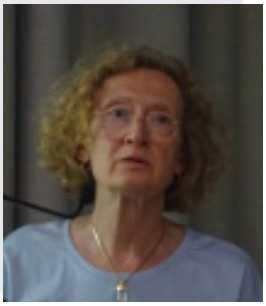

1 - ماهية النظام الاجتماعي السائد

نقطة الانطلاق في تناول ميزان القوى في روسيا اليوم هي تقييم علاقات الملكية السائدة في الاتحاد الروسي، والتي تقوم عليها سلطة الدولة. بعد انهيار النظام الاشتراكي وتفكك الاتحاد السوفيتي، سرعان ما ترسخ نظام رأسمالي، له هياكل احتكارية بعيدة المدى على الأنقاض. ولم يكن ذلك نتيجة لعملية طويلة من التطور والتراكم، بل جاء كنتيجة لاستحواذ مجموعات كبيرة من المدراء أو ممثلي الشركات من أوساط قيادية سابقة، الذين كانوا قادرين على استخدام شبكاتهم السياسية والاقتصادية التي تعود إلى الحقبة السوفيتية لخدمة مصالحهم الخاصة [1]. تم تشكيل تكتلات مالية صناعية محلية كبيرة، كانت محمية من قبل الدولة في وقت تكوينها لأن الشركات الأجنبية لم تشارك في عمليات الخصخصة على نطاق واسع، ومن خلال صلاتهم الوثيقة مع عائلة يلتسين ونفوذهم المالي. لقد كان للأوليغارشية الناشئة تأثير كبير على السياسة الروسية في التسعينيات.

هذا التراكم الروسي التوربيني الخاص لرأس المال والشكل "الوحشي" لرأسمالية الدولة الاحتكارية الذي نشأ على أساسه ووصل إلى حدوده في نهاية التسعينيات، لأنه لا يمكن أن يمثل نموذجا تنمويا واعدا على المدى البعيد. بعد انتخاب بوتين رئيساً في 2000، بدأ احتكار الدولة يتطور إلى حد ما بطريقة منظمة. لقد شكل تحالفاً سياسياً سيمكنه من حل النزاعات التي نشأت بعد تفكك روسيا في فترة يلتسين وتحقيق الاستقرار في سياسة البلاد.

تمكن بوتين من إشراك السكان من خلال الوعد باستعادة الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي، وبالتالي تحسين الظروف المعيشية باستمرار، وكذلك استعادة مكانة روسيا وسمعتها في العالم، أي استعادة احترام الناس لذواتهم المفقودة في عهد يلتسين. لقد كانت هذه الاستراتيجية ناجحة إلى حد كبير. وانخفضت نسبة الذين يعيشون تحت خط الفقر من 33,5 عام 1992 إلى 13,5 في المائة عام 2019 [2]. ولم يكن هناك خطر لمقاومة ما.

من ناحية أخرى، نجح بوتين في فرض "سلطة عمودية"، وفق مبدأ لبناء الدولة تكون بموجبه جميع المؤسسات والهياكل والجهات

الفاعلة في السياسة والاقتصاد موجهة نحو الرئيس. لقد كان تقليص سلطة حكام المناطق المؤثرين في عهد يلتسين وبناء الهيمنة غير المقيدة للمركز الاتحادي خطوة مهمة [3].

وبموازاة ذلك، تم تحجيم تأثير الأوليغارشية السياسي المباشر، وتحطيم إمبراطوريات الإعلام. وضمنت الدولة السيطرة على مناطق الاقتصاد المهمة استراتيجيًا. شمل ذلك أجزاء مهمة من إنتاج الغاز والنفط والطاقة، التي تتم خصخصة بعضها في التسعينيات، فضلاً عن الجزء الضروري من النظام المصرفي والمجمع الصناعي - العسكري. نتج ذلك أساسا من خلال الاستيلاء على ممتلكات عوائل الأوليغارشية الصغيرة. كان استيلاء شركة روسنفت المملوك معظمها للدولة على شركات نفط خودوركوفسكي- يوكوس لدوافع سياسية. ومن أجل تأمين نفوذ الدولة، استولى كبار المسؤولين وعملاء المخابرات (سلوفكي)، من دائرة أصدقاء بوتين على الإدارات التنفيذية للشركات الخاضعة لسيطرة الدولة. وأخذوا يلعبون دورا سياسيا واقتصاديا في البلاد كأوليغارشية نيابة عن الدولة واكتسبوا نفوذًا سياسيًا واسعا.

وافق معظم الأوليغارشية على الوضع الجديد. وبرعوا في الولاء للسلطة. لقد ارتفع عدد المليارديرية الروس في ولاية بوتين الثانية، من 25 إلى 87، ووصل العدد في بداية ولايته الرابعة في عام 2018 الى 101. وتلمس الذين لم يرغبوا بالالتزام بقواعد اللعب الجديدة، سطوة قبضة سلطة الدولة في عهد بوتين، ويمكن الإشارة على سبيل المثال الى خودوركوفسكي وبيريزوفسكي وجوزينسكي [4]. في المقابل، أمّنت الدولة الروسية نظام التراكم القائم على المواد الخام، وأمّنت الأوليغارشية ظروف ممارسة الاستغلال وسياسة تراعي مصالحها.

تنشط الأوليغارشية "الخاصة" بشكل أساسي في مجال تعدين المواد الخام المربح، وإنتاج المعادن والأسمدة، يضاف الى ذلك قطاعا البنوك والاتصالات. ودمجوا رأس المال المالي والصناعي في تكتلات شركاتهم. إنهم يستثمرون في الخارج، وإن لم يكن بنفس القدر المعمول به في البلدان الصناعية الكبرى، وأنشأوا في الخارج فروعا لشركاتهم متشابكة مع الشركات الأجنبية في نواح كثيرة [5]. في آب 2022 ذكر تقرير لجريدة فرانكفورتر روندشاو الالمانية: "وفقًا للدراسات الاقتصادية، يتم توظيف قرابة تريليون دولار من الأصول الروسية في الشركات الخارجية. وهو جزء مهم من الاقتصاد الروسي. وهناك فرضيات تقول إن أغنى أثرياء روسيا لديهم ثروة مالية في الخارج تعادل الثروة المالية لجميع السكان داخل روسيا" [6]. دفع هذا التشبيك القوي بعض الأوليغارشية إلى الإقامة الرئيسية في خارج البلاد وامتلاك جنسية مزدوجة.

توصل تقرير صدر عام 2022 عن معهد الاقتصاد الألماني القريب من رجال الاعمال، على عكس تقديرات بعض أساتذة العلوم السياسية الذين يبالغون في تقدير خسارة الأوليغارشية الروسية للسلطة، إلى الاستنتاج التالي: "على الرغم من فقدان الأوليغارشية السابقة سلطتها، ما زالت تنظم السلطة في روسيا، حيث أن نخبة حصرية وبمساعدة المؤسسات السياسية والاقتصادية الاستخراجية الحصرية، تحدد إلى حد كبير محاور السياسة الاقتصادية والتجارة الخارجية الأساسية، وليس هناك تنويع

للاقتصاد ولا قفزات تكنولوجية في قطاعات الابتكار، لأن إعادة الهيكلة هذه تتطلب إضافة خبرات خارجية جديدة فقط. وسيؤدي ذلك حتما إلى إعادة توزيع الموارد، وتنويع الأرباح وإعادة توزيع السلطة. وهذا لا يمكن أن يكون في مصلحة النخبة الحصرية، التي استمرت في تحقيق عوائد عالية من تصدير المواد الخام" [7].

وللتدليل على التشبيك العميق بين الدولة الأوليغارشية، نشير الى امثلة من عائدات الضرائب بالأرقام:

- في عام 2016، بلغ حجم الإيرادات الضريبية 28.2 تريليون روبل، منها 11.4 تريليون روبل، أو قرابة 40 في المائة من ضرائب الشركات [8].

- كانت حصة أكبر 50 شركة 47 في المائة من مجموع ضرائب الشركات في روسيا، وبلغت حصة أكبر 10 شركات 38 في المائة، من بينها 7 شركات من قطاع النفط والغاز. وكانت حصة أكبر 3 منها 27 في المائة، وكانت روسنفت أكبر دافع لضرائب الشركات بنسبة 12 في المائة، تليها شركة غازبروم بنسبة 10 في المائة، ولوك أويل مساوية للشركة الأولى المملوكة للقطاع الخاص بنسبة 5 في المائة.

- توزع النسب حسب القطاعات المختلفة لأكبر شركة تدفع ضرائب، بالشكل التالي: 73 في المائة لقطاع صناعة النفط والغاز، وبعده بفارق كبير القطاع المالي بـ 6 في المائة، والباقي لقطاعات التعدين والمناجم والنقل وباقي قطاعات صناعة الطاقة غير النفطية[9].

وبهذا، تساهم صناعة النفط والغاز بنسبة جيدة تبلغ 34 في المائة من إجمالي واردات ضرائب الشركات وأقل قليلاً من 13 في المائة من إجمالي الإيرادات الضريبية.

تشير هذه البيانات إلى تركز رأس المال في روسيا، من ناحية الحصة المرتفعة لقطاع النفط والغاز الذي تسيطر عليه الدولة في إيراداتها، وبالتالي الأهمية البارزة للدولة، ومن ناحية أخرى الدور الضئيل للشركات المتوسطة والصغيرة. بشكل عام، يمكن القول إن أكبر دافعي الضرائب يخضعون كليًا أو جزئيًا لسيطرة الدولة. ومن خلال الدخل الذي يوفرونه يمكن للدولة أن تؤثر بشكل استراتيجي على تنمية الاقتصاد والمجتمع. والاتجاه هو حل مشكلة سد الفجوات في موازنة الدولة بشكل متزايد حتى الآن على حساب دافعي الضرائب الكبار في قطاع إنتاج النفط والغاز الذي تسيطر عليه الدولة [10]، في حين تبقى الأوليغارشية الخاصة بمنأى عن ذلك.

عندما تحصل الدولة على جزء كبير من دخلها من حفنة من الشركات التي تستخرج المواد الخام بشكل أساسي، فإنها تُرتهن لتقلبات السوق العالمية، تقلبات العملات، والضغط السياسي. منذ بداية حرب أوكرانيا، أتضحت مساوئ هذا النظام. في فترة كانون الثاني - نيسان 2023، تراجعت عائدات النفط والغاز الروسية بنسبة 52 في المائة لتصل إلى 2282 مليار روبل مقارنة بالعام السابق. ترجع وزارة المالية ذلك الى انخفاض سعر نفط الأورال وانخفاض صادرات الغاز الطبيعي. منذ ذلك الحين، ووفقًا للأرقام الصادرة عن مكتب الإحصاء الروسي، تراجعت أرباح الشركات التي تزيد حصة الدولة فيها عن 25 في المائة الى النصف في عام 2022، بينما انخفضت أرباح الشركات عموما بنسبة اقل

من 13 في المائة، ومن الواضح أن الشركات الخاصة تتكبد خسائر أقل.

وظف رئيس الجمهورية ورئيس مجلس إدارة بنك التجارة الخارجية أندريه كوستين هذا الوضع للترويج لمرحلة أخرى من الخصخصة، والتي ينبغي أن توفر الأموال لإنشاء ممرات لوجستية جديدة، وإعادة فتح فروع الصناعة بأكملها وتعزز القدرة الدفاعية للبلاد [11]. يتم تجاهل سبب التراجع الكبير في أرباح الشركات التي تسيطر عليها الدولة، والتي تنشط بشكل أساسي في استخراج المواد الخام. لكن المعضلة بدأت تتضح: في حين تضيق الفسحة الاقتصادية بالنسبة لكبار دافعي الضرائب، ترفض الشركات الخاصة الزيادات الضريبية.

على عكس القطاعات الاقتصادية التي تهيمن عليها الأوليغارشية، وخاصة في قطاع المواد الخام، فإن الصناعة التحويلية متخلفة. وأحد أسباب ذلك، من ناحية فتح السوق في التسعينيات، وإبعاد المنتجات المحلية منه لصالح المستورد من الخارج، ومن ناحية أخرى، انخفاض معدلات الربحية مقارنة بالمتحقق من عمليات استخراج المواد الخام. ولهذا كان الهيكل الصناعي للبلاد محدود التنوع، وكانت روسيا تعتمد على استيراد العديد من السلع المهمة، بما في ذلك المنتجات النهائية المعقدة مثل الآلات والإلكترونيات، حتى ما يرتبط بصناعة الأسلحة والسيارات. وحقيقة أن هجوم استبدال المستورد بالمنتج المحلي، الذي تم اعلانه، على الأقل منذ العقوبات الغربية بعد الاستيلاء على شبه جزيرة القرم لم يحقق نجاحا كبيرا، هو سبب هذه الربحية المنخفضة. لقد تمت متابعة السياسة المعلنة بفتور، وهو ما حذر منه الحزب الشيوعي في روسيا الإتحادية دوما [12]. على أساس وصف الهيكل الاقتصادي، يمكن القول إن روسيا ليس في عداد البلدان الإمبريالية عالية التطور.

2 - هياكل السلطة السياسية في روسيا

يمكن رؤية هياكل السلطة السياسية على خلفية نظام احتكار الدولة في الاتحاد الروسي، والذي يعكس بوضوح حالة اندماج السلطة السياسية لبيروقراطية الدولة مع الأوليغارشية، والذي وصفته دراسة أجرتها مجموعة مينشنكو الاستشارية في عام 2012، وحدّثتها في عام 2017، عبر ما أطلقت عليه الدراسة نموذج "المكتب السياسي 2.0" (أي النسخة الثانية من المكتب السياسي – المترجم). ان النخبة السياسية الحاكمة في روسيا هي تكتل من عوائل (عشائر) ومجموعات تتنافس على موارد البلاد.

تشكل المكتب السياسي 2.0، كهيئة غير رسمية بعد وصول بوتين إلى السلطة، لحل التناقضات القائمة. ويلعب بوتين فيه دور الحكم والوسيط. حول "المكتب السياسي 2.0" الذي يضم في عضويته ممثلين عن الدولة والأوليغارشية، هناك سلسلة يطلق عليهم اسم Silowik ينتمي أعضاؤها الى (الجيش والمخابرات والأجهزة الامنية الأخرى)، ورجال الأعمال، والسياسيين (الحكومة، والمعارضة "النظامية" والكنيسة) وأصحاب الاختصاص، ويشار إلى ممثليهم الأكثر نفوذاً "بالمرشحين" لعضوية المكتب السياسي 2.0، والباقي ينتمون الى محيط اللجنة المركزية [13] (واضح جدا هذا الاسقاط على هيكلية الحزب الشيوعي السوفيتي السابق - المترجم).

تجدر الإشارة إلى توقعين تم طرحهما في دراسة عام 2017، ثبت أنهما صحيحان لاحقا. يقول التوقع الأول: "في إطار المكتب السياسي 2.0، سيتم تشكيل ائتلافين عريضين: تحالف التعبئة (المجمع الصناعي العسكري + الخدمات الأمنية، وآخرين) وائتلاف التحديث (الكتلة الليبرالية الحكومية، القطاع الخاص، وآخرين). والتنبؤ الثاني هو: ان "حتمية المزيد من التدهور في العلاقات مع الغرب، ستؤدي عمليا إلى صراعات على أطراف روسيا. وهذا بدوره سيدفع المكتب السياسي 2.0 نحو سيناريو التعبئة"[14].

فيما يلي سوف أتناول قوى ائتلاف التعبئة، التي تلقت أيضًا بعد بداية الحرب دعمًا من "المحدثين" السابقين، على سبيل المثال ميدفيديف[15].

2-1 : سيلوفيكي والجهات الفاعلة الجديدة على خلفية حرب أوكرانيا

لطالما لعبت السيلوفيكي دورًا رئيسيًا في هيكل السلطة الروسية. إنهم القوة الرئيسية في مجلس الأمن الرئاسي الروسي، المكلف باتخاذ قرارات مشتركة بشأن السياسات الخارجية والأمنية والدفاعية. العديد من أعضاء المجلس هم من المقربين من بوتين منذ أيام لينينغراد.

في 21 شباط 2022، اجتمع المجلس ليتخذ قرار الاعتراف بالجمهوريات في دونباس، والذي تم نقله مباشرة بشكل مقصود. قدم بوتين نفسه للحاضرين باعتباره الحاكم الوحيد. وبخ رئيس جهاز المخابرات الخارجية، سيرجي ناريشكين، مثل تلميذ غبي. ونتيجة لذلك، افترض بعض المراقبين أن رؤساء الأجهزة السرية سيفقدون مواقعهم، في تناقض مع حقيقة عدم حدوث تغييرات على مستوى الأفراد في قمة الأجهزة الامنية بعد الهجوم على اوكرانيا، على الرغم من سوء التقدير المدمر الذي تتحمله، من بين آخرين، الأجهزة السرية [16]. هذا الاجتماع والاجتماع الذي تبعه مع الأوليغارشية، يمكن اعتباره سيناريو مقصود، يقدم بوتين نفسه فيه، باعتباره الحاكم الأوحد القوي، في ظل وضع متوتر ومواجهة عسكرية، يمسك بزمام الأمور بقوة في يده.

كممثلين عن الجيش، تضم هذه المجموعة حاليًا وزير الدفاع سيرجي شويغو، وهو صديق مقرب لبوتين، وفاليري غيراسيموف، رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة الروسية والقائد العام للقوات الروسية في أوكرانيا منذ كانون الأول 2023. وبما أن "العملية العسكرية الخاصة" المزعومة لا تسير وفق الخطة، خلافا للتصريحات الرسمية، فإن ممثلي الجيش يتعرضون لضغوط جماهيرية متزايدة. في وسائل الإعلام الروسية، وعلى عكس القيود المعتادة على حرية التعبير في ما يتعلق بالحرب في أوكرانيا، يتم توجيه انتقادات صريحة، وبشكل مفاجئ لاستراتيجية وتكتيكات الحرب. ويمكن ملاحظة الضغط أيضًا في التغييرات العديدة المتسارعة في القيادة العليا للجيش [17]. على هذه الخلفية، نما دور قيادة الجيش في أوقات الحرب من ناحية، ومن ناحية أخرى، أصبحت مكانة الافراد الذين يمثلونها أكثر غموضا، بفعل نمو المنافسة.

يبرز ممثلون جدد إلى جانب قيادة الجيش. على الرغم من أنهم لا ينتمون إلى دائرة القيادة الأقرب، إلا أنهم شهدوا نموا كبيرا في السلطة، على سبيل المثال من خلال وسائل الإعلام، ويجب دمجهم في نظام الحكم.

جدير بالذكر أن رمضان قديروف انتخب رئيساً من قبل البرلمان الشيشاني عام 2007 بعد ان رشحه بوتين، وأبقى الشيشان تحت السيطرة الروسية بقبضة من حديد. وفي تشرين الأول 2022، تمت ترقيته إلى رتبة كولونيل جنرال، ربما امتنانًا لنشر جزء من ميليشياته في أوكرانيا، والتي سبق وان اعتبرت كفوج من الحرس الوطني الروسي في عام 2006 [18]. وتمثل رتبته الجديدة ثالث أعلى رتبة، وهي في الواقع ثاني أعلى رتبة في القوات المسلحة الروسية حاليا لعدم وجود رتبة المارشال.

والأهم من قديروف، الذي تم دمج مقاتليه في الهياكل الرسمية، هو رأس المال الخاص الحربي، وهي فرع سريع النمو من الاقتصاد في روسيا يعمل حتى الآن في منطقة رمادية دون أي أساس قانوني [19]. تكمن أهميته بالنسبة للدولة قبل كل شيء في حقيقة أن هذه الشركات ترسل مرتزقة للقتال في أوكرانيا، وبالتالي تمنعها من حشد المزيد من الشباب. تربط شركات الحرب هذه بمصالحها الربحية الخاصة. وهذا هو سبب هجماتهم القاسية على ممثلي الجيش والدولة، الذين، في رأيهم، لا يعملون بجد كاف في ساحات القتال. إنهم يدعون بشكل متطرف الى تصعيد الحرب.

يفغيني بريغوزين، رئيس الشركة الأمنية والعسكرية الخاصة "فاغنر"، هو رجل أعمال مشبوه إلى حد ما، وله علاقات وثيقة ببوتين، ويعتبر أبرز ممثليه. ولا يقتصر الأمر على امتلاكه شركة كونكورد للتموين والعديد من الشركات الأخرى في قطاع التموين التي تزود مؤسسات الدولة، ولهذا يطلق عليه اسم طباخ بوتين، بل يمتلك أيضا شركات سلع، وفقًا لمجلة "كابيتال". وبحسب بحث أجرته "فاينانشيال تايمز"، حققت شبكة شركاته الدولية أرباحا بلغت 250 مليون دولار في عام 2021. تأتي الأموال بشكل أساسي من صفقات النفط والذهب والماس وسلع أخرى من إفريقيا والشرق الأوسط [20].

على أساس هذه الخلفية، فإن شركة "فاغنر" الأمنية والعسكرية الخاصة، التي تأسست عام 2014، تبدو منطقية، لأن مرتزقة هذه الشركة يقاتلون ليس فقط في أوكرانيا، ولكن أيضًا في البلدان الأفريقية وسوريا. وفقا لمقال نشره المركز الاتحادي للتأهيل السياسي في المانيا، لم يتم تسجيل المجموعة أبدا كشركة، لعدم وجود أساس قانوني في روسيا. هناك إمكانية لتسجيل شركة أمنية خاصة، الا ان الشركات العسكرية الخاصة التي تقدم خدمات عسكرية بواسطة مرتزقة، محظورة بموجب القانون الجنائي الروسي. ومع ذلك، ذكر بوتين نفسه مجموعة فاغنر في مؤتمر صحفي في عام 2018. وشدد بوتين على أن المجموعة تستطيع متابعة مصالحها التجارية في أي جزء من العالم طالما أنها لا تنتهك القوانين الروسية [21]. ولعل عدم توضيح الوضع القانوني لهذه الشركات يساعد على تسهيل السيطرة عليها.

بشكل عام، يمكن افتراض أن المزيد من خصخصة الأمن السيادي والمهام العسكرية بات وشيكا. كما يشير كيريل ستريبنيكوف في جريدة ريا نوفستي بتاريخ 29/03/2023: "بالأمس في اجتماع مجلس الإدارة الأخير للوزارة، أعلن وزير الطاقة الروسية، نيكولاي شولجينوف، أن شركة لوك اويل أكملت تأسيس منظمة أمنية خاصة. تتمثل مهمتها في حماية مرافق مجمع الوقود والطاقة. وتعمل شركة "غازبروم نفت" أيضًا

على إنشاء منظمة مماثلة، وتم منح تصريح مماثل لشركة غازبروم وترانس نفط في عام 2013. ويشدد رؤساء هياكل السلطة الجديدة على أن هذه ليست شركات عسكرية خاصة وأن هذه المنظمات يجب أن تخدم حصريًا في حماية منشآت الإنتاج المدنية. ومع ذلك، هناك انطباع بأننا على وشك زيادة حادة في هياكل الشركات وغيرها من الهياكل شبه العسكرية وتغيير أساسي في نهج استخدام القوة العسكرية، يشمل التخطيط العسكري والمشتريات والاستخبارات والحرب الفعلية التي تديرها حاليًا وزارة الدفاع وهيئة الأركان المشتركة" [22].

المعلومات تشير إلى أنه بالإضافة إلى "فاغنر"، تم في معركة أرتموفسك (باخموت)، أيضًا نشر كتيبة "بوتوك" المتطوعين التابعة للقوة العسكرية الخاصة الجديدة لشركة غازبروم. يؤدي الوضع التنافسي بين مختلف الجهات العسكرية في ساحة المعركة بشكل متكرر إلى مشاكل بسبب عدم الاتفاق [23]. وهذا يثير السؤال التالي لدى سيرجي جونشاروف، الرئيس الفخري للرابطة الدولية للمحاربين القدامى لوحدة مكافحة الإرهاب "ألفا": "... لمن أقسمت غازبروم بالولاء لميللر؟ ولمن أقسم فاغنر اليمين؟ هم "جنود مرتزقة. وقد يكون هناك المزيد في القريب العاجل. وعلى اية حال دعم الرئيس فكرة إنشاء شركات عسكرية خاصة" [24].

يُهتم كل من الزعيم الشيشاني رمضان قديروف واتحاد متطوعي دونباس بتأسيس الشركات العسكرية الخاصة بهم. لا يمكن التحقق من المعلومات التي نشرتها قناة (إن تي في) نهاية كانون الأول الفائت، ولم تؤكدها الجهات الرسمية الروسية [25]، والتي تفيد بأن وزير الدفاع الروسي شويغو والشركة الأمنية والعسكرية الروسية الخاصة "باتريوت"، التي تعمل بشكل وثيق مع وزارة الدفاع الروسية وجهاز المخابرات العسكرية، يريدان زجها في أوكرانيا للحد من نفوذ مجموعة فاغنر [26]. وبمبادرة من وزارة الدفاع في حزيران 2023 لتنظيم التعاون بين الوزارة وتشكيلات المتطوعين (المليشيات)، أصبح معروفًا أن هناك الآن 40 تشكيلا. وبينما تم بالفعل إبرام العقود الأولى [27]، يرفض رئيس فاغنر التوقيع.

2-2 : الأوليغارشية على خلفية حرب أوكرانيا

بالإضافة إلى تطوير الشركات الأمنية والعسكرية الخاصة، تنعكس خصخصة المهام العسكرية السيادية أيضا في توظيف هياكل الأوليغارشية في تمويل المهام الدفاعية. ومن الأمثلة على ذلك مطار ليفاشوفو بالقرب من سانت بطرسبرغ، والذي تم افتتاحه في كانون الأول الفائت، بعد أعمال إعادة الإعمار وهو القاعدة الرئيسية الجديدة للطيران البحري الروسي. لم يتم تمويل البناء من قبل وزارة الدفاع، ولكن من قبل شركة غازبروم. في وقت مبكر من عام 2021، أمر بوتين الشركة بالدخول في اتفاقية امتياز مع الوزارة. وحصلت الشركة المملوكة للدولة بالمقابل، على حق تشغيل المطار مع الجيش. كما أشار أليكسي أكسيونوف في صحيفة سوبودنيا برس في 26 مارس 2023، الى انه "تم وضع سابقة ناجحة للتعاون بين الشركات الكبرى والجيش من أجل تعزيز دفاع البلاد" [28].

يبدو أن هذه هي الطريقة الواعدة في نظام

احتكار الدولة لكسب الأوليغارشية لتخفيف العبء عن ميزانية الدولة، مقارنة بالمحاولة التي قامت بها الحكومة الروسية في شباط 2023 عندما طلبت من الشركات الروسية الكبرى المساهمة على أساس تطوعي في الإنفاق الاجتماعي على البنية التحتية للميزانية بمبلغ 300 مليار روبل. كان جواب رئيس اتحاد الصناعيين ورجال الأعمال في روسيا، ألكسندر شوخين، متوقعا "الفكرة لم تكن مجدية" [29] لم تفكر الحكومة الروسية لحد الآن (حتى كتابة المقال – المحرر) في زيادة الضرائب العامة على الشركات.

إنّ الأهمية المتزايدة للشركات الأمنية والعسكرية الخاصة وتمويل مشاريع وزارة الدفاع للتخفيف من الضغط على ميزانية الدولة، تبين أن بعض أجزاء الأوليغارشية على الأقل كانت قادرة على توسيع نفوذها في الدولة خلال حرب أوكرانيا. وفي حين تنتقد دوائر الأوليغارشية المستفيدة من الحرب، أحيانًا ما تعتبره تقصيرا من قبل أجهزة الدولة خلال حالة الحرب، جاء النقد الحذر للحرب من أجزاء أخرى من الأوليغارشية [30]. لم يكن لهذه التصريحات عواقب على اصحابها، ولم يسجل انخفاض في "استعدادهم للتبرع". على العكس من ذلك: يبدو أن الدولة تحمي مصالحها الاقتصادية بقدر ما تستطيع، حتى لو أدى ذلك إلى تناقضات في ضوء مسار الحرب.

لقد تمكنت روسيا من الحصول على مشترين لموادها الخام في العديد من البلدان غير المشاركة في العقوبات، بالإضافة إلى أسعار المواد الخام المرتفعة نسبيًا، يعني هذا أن تأثير العقوبات الغربية على الأوليغارشية الروسية أقل بكثير مما كان يأمل الغرب [31]. في نهاية نيسان 2023، اشارت مجلة "شبيغل" الألمانية الى أن فاحشي الثراء في روسيا كان أداؤهم أفضل بكثير مما كان عليه في العام السابق، وإن لم يكن بنفس المستوى الذي كان عليه قبل اندلاع الحرب. ورفع صندوق النقد الدولي مؤخرًا توقعاته للنمو في روسيا من 0.3 إلى 0.7 في المائة [32].

لا تتحول التجارة الخارجية بالكامل بأي حال من الأحوال إلى البلدان التي لا تفرض عقوبات. بالإضافة إلى ذلك، تزدهر التجارة مع الدول التي تفرض عقوبات عبر دول ثالثة مثل تركيا وكازاخستان وغيرها أو بشكل مباشر، وكما كتب البروفيسور فالنتين كاتاسونو في مقال له في صحفية سوبادنيو في 19 ايلول 2022: "تُظهر أحدث الأرقام الصادرة عن وزارة التجارة الأمريكية أن صادرات الولايات المتحدة بين كانون الثاني وتموز، بلغت ما قيمته 1.3 مليار، في حين قدرت الواردات من روسيا إلى الولايات المتحدة خلال تلك الفترة بـ 11.64 مليار دولار، لذا، فإن التجارة الروسية الأمريكية هذا العام ستكون في اتجاه واحد. لقد تجاوزت شحناتنا عبر المحيط مشترياتنا في الخارج بنحو تسع مرات" [33]. في حين كانت في العام السابق متساوية.

تتاجر الأوليغارشية الروسية مباشرة مع أوكرانيا، كما تشير "ايرو اكتيف" في كانون الثاني 2023. إن المصفاة الوحيدة في بلغاريا مملوكة لشركة النفط الروسية الخاصة لوك اويل. ومن كانون الثاني إلى تشرين الثاني 2022، صدرت البلاد ما قيمته 700 مليون يورو من الوقود إلى أوكرانيا. وبالمقارنة بفترة ما قبل الحرب، فإن هذه الزيادة تبلغ ألف ضعف، حيث بلغت صادرات الوقود

البلغاري إلى أوكرانيا 750 ألف يورو فقط في عام 2021. أكد فلاديميروف، مدير برنامج الطاقة والمناخ في مركز الأبحاث البلغاري مركز دراسة الديمقراطية وأحد خبراء الطاقة البلغاريين الرائدين، "... أن جميع المنتجات المصدرة إلى أوكرانيا هي إما وقود يتم إنتاجه مباشرة في روسيا أو يجري تصنيعه في شركة لوك أويل" [34].

تُظهر هذه الأمثلة مشاكل الدولة، من ناحية، الرغبة في دفع أهداف الحرب في أوكرانيا الى امام، ومن ناحية أخرى عدم تقييد نشاط الأوليغارشية كثيرًا، وبالتالي ربما أيضًا إبقاء الخيارات الممكنة لتجديد التعاون مفتوحة لفترة ما بعد الحرب.

2-3 : القوى السياسية على خلفية حرب أوكرانيا/ معارضة الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية نموذجا

حزب "روسيا الموحدة" هو أكبر حزب ممثل في البرلمان الروسي (مجلس الدوما)، ويتبنى سياسة الدولة التي تم وصفها آنفا، وبالتالي لا يحتاج هنا إلى مزيد من التناول. وعند تناول المنظمات السياسية سأقتصر على أكبر حزب معارض يمتلك أكبر كتلة برلمانية معارضة في الدوما، وهو الحزب الشيوعي الروسي بزعامة زيغانوف، الذي يلعب دورا مهما في هيكل السلطة في روسيا. اما الجماعات اليسارية الأخرى فصغيرة وليس لها تأثير. ونتيجة للقمع المسلط عليها، فقدت المعارضة البرجوازية المزيد من نفوذها، الذي لم يكن أصلا كبيرا.

حدد الحزب الشيوعي أهم المطالب في برنامج بعنوان "عشرون إجراءً عاجلا من أجل التحول في روسيا" [35]. ويسعى الحزب إلى اقتصاد تعبئة وإعادة إدخال التخطيط الاستراتيجي قصير المدى على أساس خطة خمسية. ويلي ذلك مطالب تفصيلية بالسيطرة على الاقتصاد، وتوحيد الموازنة العامة للدولة في المجال الاجتماعي. علاوة على ذلك، ووفقًا لتصريحاتهم الخاصة، فهم يعملون على قانون انتخابي جديد وقانون عمل جديد بالإضافة إلى دستور جديد.

ومن المعتاد، أن جميع مشاريع القوانين العديدة التي قدمها الحزب الشيوعي رفضت من حزب الأغلبية "روسيا الموحدة" [36]، ولم يدفع هذا الأمر إلى قيام الحزب بتحويل الجزء الأكبر من نشاطه من البرلمان إلى الشارع، حيث تمارس اعمال القمع ضد العديد من أعضائه، حتى عند قيامهم بأنشطة صغيرة. في مقابلة، يبدو نائب رئيس الحزب الشيوعي يوري أوفنين داعما للدولة جدا: "أود أن أقول للأوليغارشية الروسية: عليكم ان تفهموا، اليوم سيتقرر مصيركم مع مصير روسيا. لقد عشتم لعقود في ترف مسرف، واستحوذتم على ممتلكات حكومية ضخمة مقابل مبالغ تافهة. طوروا بلدكم، استثمروا أموالكم داخله. وافقوا على زيادة الضرائب. خذوا مثالاً من كبار الشخصيات الغربية التي طرحت في منتدى دافوس الأخير اقتراح زيادة الضرائب على الأغنياء" [37].

على الرغم من الرفض والقمع الحكومي، فإن الوقوف الى جانب بوتين مطلوب بشكل متكرر، خاصة بعد بدء الحرب ضد أوكرانيا، وتم الثناء على خطبه. قال غينادي زيوغانوف، رئيس الحزب الشيوعي، بعد اجتماع الكتل البرلمانية مع بوتين في 7 تموز 2022: "في كلمتي في الكرملين، شددت على أنه كان هناك مؤخرًا عدد من الخطب

المهمة التي وجهها الرئيس الى البلاد. في مقدمتها الرسالة التي تتضمن أهم المهام. أنا أتفق معها تمامًا: أن نصبح إحدى القوى الخمس الرائدة في العالم، لوقف الانقراض والفقر، لتحقيق اختراق في أحدث التقنيات" [38].

لقد أشار زيوغانوف عدة مرات إلى تصريح بوتين أمام نادي فالداي (ملتقى عالمي سنوي للسياسيين والصحفيين والخبراء يعقد في روسيا منذ 2004 – المترجم) بأن الرأسمالية وصلت إلى طريق مسدود وأنه لا يوجد شيء يعارض فكرة الاشتراكية. يبدو أن هناك نموذجا: رئيس جيد، وإدارة سيئة. قال زيوغانوف في الاجتماع المذكور مع بوتين إن الشيء الرئيسي هو أن الرئيس يعلن عن مسار اشتراكي جديد. أضف الى ذلك قال في مقابلة: "التفت إلى الحاضرين: هناك يجلس بجواري فولودين (رئيس مجلس الدوما) ويبتسم، لم يعد لديه أي اعتراض. علينا إقناع الفريق الرئاسي والإدارة والحكومة بالحاجة إلى مسار جديد، عندها سيكون كل شيء على ما يرام" [39].

يلخص النائب الأول لرئيس الحزب الشيوعي الروسي يوري اوفنين موقف الحزب الشيوعي الروسي من النظام بالقول: "في المواجهة الحالية، سينتصر من يدير، من بين أمور أخرى، الحفاظ على الاستقرار الداخلي لبلاده بنجاح، يمكننا أن نرى الاحتجاجات التي تهز فرنسا في الوقت الحالي. يبدو المجتمع الروسي أكثر صلابة الآن، لكن يجب علينا فعل كل شيء للحفاظ على هذه الوحدة الاجتماعية" [40].

تستند وحدة المجتمع الروسي التي ذكرها أوفونين إلى حقيقة أن الحكام في روسيا تمكنوا من إخفاء قضايا عدم المساواة الاجتماعية بمشاعر مجتمع قيم قومي محافظ للغاية. اللغة والثقافة المشتركة، العقيدة الأرثوذكسية المشتركة، التقاليد المتوارثة، كل هذا يشكل مجتمع القيم الذي غالباً ما يوصف بـ "العالم الروسي" [41]. منذ أن انخرط الحزب الشيوعي الروسي في دعاية مجتمع القيم وتمثلها بشكل حاسم، يدعم نظام الحكم الروسي الحالي. ويتم التعبير عن هذا أيضًا بواسطة رؤية الحزب الشيوعي الروسي للتاريخ.

طرح رئيس الحزب الشيوعي الروسي، غينادي زيوغانوف، ومنذ تأسيس الحزب الشيوعي الروسي قبل 30 عاما باستمرار أفكاره حول التاريخ الروسي وأساسه. يقول زيوغانوف: "إن الفهم الصحيح للتاريخ الروسي بشكل عام والفترة السوفيتية المتميزة فيه مستحيل دون إدراك أن الفكرة الاشتراكية متجذرة في المسيحية. في الوعظ الإنجيلي بالرحمة والمساواة والعدالة والإحسان ونبذ الأكاذيب والاستغلال، يكمن الأساس الأولي للنظرة الاشتراكية للعالم في هذا الاعتقاد الذي اتحد الروس باعتماده أخيرًا وشكلوا أمة سلكت طريق التكوين الفكري والثقافي والسياسي العام المنطقي" [42]. لذلك ليس من المستغرب اعلان زيغانوف في عام 2013 أن كل ثالث عضو في الحزب الشيوعي الروسي مؤمن [43]. وليس من المستغرب تقليد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية زيغانوف، بمناسبة عيد ميلاده السبعين، في عام 2014 "وسام الشرف والمجد" تكريما لعمله في حماية القيم الروحية والأخلاقية التقليدية [44].

على أساس هذا التوصيف للتاريخ الروسي، يتم تمجيد دور روسيا والشعب الروسي

في تاريخ العالم، جاء في مقالة لزيغانوف: ''الإمبراطورية التي أنشأها الروس هي الوحيدة في تاريخ العالم التي لم تتحقق من خلال غزو وسرقة وإبادة الشعوب الأخرى، بل من خلال التحالف معها، وفي العادة على أساس طوعي. وبهذه الطريقة، كان على الروس حمل السلاح لحماية شعوبهم المتحالفة ومساعدتهم في الدفاع عن أنفسهم ضد الغزاة المهددين''، ويضيف: ''بدونهم، أي الروس سيبدو العالم مختلفًا تمامًا، ولن يكون هناك الكثير من الشعوب التي تسكنه اليوم. ولا يمكن قول الشيء نفسه عن أي قوة أخرى. لا يمكن قول مثل هذه الكلمات إلا عن الروس وروسيا'' [45]. حقيقة أن لينين أشار إلى روسيا القيصرية كسجن للأمم لم تعد موجودة في سردية الحزب الشيوعي الروسي هذه.

يصف فلاديمير نيكيتين، عضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي ورئيس الحركة المجتمعية لعموم روسيا والمهتمة بإحياء تقاليد شعوب روسيا ''الحركة الإبداعية لعموم روسيا روسكي لاد (الطريقة الروسية)'' في تقريره المقدم للمؤتمر الثالث للحركة في نيسان 2023، نجاح عمل الحزب الشيوعي الروسي والقوى اليسارية الوطنية: ''تم الاعتراف بالجمهوريتين الشعبيتين (لوغانسك ودونيتسك) ودمجهما بالاتحاد الروسي. وتجري الآن عملية عسكرية لاستعادة الحدود الحضارية للعالم الروسي. وتم تضمين التعديلات المقترحة من الحزب الشيوعي الروسي في دستور الاتحاد الروسي. وصدر مرسوم رئاسي ''بشأن اعتماد سياسة الدولة الأساسية بشأن الحفاظ على القيم الروحية والأخلاقية التقليدية الروسية وتعزيزها. تم تمرير القوانين التي تحظر الدعاية لأفكار المثليين وتحمي اللغة الروسية من التأثير الاجنبي'' [46]. ومع عدم معرفة حقيقة حجم الضغط الذي مارسه الحزب الشيوعي الروسي لتنفيذ المبادرات المذكورة أعلاه، فمن الواضح ان الحزب الشيوعي يستخدم نفوذه بنجاح في التحول القومي والقيمي المحافظ الجاري في روسيا.

3 - خلاصة

باختصار، إنّ النظام السياسي، بقيادة زمرة من الممثلين المؤثرين للأوليغارشية وقوات الأمن، مارس حتى الآن سلطة غير مقيدة في روسيا. وحتى يومنا هذا، نجح الرئيس بوتين في تحقيق التوازن بين مصالحهما، التي يختلف بعضها عن بعض، وكذلك لعب دور الوسيط بينهما. هذا النظام محاط بإيديولوجية قومية رجعية بشكل متزايد، تجد طريقها إلى وعي العديد من الروس وأيضًا أجزاء كبيرة من المعارضة السياسية، التي ترى نفسها على أنها يسارية. وفي أوقات المواجهة العسكرية، والحرب ضد أوكرانيا، والصراع ضد ''الغرب المتعاون''، ينجح الحكام في إشراك أجزاء كبيرة من السكان والمعارضة في العمل على استقرار النظام.

إنّ الضجيج القومي يضعف النضال من أجل واقع اجتماعي واقتصادي أفضل. وتؤدي الحرب إلى تفكيك المزيد من الحقوق الديمقراطية المحدودة أصلا، والى تجريم جميع الاحتجاجات. إنّ تسلح أجزاء من الأوليغارشية أمر مقلق، بالنسبة لمستقبل مقاومة نظام الأوليغارشية الحاكم في روسيا، وان لم تكن ملموسة بعد. اكد سيرجي أودالتسوف، منسق الجبهة اليسارية في

روسيا، الذي حُكم عليه بالسجن لعدة سنوات بسبب تنظيمه احتجاجات ضد التزوير الهائل في انتخابات 2012، في مقال نُشر في سفوبودنايا برسا في نهاية كانون الثاني 2023: "لسوء الحظ، على المرء أن يعترف بأن السلطة والعديد من الجماعات في دوائر الاقتصادية المرتبطة بها تستفيد من عملية عسكرية خاصة طويلة الأمد. يجني البعض منه ربحا خرافيا، بينما يستخدمه آخرون لتوسيع وتعزيز موقعهم السياسي المهيمن في البلاد. لهذا السبب تظل أهداف العملية العسكرية الخاصة غير واضحة ويتم تعديلها باستمرار، ما يسمح لها نظريا بالاستمرار إلى أجل غير مسمى. وفي الوقت نفسه، وتحت ستار الوطنية، تُبذل محاولات لترهيب وإسكات نشطاء المجتمع المدني الذين يحاولون تحدي تجاوز مافيا الشركات والمسؤولين الفاسدين على القانون، والذي تكثف كجزء من العملية الخاصة"[47]. بسبب عدم نجاح الجيش الروسي في أوكرانيا، هناك خطر من أن المحرضين القوميين والعسكريين سيملكون اليد الطولى. وفي حالة وجود تعبئة واسعة النطاق في روسيا، لا يمكن استبعاد اندلاع احتجاجات بين السكان الروس. لقد تمكنت الحكومة، حتى الآن، من إبعاد الحرب عنها قدر الإمكان.

---

* محاضرة بعنوان "علاقات قوى السلطة في روسيا اليوم" القيت في 17 حزيران في سيمينار بعنوان "السياسة الماركسية"، للمؤرخة والمختصة بالعلوم السياسية، والباحثة في شؤون الاتحاد السوفيتي السابق وروسيا، وعضوة مجموعة عمل روسيا في مجلة "أوراق ماركسية" القريبة من الحزب الشيوعي الألماني، ديتا غيرنس. الترجمة لنص المحاضرة المنشور في موقع "شيوعيون" الألماني في 23 حزيران 2023، وستنشر المحاضرة أيضا في العدد المقبل من مجلة "أوراق ماركسية" الذي سيصدر في تشرين الأول المقبل.

الهوامش

1- Vgl. dazu auch: Cécile Vaissié, Putin, Chef der Oligarchen, in: Stéphane Courtois, Galia Ackerman (Hg.), Schwarzbuch Putin, Piper Verlag GmbH, München 2023, S. 389 ff.
على خلفية الصعوبات الاقتصادية الكبيرة في التسعينيات. وبالإضافة إلى المكائد الإجرامية العلنية في الأيام الأولى من الاستيلاء الوحشي على ممتلكات الدولة، تم إضفاء الشرعية عليها، بواسطة اصدار السندات والأسهم لموظفي الشركات، التي باعوها بدورهم الى الاوليغارشية الناشئة، وقدمت البنوك الخاصة المنشأة حديثًا قروضًا للدولة، تم تأمينها من خلال حصص في الشركات الكبيرة المملوكة للدولة في مجال استخراج المواد الخام والطاقة. وسرعان ما تمت المصادقة عليها من قبل الدولة المفلسة لصالح الدائنين.

2- Vgl. dazu: Dieter Segert, Post-sowjetischer Kapitalismus als Gesellschaftsform – Russland und Ukraine im Vergleich. Ein Essay in Z, Zeitschrift marxistische Erneuerung, Nr. 133, März 2023, S. 30
في عام 1992، نظمت إضرابات في 6273 شركة، شارك فيها 357600 عامل وتوقف العمل لمدة 1،893،300 يوم تشير إحصائيات عام 2018 الى حدوث إضرابين فقط بمشاركة 100 عامل، وتوقف العمل لمدة 500 يوم عمل فقط. https://rosstat.gov.ru/folder/210/document/12993
على الرغم من حديث وسائل الاعلام عن إضراب سائقي البريد السريع في احدى الشركات في نهاية عام 2022، فإن الوضع العام لم يشهد تغييرا. لعب عاملان في غياب الاضراب واحتواء النشطاء وقمعهم بقسوة. على سبيل المثال، في

شباط 2023، حُكم على رئيس نقابة «خدمة التوصيل»، كيريل أوكراينتسيف، بالسجن لمدة عام و 4 أشهر في معسكر عمل اجباري (مستعمرة جزائية) «لانتهاكاته المتكررة للوائح تنظيم التجمعات». وبسبب طول فترة الحبس الاحتياطي، أطلق سراحه بعد النطق بالحكم. اندلعت هذه الحملة بسبب احتجاجات البريد السريع في 25 أبريل 2022، حيث سار حوالي ثلاثين متظاهراً إلى مكتب نادي خدمة التوصيل للاحتجاج على تخفيض الأجور، وتم اعتقال أكثر من عشرة منهم.

https://www.svoboda.org/a/glava-profsoyuza-kurjer-ukraintsev-osvobozhdyon-posle-prigovora/32264040.html

3- Vgl. dazu: Andreas Heinemann-Grüder, Föderalismus in Russland, 26.03.2018; https://www.bpb.de/themen/europa/russland/47962/foederalismus-in-russland

4- Vgl. dazu: Heiko Pleines, Wirtschaftseliten und Politik, 31.03.2021; https://www.bpb.de/themen/europa/russland/283101/wirtschaftseliten-und-politik-in-russland

5- lag Russland mit seinen Nettodirektinvestitionen im Ausland auf dem 18 Platz 2016 weltweit. https://de.wikipedia.org/wiki/Liste_der_L%C3%A4nder_nach_gemachten_ausl%C3%A4ndischen_Direktinvestitionen

بشأن استثمارات 2020 مقارنة بالعام السابق انظر أيضا:

ПРЯМЫЕ ИНВЕСТИЦИИ ИЗ РОССИИ В ЭКОНОМИКУ СТРАН-КРУПНЕЙШИХ .9.9 ПОЛУЧАТЕЛЕЙ ПРЯМЫХ ИНВЕСТИЦИЙ (сальдо операций платежного баланса Российской Федерации; млн долларов США) in: https://rosstat.gov.ru/folder/210/document/12993

6- https://www.fr.de/politik/wladimir-putin-kreml-oligarchen-sanktionen-ukraine-krieg-kreml-news-zr-91522393.html

7- Gerards Iglesias, Simon / Hüther, Michael, 2022, Wirtschaftliche Entwicklung durch Rückschritt – zu den Perspektiven der russischen Volkswirtschaft, IW-Report, Nr. 51, Köln, S.11; https://www.iwkoeln.de/studien/simon-gerards-iglesias-michael-huether-wirtschaftliche-entwicklung-durch-rueckschritt-zu-den-perspektiven-der-russischen-volkswirtschaft.html

8- In dieser Summe sind die Sozialabgaben, die in Russland allein von den Arbeitgebern zu .tragen sind, nicht enthalten

9- RBC Research: Russlands größte Steuerzahler; https://www.rbc.ru/economics/15/08/20 .;17/597724fd9a794714c9ac187c

10- RBC Research: Russlands größte Steuerzahler; https://www.rbc.ru/economics/15/08/20 ;17/597724fd9a794714c9ac187c

توصلت دراسة لمؤسسة (ار بي سي) الإعلامية الروسية، على أساس البيانات المذكورة أعلاه عن العبء الضريبي للشركات الروسية، إلى استنتاج مفاده أنه «في عام 2016، زاد العبء الضريبي للشركات الرائدة في الاقتصاد الروسي بشكل كبير. مقارنة بعام 2015، وبلغ 12,9 في المائة، بزيادة قدرها 0,5 في المائة، وهي زيادة حادة للغاية بالنظر إلى أن العبء الضريبي على الاقتصاد ككل وفق دائرة الضرائب الفيدرالية قد انخفض بمقدار 0,1 في المائة، من 9,7 في عام 2015 إلى 9,6 في المائة في 2016. يبدو أن الضغط القوي على الشركات المتوسطة والصغيرة أصبح أخف: إما بشكل مقصود من قبل الحكومة، أو أنها ببساطة غير قادرة على تحصيل المزيد من المدفوعات من قطاع الاقتصاد الشامل خلال الأزمة.

11- https://finanzmarktwelt.de/russland-staatseinnahmen-im-sturzflug-aktuelle-da-/ten-270468

12- طاولة مستديرة نظمها الحزب الشيوعي حول مشكلة تجاوز أزمة النظام القائم في البلاد: https://kprf.ru/dep/gosduma/activities/211335.html

oder auf Deutsch in den Marxistischen Blättern, 1/2023, Wladimir Kaschin, Mobilisiert für die Wiederbelebung des Landes, S. 110-116

«بلغ نمو الإنتاج الصناعي في عام 2021، 5.3 في المائة، مقارنة بالعام السابق، لكن مقارنة بعام 2019 (ما قبل كورونا) كانت نسبة النمو 3,1 في المائة. مقارنة بعام 2019، نما التعدين بنسبة 1,1 في المائة والصناعة التحويلية بنسبة 1,4 في المائة وقطاع الطاقة بنسبة 4,3 في المائة. ولكن حتى هذا النمو المجهري كان مدعومًا بارتفاع أسعار

المنتجين بنسبة 24 في المائة، وتميزت القطاعات التالية بشكل ملحوظ: زادت الصناعات الاستخراجية بنسبة 43,1 في المائة والصناعة التحويلية بنسبة 21,4 في المائة وإنتاج الغذاء بنسبة 15 في المائة. وكذلك «في عام 2017، أنتجت البلاد 307 آلاف محرك احتراق، وفي عام 2020، 294 ألفا فقط. وانخفض إنتاج سيارات نقل الأفراد بمقدار 94 ألفا. وانخفض إنتاج الرافعات بمقدار 177 قطعة في السنة (2019/2020). انخفض إنتاج القاطرات الكهربائية الرئيسية بمقدار 56 وحدة. ومنذ عام 2017، انخفض إنتاج آلات النجارة بمقدار 556 وحدة، بينما انخفض إنتاج آلات الحدادة والضغط بمقدار 426 وحدة. ولا ينتج سوى 14 آلة غزل سنويا». اما الزراعة، وخاصة تربية الحيوانات، فهي أيضا في حالة سيئة. «ويتم حاليا استبدال الاستيراد على الورق فقط. لقد تحولت هذه الفكرة إلى صورة زائفة، حيث استبدلت الواردات من دول معينة بالواردات نفسها من دول أخرى».

13- REPORT – Vladimir Putin's Big Government and the «Politburo 2.0» "https://minchenko.
;ru/netcat_files/File/Big%20Government%20and%20the%20Politburo%202_0.pdf
Politburo 2.0: Renovation instead of dismantling https://www.minchenko.ru/netcat_files/
userfiles/2/Dokumenty/Politburo_2.0_October_2017_ENG.pdf
Der Bericht fußt auf der anonymen Befragung von sechzig hochrangigen Vertretern aus
.Politik und Wirtschaft
https://www.minchenko.ru/netcat_files/userfiles/2/Dokumenty/Politburo_2.0_Octo-
14- ber_2017_ENG.pdf

15- ديمتري ميدفيديف هو نائب رئيس مجلس الأمن. وبصفته رئيس وزراء سابق ورئيسا بديلا مؤقتا للاتحاد الروسي، فهو لا ينتمي إلى السيلوفيكي. في حين أنه اعتاد أن يكون إحدى القوى الأكثر ليبرالية في روسيا، إلا أنه يتولى اليوم، بخطابه المتطرف فيما يتعلق بحرب أوكرانيا وضد الغرب، دور السوط بين قادة البلاد. ويرى بعض المعلقين الروس أن هذه محاولة لتهيئة نفسه للترشح للرئاسة من جديد.

16- ويتعلق هذا، على سبيل المثال، بتقييم موقف السكان الأوكرانيين تجاه الهجوم الوشيك للقوات الروسية على بلادهم، - ومدى قوة مقاومة الجيش الأوكراني ورد فعل الغرب على الهجوم.

17- Sergej Ischtschenko, Russlands Schlachtfeld in der Ukraine ist ein nicht enden wollender
«Sternschnuppenfall» der Generäle
/https://svpressa.ru/war21/article/359934

18- الحرس الوطني هو قوات درك، نظمت كخلف لقوات وزارة الداخلية في عام 2016. وتقدم تقاريرها مباشرة إلى رئيس الجمهورية.

19- Siehe dazu auch den Artikel von Alexander Uralskij: Wagner stirbt außerhalb des Geset–
/zes vom 03.06.2023 in: https://svpressa.ru/war21/article/375110

20- https://www.capital.de/wirtschaft–politik/wagner–gruppe–in–russland––wie–jewgeni–pri–
goschin–millionen–verdient–33248624.html
في عام 2022، تلقت الشركات التابعة ليفغيني بريغوزين وحدها 83,4 مليار روبل من عقود حكومية مدنية في روسيا. وهذا يزيد بمقدار 1,7 مرة عما كان عليه في عام 2021 (48,2 ملياراً) وضعف ما كان عليه في عام 2020 (40,4 ملياراً). نظرا لأن وزارة الدفاع، ومنذ عام 2017، تتمتع بحق في عدم كشف المعلومات المتعلقة بمشتريات الوكالات والشركات التابعة لها، فليس معروفا مقدار ما كسبه رجل الأعمال من الجيش.
https://novaya.media/articles/2023/01/26/lozhechku–za–vagnera
حول جميع أنشطة بريغوزين الاقتصادية:
https://www.svoboda.org/a/vyorstka–prigozhin–za–god–voyny–rezko–uvelichil–dohody–
na–goskontraktah/32261673.html
علاوة على ذلك، فإن بريغوزين مفيد للحكومة الروسية ليس فقط على الجبهة العسكرية، بل أيضًا على جبهة الدعاية. في أوائل عام 2023، اعترف رسميًا بتأسيس وإدارة شركة تيرول آي آر اي (وكالة أبحاث الإنترنت)، بالإضافة إلى دعم وكالة أخرى تسمى «سايبر فرونت زد»
https://www.rbc.ru/technology_and_media/14/02/2023/63ebaac39a7947282a7adc8e

21- https://www.bpb.de/themen/europa/russland–analysen/nr–397/327198/analyse–soeld–
/ner–im–dienst–autoritaerer–staaten–russland–und–china–im–vergleich

22- Kirill Strelnikow, Russland stellt private Armeen in seinen Dienst https://ria.ru/20230329/
armiya–1861391302.html

23- Sergej Ischtschenko, Wagner–Gruppe: Nicht zum ersten Mal trifft die «Artillerie» an der

/russisch-ukrainischen Front die eigenen Leute https://svpressa.ru/war21/article/375384

24- Vera Scherdjewa, Ein Skandal an vorderster Front https://svpressa.ru/war21/artic-/le/370611

25- Kirill Strelnikow, Russland stellt private Armeen in seinen Dienst https://ria.ru/20230329/armiya-1861391302.html

26- https://www.n-tv.de/politik/Ukraine-Schoigu-sendet-eigene-Soeldner-an-die-Front-article23810789.html

27- Freiwillige Einheiten sollen Verträge mit dem Verteidigungsministerium unterzeichnen https://ria.ru/20230610/dobrovoltsy-1877381036.html

28- Sergej Axjonow, Oligarchen – Schaufel in die Hand und Gräben graben. Im Gefolge von Gazprom https://svpressa.ru/war21/article/366793/

29- https://eanews.ru/news/pravitelstvo-rossii-prosit-krupnyy-biznes-podderzhat-sotsial-nyye-proyekty-byudzheta-na-300-milliardov_17-02-2023

30- كان أوليغ ديريباسكا، مؤسس شركة روسال المعنية بالألمنيوم، الأوضح في التعبير عن موقفه. في مؤتمر صحفي عقده في موسكو، في حزيران 2022، وصف الحرب في أوكرانيا بأنها «خطأ فادح». وفي وقت سابق من شباط، دعا ديريباسكا إلى السلام في أوكرانيا. وإلى جانبه، تحدث أيضا الأوليغارشيان ميخائيل فريدمان وأوليغ تينكوف الذي يعيش منذ فترة طويلة خارج البلاد.

https://www.rnd.de/politik/kolossaler-fehler-russischer-oligarch-mit-offener-kritik-an-putins-ukraine-krieg-RRYQADIFMNH7FBOULDDVQB5WTI.html) + (https://www.manager-magazin.de/politik/russlands-oligarchen-wladimir-lissin-kritisiert-ukraine-krieg-heftig-wagit-alekperow-tritt-zurueck-a-518320e3-1c0e-4e57-bbdb-3b214861e77f

وصف فلاديمير ليسين، رئيس مجلس الإدارة والمساهم الرئيسي في شركة «أن ال ام كي» أكبر منتج للصلب، في بيان نشر على موقع الشركة، وأوردته جريدة كوميرسانت في أوائل اذار 2022، وصف ليسين الخسائر في الأرواح بأنها مأساة لا يمكن تبريرها بأي شيء. وأوضح أن مجلس إدارة الشركة يأمل أن ينتهي الصراع قريبًا. وجاء في النداء أن «الحل السلمي والدبلوماسي للنزاعات هو الأفضل دائمًا على العمل العنيف».

https://www.kommersant.ru/doc/5249686

31- Siehe dazu auch den Artikel von Anna Sedowa «Die Öleinnahmen fließen am Haushalt vorbei» in: https://svpressa.ru/economy/article/375112/

32- https://www.spiegel.de/wirtschaft/russland-ukraine-krieg-vermoegen-russischer-milliardaere-wachsen-weider-a-fb54e969-63a4-4988-8bea-93c2e902978a

«وفقًا للنسخة الروسية لمجلة فوربس الأمريكية، فإن ثروات أغنى الروس قد تعافت من صدمة عقوبات عام 2022 وزادت ثرواتهم بما مجموعه 152 مليار دولار خلال الـ 12 شهراً الماضية. وبلغ إجمالي أصولهم 505 مليارات دولار. في حين بلغ في العام الذي سبق الحرب 606 مليارات دولار. لقد كان أداء فاحشي الثراء في روسيا أفضل بكثير مما كان عليه في العام السابق، وان كان ليس بنفس مستوى ما قبل اندلاع الحرب. وفق فوربس يبلغ عدد المليارديرية في روسيا حاليًا 110، أي بزيادة قدرها 22 عن العام الفائت. وستكون القائمة أطول: لكن وفقًا لمجلة فوربس، تخلى خمسة من أصحاب المليارات عن جنسيتهم الروسية. ويجني المليارديرية الروس الجدد ارباحهم في مجالات الوجبات الخفيفة ومحلات السوبر ماركت والبناء. ويبدو أن الطلب المحلي ظل قويا. وقطاع البناء، بدوره، يستفيد من التوسع في الإنفاق الحكومي الروسي.

https://www.spiegel.de/wirtschaft/russland-ukraine-krieg-vermoegen-russischer-milliardaere-wachsen-weider-a-fb54e969-63a4-4988-8bea-93c2e902978a

33- Valentin Katasonow, Was verkaufen wir an Amerika, und was versucht Washington vor der Welt zu verbergen? https://svpressa.ru/economy/article/346297/

يكتب فالنتين كاتازونوف: «للمقارنة، بلغت صادراتنا إلى الولايات المتحدة العام الماضي 16.88 مليار دولار وواردتنا من الولايات المتحدة 17.54 مليار دولار. كانت التجارة متوازنة إلى حد ما». أهم مجموعات السلع الروسية التي صُدرت الى الولايات المتحدة في الفترة (24 شباط – 12 آب هي «الأخشاب وصفائح الخشب « تليها «المعادن» (المعادن الحديدية والألمنيوم والتيتانيوم ومسحوق الصلب، إلخ) و»المواد الغذائية». وفقًا لكاتازونوف، لم يتم ذكر جميع السلع في وسائل الإعلام، مثل: المواد المشعة، أقطاب الكربون والجرافيت، والذخيرة، وأنظمة استخراج النفط، وأنظمة معالجة البيانات، وكابلات الألياف الضوئية، والتوربينات، وما إلى ذلك، يمكن تصنيف بعض السلع على أنها «مهمة من الناحية الاستراتيجية».

34- https://www.euractiv.de/section/eu-aussenpolitik/news/ukraine-kauft-grosse-mengen-/russischer-kraftstoffe-aus-bulgarien

35- تقرير البرافدا عن الطاولة المستديرة التي نظمها الحزب الشيوعي الروسي حول كيفية خروج البلاد من الأزمة.
https://kprf.ru/dep/gosduma/activities/211335.html

36- https://kprf.ru/dep/gosduma/activities/211335.html
قال نائب الرئيس فلاديمير كاشين: «لقد قدمت كتلة الحزب الشيوعي البرلمانية مشروع قانون بشأن «أطفال الحرب» تسع مرات من أجل تحسين وضع هذا الجيل البطولي، لكن كتلة حزب «روسيا الموحدة» الحاكم أعاق تمريره.

37- تصريح يوري أفونين لجريدة سوبودنيا: إذا استمرت الرأسمالية الأوليغارشية، فلن تتمكن روسيا من مواجهة تحديات العصر الصعبة.
https://kprf.ru/party-live/cknews/217992.html

38- Andrej Polunin, Gennadi Sjuganow: Putin hat zugegeben, dass an der Idee des Sozialis-/mus nichts falsch ist https://svpressa.ru/politic/article/339681

39- https://svpressa.ru/politic/article/339681

40-انظر الملاحظة رقم 37

41-العالم الروسي: يمثل «العالم الروسي» خريطة ذهنية منتشرة. إنّ الطابع المنتشر بالتحديد هو الذي يمنح هذا المفهوم المرونة في توظيفه بشكل مختلف وحسب الظروف. تم تطوير هذا المفهوم في النصف الثاني من التسعينيات من قبل مجموعة من السياسيين والفلاسفة. اعتمد على فلاسفة القرن التاسع عشر الروس الذين قدموا روسيا على أنها حضارة فريدة من نوعها. تعاملت قيادة الكرملين، مع هذا المفهوم في البداية بتردد. ذكره الرئيس بوتين لأول مرة في عام 2001 قبل المؤتمر العالمي الأول لمواطنيه في الخارج: «يمتد مفهوم العالم الروسي إلى ما هو أبعد من الحدود الجغرافية لروسيا وأيضًا إلى ما هو أبعد من حدود العرق الروسي». ويعد إجابة على عمليات العولمة التي تهدد الثقافة القومية والهويات وحالة البحث عن الهوية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي». (اوفا هالباخ، الكنيسة والدولة.
https://www.swp-berlin.org/10.18449/2019S08

42-العمود الفقري الروسي للسلطة. مقال بقلم جينادي زيوغانوف، رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي. الجزء الأول
https://www.rline.tv/news/2020-05-14-russkiy-sterzhen-derzhavy-statya-predseda-/-telya-tsk-kprf-gennadiya-zyuganova-chast-i

43-قال زيغانوف إن كل ثالث عضو في الحزب الشيوعي الروسي مؤمن اليوم
https://ria.ru/20131101/974176616.html

44-زيوغانوف يتلقى التهاني من البطريرك كيريل. منحت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية وسام الشرف والمجد لرئيس الحزب الشيوعي الروسي
https://kprf.ru/party-live/cknews/132472.html

45-انظر الملاحظة 42
https://www.rline.tv/news/2020-05-14-russkiy-sterzhen-derzhavy-statya-predseda-/-telya-tsk-kprf-gennadiya-zyuganova-chast-i

46- W.S. Nikitin: «Bringen wir den russischen Geist, die Völkerfreundschaft und den Sozia-lismus nach Russland zurück». https://kprf.ru/rusk/217845.html
نظمت كتلة الحزب الشيوعي في دوما الدولة و»الحركة الإبداعية لعموم روسيا روسكي لاد» طاولة مستديرة في 5 نيسان 2021 حول موضوع «الفكرة الروسية الأوراسية عن حضارة الأمير ألكسندر نيفسكي وأهميتها لروسيا اليوم». تم تطوير المطالب خلالها، ويتم تناول إمكانية تحقيقها هنا.
جميع وثائق هذه الفعالية يمكن الحصول عليها على الرابط أدناه
https://kprf.ru/m/att/2021/05/3cac8d_kruglyistol.pdf

47- Sergej Udalzow: Patriotische Slogans und eine rechte Diktatur in Russland /https://svpressa.ru/blogs/article/360686
:Zur Linksfront vgl. auch
https://laender-analysen.de/russland-analysen/424/die-linke-in-russland-und-der-/krieg-in-der-ukraine

حوارات

الثقافة الجديدة تحاور الأستاذ أحمد الديين

حاوره: سوران قحطان

مواليد الكويت 1950، قيادي في الحركة التقدمية الكويتية، وأحد مؤسسيها وأمينها العام السابق. الإمين العام السابق للمنبر الديموقراطي الكويتي. أحد مؤسسي اللقاء اليساري العربي في بيروت عام 2010. كاتب سياسي وصحفي معروف، عمل ونشر في الكثير من الصحف منها: العامل، الوطن، الطليعة، الرأي، عالم اليوم.

مؤلفاته: المسار الديموقراطي في الكويت، الكويت، 1994؛ ولادة دستور الكويت، الكويت، 1996؛ السلف والخلف في وراثة العروش، الكويت، 2005؛ الديموقراطية في الكويت: مسارها، واقعها، تحدياتها وآفاقها، الكويت، 2005؛ أيام في ظفار، الكويت، 2021؛ أحاديث حول الاشتراكية وأزمة الرأسمالية، الكويت، 2021، وأحداث ووجوه من الذاكرة، 2021.

الثقافة الجديدة: يتفق الكثير من الباحثين والمتابعين على ان المنظومة الرأسمالية تجيش حاليا بتحديات مرحلية كثيرة. هي في نهاية المطاف انعكاس لتحولات جوانية في آليات اشتغال المنظومة ذاتها. كما ان تجلياتها الأبرز ما هي الا إرهاصات ونذر لأبعاد تطورها

اللاحقة.
قبل ان نخوض في هذه المسائل، هناك قضية منهجية ضرورية يجب التوقف عندها.
وهي الحاجة الى منظومة فكرية قادرة لا على الإحاطة بالأسباب الحقيقية لنشوء هذه التحديات والصراعات وتحديد ارتباطاتها وتفاعلاتها المختلفة فقط، وانما أيضا على تحديد الإمكانيات اللاحقة لاشتغال المنظومة. وذلك لأن السطحية في التعبير، واللادقة والغموض في التحليل والتفسير، السائدة مع الأسف، تؤدي كلها الى ارتباك وتشوش في الفهم. بل وقد تسمح - عمدا في بعض الأحيان الى المراوغة والتملص من الإجابة على الأسئلة المركزية.
في كتاباتكم تتحدثون عن "راهنية الماركسية". فهل ما زالت الماركسية قادرة على لعب هذا الدور المنهجي في معرفة وتحليل وتفسير الواقع؟ وما هو المقصود بهذه الـ "راهنية"؟ وأيضا عن أي ماركسية نتحدث؟ هل ما كتبه ماركس في ابحاثه المتنوعة واستنتاجاته صالح لكل زمان ومكان برغم تغيير الواقع وحركته الدائمة؟ وهذا السؤال ينطبق كذلك على الماركسيين الاخرين أيضا؟ ما هو الشيء الجوهري لتكون للماركسية هذه الـ"راهنية"؟ هل لك ان تتوقف امام هذه القضية بشيء من التفصيل.

أحمد الديين: عند الحديث عن "راهنية الماركسية" لا بد من الانطلاق من أنّ ظهور الماركسية بالأساس وتطورها ارتبطا بوجود النظام الرأسمالي وتطوره، فالرأسمالية هي الأساس الموضوعي الذي أوجد الماركسية، التي تمثّل مشروعاً ثورياً تاريخياً بديلاً معنياً بنقد الرأسمالية وتحليل اتجاهات تطورها وأشكال تحوّلها من جهة، مثلما هو معني من جهة أخرى بالنضال من أجل تجاوزها، وهذا المشروع مستمر وله راهنيته.
وبالتالي ما دامت هناك رأسمالية، فهناك ماركسية... وما دام هناك استغلال طبقي فهناك مكانة للماركسية... وما دامت هناك طبقة عاملة فهناك راهنية للماركسية... وما دامت هناك مهمة قائمة لتجاوز الرأسمالية عبر الاشتراكية فهناك ماركسية.
وبالتأكيد فإنّ أزمة الرأسمالية الآخذة في التفاقم والاتساع على نحو غير مسبوق تمثّل أحد أهم عناصر راهنية الماركسية كمشروع ثوري تاريخي بديل... أزمة الرأسمالية محتدمة اليوم على مستوى تشديد الاستغلال الطبقي، وعلى مستوى اتساع الفقر والبطالة جراء موجات الغلاء والتضخم وانخفاض الأجور والمعاشات التقاعدية، أو عبر موجات اللاجئين والمهاجرين المستجيرين من رمضاء الأطراف الكولونيالية التابعة بنار المركز الإمبريالي، أو مظاهر البؤس والمعاناة الناجمة عن الخصخصة وتسليع الصحة والتعليم.
وما تعانيه الرأسمالية العالمية ليس مجرد أزمة دورية عابرة، وإنما هي أزمة عامة، وهذه الأزمة على الرغم من محاولات الرأسمالية إطالة عمرها وتجديد نفسها، إلا أنّها يمكن أن تتحول إلى أزمة نهائية عندما يتوافر العامل الذاتي للتعامل مع الظرف الموضوعي الآخذ في النضوج باتجاه انهيار النظام الرأسمالي.
وعلينا أن نلاحظ أنّ الرأسمالية لا تستطيع الخروج من أزمتها الحالية بالطريقة ذاتها التي خرجت فيها من أزماتها السابقة في القرن العشرين من خلال تصدير الأزمة إلى الخارج بالقوة والاستيلاء على مناطق نفوذ جديدة وإعادة تقاسمها في ما بينها، ذلك أنّه إذا استثنينا

مع بعض التحفّظ ما بقي من بلدان "اشتراكية" مثل الصين وكوبا وكوريا الشمالية وفيتنام، فإنّ هذا التوسع الرأسمالي جغرافياً لم يعد قائماً أو متاحاً بعد استيلاء الرأسمالية على غالبية أرجاء الأرض عقب إسقاط الاتحاد السوفياتي وبلدان وسط وشرقي أوروبا "الاشتراكية" السابقة، وبلغ مستوى الاستغلال الرأسمالي للشعوب وما نجم عنه من أزمات الجوع والمناخ والمياه والطاقة درجة تهدد إعادة إنتاج الجنس البشري، فيما تحوّلت أزمة فيض الانتاج إلى أزمة فيض إنتاج المال والسلاح، حيث لا يمكن التخلص منهما بالسهولة ذاتها التي تم فيها التخلص من فيض البضائع، ما يعني أنّ تناقضات الرأسمالية تفاقمت بحيث يصعب عليها تجاوز أزمتها.

كما تجلت التناقضات البنيوية الصارخة للرأسمالية في طغيان قطاع المال وفقاعاته، وقطاعات الاقتصاد غير الفعلي على قطاعات الاقتصادات الفعلية، وتعاظم الدَين واستمرار تقلّص الفواصل الزمنية بين دورات الأزمات العامة، ما يعبّر عن تفاقم التناقض الرئيسي بين العمل ورأس المال، وبين الطابع الاجتماعي المتزايد للعمل وطبيعة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ويكشف حقيقة أنّ الرأسمالية آيلة إلى زوال بوصفها نظاماً قائماً على الاستغلال الطبقي والظلم الاجتماعي وإخضاع الشعوب وإفقارها ونهب ثرواتها وتدمير البيئة وخلق التوترات وتأجيج الصراعات وافتعال الحروب لهثاً وراء تعظيم الأرباح وتكوين الثروات وتراكمها وتمركز رأس المال... فالرأسمالية نظام اجتماعي استغلالي يتفسخ، وذلك على الرغم من محاولاتها للمراوغة التاريخية وتأجيل نهايتها المحتومة... فماذا يمكن أن يكون أكثر من ذلك لتأكيد راهنية الماركسية كمشروع ثوري تاريخي بديل.

وبالطبع فإنّ قولنا براهنية الماركسية لا يعني تجاهلنا لحقيقة أنّ هناك عناصر في الماركسية عفا عليها الزمن، إلى جانب العناصر الحيّة القابلة للتطور فيها... وفي تراثنا الماركسي سبق لكارل ماركس نفسه ورفيقه فريديك انجلز أن كتبا في مقدمة الطبعة الألمانية لعام 1872 من "البيان الشيوعي"، التي صدرت بعد مرور نحو ربع قرن على أول طبعة له: "لقد شاخ هذا البرنامج اليوم في بعض نقاطه، نظراً للرقي العظيم في الصناعة الكبرى خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة وما رافق هذا الرقي من تقدم الطبقة العاملة في تنظيمها الحزبي، ونظراً للتجارب الواقعية..."، ولكنهما في الفقرة السابقة على تلك الفقرة تحديداً كتبا أنه "رغم ان الظروف تبدلت كثيراً خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، فالمبادئ العامة الواردة في هذا البيان لا تزال بالإجمال محافظة حتى اليوم على كل صحتها، وإن كان يجب إدخال بعض التعديل على عدد من الفقرات".

نعم، لقد شاخت بعض النصوص، وربما شاخت بعض التحليلات والاستنتاجات والتصورات، التي توصل إليها كارل ماركس عند بحث هذا الموضوع أو ذاك، ولكن الذي لا يزال راهناً من الماركسية هو منهجها في الجدل المادي، وهو الأساس في النظر إلى الواقع وتفسيره، والأساس في النضال من أجل تغيير هذا الواقع المتغيّر.

فلا يزال "البيان الشيوعي" الذي كتبه ماركس وانجلز في العام 1848 مفيداً للقارئ في عصرنا الحاضر، وكذلك مؤلفه الأضخم "رأس المال"، الذي قدم تحليلاً دقيقاً لنمط الإنتاج الرأسمالي والمجتمع الرأسمالي في

مواجهة الأنماط السابقة عليه، حيث لا تزال الماركسية، والماركسية فقط، هي أفضل أدوات تقديم تصور سليم لمسيرة الرأسمالية في خطوطها العامة، مثلما كتب سمير أمين، وهو الذي لم يكتشف طبيعتها الاستغلالية فحسب، وإنما كشف تناقضاتها ودحض أزليتها وحدد عناصر فنائها بوصفها حقبة تاريخية عابرة.

صحيح أنّ مفهوم ديكتاتورية البروليتاريا على سبيل المثال شاخ وأصبح ملتبساً، ولكنه شاخ كمصطلح فيما لا يزال قائماً كمتطلب لبناء الاشتراكية، التي لا يمكن بناؤها من دون وجود سلطة سياسية تسيطر عليها قوى الشعب العامل.

وصحيح، أنّ هناك تحولات مست طبيعة العمل والطبقة العاملة، ولكن هل انتهى العمل؟ وهل زالت الطبقة العاملة من الوجود؟

وصحيح أنّ أنواع التناقضات قد تنوعت في أهميتها مثل التناقض بين الطبيعة والمجتمع البشري، وهو تناقض رئيسي كان موجوداً قبل التناقض الطبقي وسيستمر بعده، أو التناقض الجندري، ولكن هذا لا يمكن أن ينفي حقيقة أنّ التناقض الأساسي في ظل الرأسمالية وغيرها من الأنظمة الطبقية كان ولا يزال هو التناقض الطبقي.

وعلى نحو تفصيلي ملموس يمكن الوقوف أمام بعض تجليات راهنية الماركسية، التي تتمثّل في وجود أحزاب شيوعية وعمالية تتبنى الماركسية، وكذلك من تجليات راهنية الماركسية ما نلمسه من اتساع لقاعدة القوى التي تتبناها وتستلهمها، وبينها قوى جديدة وعديدة من خارج الأحزاب الشيوعية والعمالية مثل: المجموعات النسوية التقدمية، والمناضلين من أجل البيئة، وعدد من الحركات الاجتماعية المناهضة للرأسمالية والإمبريالية والسياسات النيوليبرالية، وحركات السكان الأصليين في بعض البلدان، والحركات القومية والوطنية التي اتجهت نحو تبني الماركسية واستلهامها... والتجلي الثالث لراهنية الماركسية يبرز على مستوى ارتباط العلوم الحديثة الطبيعية والاجتماعية، مثل علم الاجتماع والاقتصاد السياسي، والتاريخ بالماركسية.

الثقافة الجديدة: كما ذكرنا سابقا، تجيش المنظومة الرأسمالية في تطوراتها الحالية، وعلى مختلف اصعدتها، بتحديات وصراعات مرحلية كثيرة.

ربما الأبرز منها يقع على الصعيد السياسي العام. فهناك محاولات جدية لإعادة توزيع النفوذ والادوار القيادية داخل النظام الدولي، تقترن بتراجع ملحوظ للقطبية الواحدة. وعلى الصعيد الاقتصادي، تطفو على السطح حاليا ومنذ مدة تنبؤات بركود اقتصادي ربما سيكون طويل الامد نسبيا. ركود مقترن بارتفاع أسعار الطاقة وتكاليف الإنتاج، وبمشاكل التضخم والتأثيرات الموجعة اقتصاديا واجتماعيا للسياسات النقدية المتشددة لمواجهته.

أما على الصعيد الاجتماعي، فترتد وتجتمع كل هذه التحديات والمصاعب بصورة مكثفة، من خلال أثرها الكبير على ارتفاع تكاليف المعيشة، ومن خلال تكثيف الهجوم على المكتسبات والمزايا الاجتماعية للكادحين وذوي الدخول المنخفضة، وارتفاع مستويات الهجرة وتفاقم التعصب...الخ. طبعا، لا نحتاج الى الاستطراد ان تأثير هذه التحديات في بلدان الأطراف هو اشد وطئا وبؤسا وخطورة.

أستاذ احمد، إنّ خطوط اللوحة تشتبك وتضيع معالمها حتى عند السياسي المتابع والمطلع، فكيف بالقارئ البسيط. فهل لك ان تحدد لقرائنا،

من وجهة نظركم، الملامح العامة للمرحلة الحالية من تطور المنظومة الرأسمالية على اصعدتها المتفاعلة المختلفة؟

أحمد الديين: إذا أردنا تحديد ملامح مستجدات الوضع الدولي فسيبرز أمامنا أولاً وقبل كل شيء تفاقم أزمة الرأسمالية، التي لم تعد، كما كانت، مجرد تكرار للأزمة الدورية للرواج والكساد...
وتبرز أمامنا معها حالة التضعضع والتراجع النسبيين للقوة الإمبريالية المهيمنة وتبدل موازين القوى جراء أفول عهد القطب الواحد وبروز ظاهرة الدول الصاعدة ومنظوماتُ بريكس وشنغهاي وأستانا، وكذلك تضعضع هيمنة الدولار، حيث لم تعد الإمبريالية مطلقة اليد في فرض أهدافها وهيمنتها، وهناك في مواجهة هجومها مقاومة شعبية واجتماعية تقوم بها الشعوب وقوى اليسار، وهناك انتقال من الأحاديّة القطبيّة نحو تعدد القطبيّة... ويبرز أمامنا ثالثاً اشتداد الميل في الاندفاع نحو العدوانية والحروب والعسكرة... وتبرز أمامنا رابعاً تحديات ذات طابع دولي تتمثّل في الفقر والتفاوت الطبقي وتغير المناخ والأوبئة والتغذية وإمدادات المياه وأمن الطاقة والعولمة الرأسمالية المتوحشة... ويبرز أمامنا خامساً مأزق "الديمقراطية البرجوازية" جراء العزوف الواسع لغالبية المواطنين في بلدان المراكز الإمبريالية عن المشاركة في الانتخابات، الذي يكاد يبلغ مستوى المقاطعة، ومن جانب آخر سيطرة الأحزاب والشخصيات اليمينية الشعبوية على عدد من حكومات الدول الرأسمالية الكبرى، وهي أحزاب وشخصيات ذات نزعات فاشية وعنصرية.

الثقافة الجديدة: بالطبع، لا يمكن إدراك معالم اللوحة المرحلية لتطور المنظومة الرأسمالية، التي رسمتَ لنا أعلاه خطوط ملامحها الأبرز، بصورة أوضح، الا إذا وضعناها على خلفيتها العامة: تفاقم أزمة البيئة والتغير المناخي وقضايا التحول نحو الطاقة النظيفة؛ التطورات التكنولوجية المتسارعة - الذكاء الاصطناعي على سبيل المثال لا الحصر- والصراعات على آليات إدراجها في البنية الاقتصادية، وغيرها الكثير.
كما هو معروف، ان اللوحة بمجملها، بتحدياتها وصراعاتها المختلفة، بتفاعلاتها المعقدة، بخلفيتها البيئية والتكنولوجية، هي في نهاية المطاف انعكاس لتحولات جوانية في آليات اشتغال المنظومة الرأسمالية. ومجمل عملية التفاعل سيفتح الأبواب مشرعة امام إمكانيات متعددة، بعضها شديد الخطورة.
أستاذ احمد، هل لك ان تحدد لنا، من وجهة نظركم، ما هي أبرز هذه التحولات الجوانية؟ وارتباطها وتفاعلها مع ازمة البيئة والمناخ والتطورات التكنلوجية؟ وما هي الابعاد القادمة لهذه التطورات؟

أحمد الديين: حسناً، سأحاول التوقف أمام عنواني الأزمة البيئية والذكاء الاصطناعي الواردين في السؤال... هذان العنوانان لا يمكن النظر إليهما بمعزل عن النظام الرأسمالي وتناقضاته وتطوره والتحديات التي يواجهها وأزمته، وكذلك فإنّ مستقبلهما والسيطرة عليهما مرتبط بمستقبل البديل الاشتراكي.
أزمة البيئة كانت توصيفاً صحيحاً في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، ولكن هذه الأزمة اليوم أصبحت تقف على مشارف كارثة بيئية عالمية يمكن أن تشكّل

تهديداً وجودياً للبشر، وذلك جراء الاستغلال الرأسمالي البشع ليس لقوة العمل فحسب، بل الاستغلال البشع الذي تتعرض له الطبيعة... فالركض وراء الأرباح وتعظيمها يدفع بالتقدم العلمي ليس نحو استخدام الطبيعة فحسب، وإنما يفتح الأبواب على مصاريعها نحو أبشع أنواع الاستغلال الرأسمالي المنفلت والمسرف للطبيعة، ما أدى لتسريع ظواهر الاحتباس الحراري والتبدلات المناخية، وللانقراض المتسارع للعديد من الأنواع، وأدى إلى استنزاف النفط والغاز والانبعاثات الكربونية الملوثة والتصحر وتدمير الغابات وتلوث المياه وثقب الأوزون، الذي تم تداركه.

وللأسف، فإننا نحن الشيوعيين لم نلتفت بما يكفي في العقود الماضية للأزمة البيئية التي تتحوّل إلى كارثة بيئية، مع أنّ ماركس أوضح مبكراً في "نقد برنامج غوتا" الصلة أو الوحدة الجدلية بين العمل والطبيعة أي بين البشر والطبيعة وأنّ الرأسمالية لا تستغل قوة العمل فحسب، وإنما الطبيعة أيضاً... ولعلّه حان الوقت لإدماج النضال البيئي ضمن الصراع الطبقي والتصدي للاستغلال الرأسمالي المزدوج للإنسان والطبيعة، والتركيز على دور الاحتكارات الرأسمالية ومسؤولية الحكومات في البلدان الإمبريالية في دفع الأزمة البيئية نحو مشارف الكارثة البيئية، وهو ما يحدث فعلا في عدد من الحركات الشعبية في أمريكا اللاتينية مثلاً، وحان الوقت لفضح قصور ومحدودية أثر مؤتمرات البيئة، التي تنظمها الأمم المتحدة منذ العام 1979.

أما الذكاء الاصطناعي فإنه أحد مظاهر التطور المتسارع والمتناقض لقوى الإنتاج في ظل النظام الرأسمالي، وما تنطوي عليه من انعكاسات على العمل ووقت العمل وحجم العمالة المستخدمة ودور الطبقة العاملة في الانتاج، وكذلك ستنعكس على احتدام تناقضات النظام الرأسمالي وخصوصاً بين التطور المتسارع لقوى الإنتاج وثبات علاقات الإنتاج واستحقاقات تغييرها، بالإضافة إلى ما تشكّله من تحديات وأزمة أخلاقية.

وسواء كنا نتحدث عن الكارثة البيئية المحدقة أو تحديات الذكاء الاصطناعي فإنّه لا يمكن حلّ تناقضاتهما في ظل النظام الرأسمالي، وهذا ما يفرض البديل الاشتراكي لضمان استمرار الوحدة الجدلية بين البشر والطبيعة ومعالجة التناقض بين التطور المتسارع لقوى الإنتاج وتغيير علاقات الإنتاج.

الثقافة الجديدة: بالطبع، لا تتكون المنظومة الرأسمالية من بلدان المركز فقط، فلا أحد ينسى كونها وحدة متناقضة ومتصارعة مع بلدان الأطراف/ البلدان التابعة. وبالرغم من اننا يجب ان لا نتغافل عن كون أنّ الأخيرة ليست على مستوى تطور واحد، وبالتالي، فإن الصراعات والتناقضات في ما بينها كثيرة. وهو ما يزيد المشهد تعقيدا. ولكن عموما، نستطيع القول إنّ تأثير هذه التحديات والصراعات الحالية على دول الأطراف، خصوصا تلك الهامشية منها اشد وطئا وكثافة: حروب، استبداد، بطالة، تهميش، مجاعة، تزايد عدد السكان وأخيرا وليس آخرا الهجرة خصوصا الهجرة غير الشرعية بمآسيها وضحاياها.

هل لك أستاذ احمد ان تقدم لنا قراءتك للإمكانيات المفتوحة، آليات النضال الملموسة، امام القوى والأحزاب الاشتراكية واليسارية في هذه البلدان للنضال لا من أجل احداث التغيير المنشود في بلدانها فحسب، من ديمقراطية حقيقية وعدالة اجتماعية، وانما ان تساهم أيضا

في اعادة تجميع القوى والتنظيمات اليسارية العالمية، في بلدان المركز والأطراف، وتوحيد كلمتها سعيا نحو البديل المطلوب.

أحمد الديين: إجمالاً يمكن القول إنّه في بلدان الأطراف، أو البلدان التابعة والخاضعة للهيمنة الإمبريالية عموماً، وضمنها بلداننا العربية على نحو أخص، فقد تكرّست خلال السنوات الأخيرة علاقات التبعية عبر إحكام هيمنة البنى المسيطرة في المراكز الإمبريالية وتبعية البنى الرأسمالية الكمبرادورية في بلدان الأطراف ذات التكوين الريعي والدور الوظيفي المتخلف في إطار التقسيم الدولي الرأسمالي للعمل الموجه لخدمة متطلبات تجديد الانتاج في المراكز، وعبر الأنظمة السياسية التابعة بحكم ارتباطاتها ومصالحها الطبقية، بالإضافة إلى سياسات وممارسات التحكّم الإمبريالي بالاقتصاد والسياسة والأمن والثقافة في البلدان التابعة.

ومع نهايات القرن الفائت، القرن العشرين وبدايات القرن الحالي، القرن الحادي والعشرين نجد أنّ المركز الإمبريالي قد حرص على فرض النيوليبرالية في البلدان التابعة لتكريس سيطرته، وذلك بالترافق مع العدوان العسكري والحروب والتدخل الأجنبي في عدد ليس قليلا منها، بحيث يتم استكمال تفكيك ما هو قائم من دور اقتصادي للدولة في بلدان الأطراف أو البلدان التابعة وما ارتبط بذلك من نهب منظم لمواردها ومقدراتها وإفقار لشعوبها، وإفساد للجهاز المدني للدولة وتعزيز سطوة الاستبداد السياسي، بل حتى تصفية الجهاز العسكري للدولة.

كما سعى المركز الإمبريالي، وخصوصاً في منطقتنا إلى استخدام القوى الرجعية الدينية والطائفية لتخليف مجتمعاتنا وتفتيتها وإلهائها عن الصراع الرئيسي مع الإمبريالية وركائزها المحلية في صراعات وهمية، إلى جانب التآمر عبر إفساح المجال أمام النمو السرطاني للقوى الإرهابية في مجتمعاتنا بعد سنوات من التسعير المتعمد لما يسمى "الإسلامفوبيا"، هذا إلى جانب ما يمثله الكيان الصهيوني العنصري العدواني من تحديات وضغوط بوصفه القاعدة المتقدمة للسيطرة الإمبريالية في المنطقة.

والواقع اليوم في غالبية الدول التابعة، وضمنها بلداننا العربية هو واقع مأساوي حيث انسد أفق التنمية والتقدم في ظل علاقات التبعية؛ وسطوة الأنظمة التابعة؛ وتخلف البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، واتسعت بشكل غير مسبوق أشكال النهب المنظم لمقدرات البلدان التابعة ولمواردها الوطنية وثرواتها الطبيعية، وتعمّقت على نحو غير مسبوق الأزمة الاقتصادية والمعيشية العميقة كما هي الحال في لبنان ومصر، إلى جانب ضعف الانتاجية وانتشار البطالة، واستشرت العصبيات واشتعلت النزاعات والحروب الداخلية في عدد من بلداننا العربية، كما في سوريا وليبيا والسودان... وفي المقابل نلاحظ فشل الموجة الأولى من الثورات والانتفاضات الشعبية العربية، التي اندلعت في بدايات العقد الثاني من القرن الحالي، وذلك جراء غياب القيادة الثورية واختراقات قوى الثورة المضادة والتدخلات الإمبريالية والرجعية.

أمام مثل هذا الواقع الصعب والمعقد والمتناقض والمأزوم الذي تعيشه بلداننا العربية، وغالبية البلدان التابعة، لا بديل أمام شعوبنا وحركاتنا التحررية ويسارنا وأحزابنا الشيوعية غير النضال لتجاوز هذا الواقع وتغييره واستكمال مهام التحرر الوطني، وتحقق الثورة الوطنية

الديمقراطية بأفق اشتراكي، وذلك من خلال محاور النضال الاتية:

1 - تفكيك وكسر علاقات التبعية وصولاً إلى تصفيتها.

2 - تفكيك أنظمة الاستبداد والتبعية والتخلف والفساد عبر انتزاع مكاسب ديمقراطية وصولاً إلى إقامة أنظمة حكم وطنية ديمقراطية عادلة اجتماعياً.

3 - صيانة الاستقلال السياسي، والنضال من أجل تحقيق الاستقلال الاقتصادي.

4 - الدفع نحو اختيار طريق التنمية المستقلة للقضاء على علاقات التخلف والتبعية وبناء اقتصادات منتجة، وعلاقات اقتصادية متكافئة مع الخارج من خلال توثيق علاقات التبادل مع الدول الصاعدة والمتحررة.

5 - وعلى المستوى العربي تبرز مهمة رفض الكيان الصهيوني وليس فقط رفض التطبيع معه، والمشاركة في المقاومة ودعمها والتعامل مع القضية الفلسطينية بوصفها قضية كل قوى حركة التحرر العربية، والتوصل إلى أشكال من التضامن والوحدة الكفاحية بين قوى التحرر والقوى الشعبية العربية، ووضع أسس لتعاون واتحاد بين البلدان العربية المتحررة على أسس ديمقراطية وبعيداً عن الضم والإلحاق.

لكن، لنكن صريحين، فإنّ قوى التحرر والتغيير، وبينها قوى اليسار وأحزابنا الشيوعية خصوصاً في منطقتنا العربية تعاني هي الأخرى من أزمة على مستوى القيادة والفكر والسياسة والتنظيم وأساليب النضال وضعف الصلة مع الجماهير، وعليها أن تجري مراجعات نقدية جريئة وجديّة في صفوفها والعمل على تجاوز أزمتها وتهيئة أوضاعها الذاتية لتتناسب مع الواقع الموضوعي والعملية التاريخية اللذين يتشكلان في عالمنا جراء تفاقم أزمة النظام الرأسمالي واحتدام تناقضاته في المركز والأطراف.

الثقافة الجديدة: أستاذ احمد، كيف ترى إمكانية استخدام النفط والغاز، هذه الثروة الناضبة، في إحداث نمو حقيقي في البلدان المصدرة، بعيدا عن التفرد والاستبداد والحروب. خصوصا وهي ثروة ناضبة ليس فقط بانتهاء المخزون منها؛ وانما ناضبة أيضا بسبب انتفاء الحاجة إليها. فإذا ما استمرت الأوضاع على ماهي عليه الآن، فإن السيناريو الأخير يبدو أكثر ترجيحا.

والاهم ما هو رأيك بأزمة النفط والغاز، كأزمة ''أخلاقية'' ان جاز التعبير؟ وذلك باعتبار ان الصراع من اجل مستقبل الانسان، بل وجوده كإنسان، مرتبط بتوفير بيئة صالحة وغير ملوثة له وللأجيال القادمة هي قضية اخلاق بكل ما في الكلمة من معنى. وما هو الدور الذي يمكن ان تلعبه قوى اليسار في البلدان المنتجة للنفط بهذا الخصوص؟

أحمد الديين: نعم، النفط والغاز مصدرا طاقة معرضان للنضوب، إما بفعل الاستنزاف أو بفعل ''النضوب التقني'' في حال إنتاج طاقة بديلة بكلفة مناسبة... وهذا يمثّل تحدياً وجودياً للدول المعتمدة على تصدير النفط والغاز، خصوصاً ذات الاقتصاد الأحادي كالكويت ومعظم بلدان الخليج العربي.

ومثلما هو معروف فإنّ النفط والغاز في بلداننا هو الأساس الذي ارتكز عليه التطور الرأسمالي المشوّه والتابع لبلادنا منذ نهاية أربعينيات القرن العشرين، وكذلك في بلدان الخليج العربي الأخرى خلال عقود متقاربة ما أوجد بنية اقتصادية ريعية ذات مورد أحادي

مرتبطة تبعياً بالنظام الرأسمالي العالمي حيث تؤدي وظيفة متخلفة في إطار التقسيم الدولي للعمل تتمثل في تصدير النفط الخام والغاز.

ولنتوقف هنا قليلاً أمام الاقتصاد الريعي والدولة الريعية المرتبطين بالاعتماد على النفط في بلداننا الخليجية، وكذلك هي الحال في العراق، ولننظر إليهما نظرة جدلية، ذلك أنهما ينطويان على اتجاهات متناقضة، بعضها سلبي نعم، ولكن بعضها الآخر قد يكون ايجابياً... السلبي في الاقتصاد الريعي والدولة الريعية هو استقلالية الدولة نسبياً عن المجتمع عبر هيمنتها على الريع وبالتالي يكون المجتمع ضعيفاً أمام الدولة، فالناس ما داموا خارج دائرة الفعل الاقتصادي فهم في الغالب خارج دائرة الفعل السياسي، وهذا ما يغذي الاتجاهات الاستبدادية لدى السلطة... والسلبي أيضاً هو انخراط المجتمع في استهلاك الريع وتوزيعه وليس انتاجه، ما يؤدي إلى إهمال القطاعات الإنتاجية والتركيز على الاستيراد وتعزيز قيم المجتمع الاستهلاكي والموقف السلبي تجاه العمل المنتج... أما الإيجابي فهو توفر موارد يمكن في حال حسن استخدامها أن تدفع باتجاه تطوير الدولة والخدمات العامة وتحسين مستوى معيشة المواطنين... وكذلك قد تكون من النتائج الإيجابية للريع النفطي دوره بالتعجيل في بناء قطاع رأسمالية الدولة....

وبالطبع فإنّ هذه الاتجاهات المتناقضة تتحدد وفق الطبيعة الطبقية للسلطة والقوى الاجتماعية الممسكة بزمامها في هذه البلدان ومدى تبعيتها للإمبريالية أو تحررها من التبعية.

وفي الكويت وبلدان الخليج نلحظ اختلال توازن البنية الاقتصادية لصالح القطاعات غير المنتجة، والتطور الأحادي الجانب للاقتصاد، وإعاقة نمو وتطور القوى المنتجة المادية والبشرية وتكريس تخلفها، وهناك تضخم لافت في الإنفاق الحكومي مرتبط بسياسة غير عادلة لتوزيع الدخل والتصرف بالثروة الوطنية. وهذا ما أدى إلى إهدار جانب كبير من هذه الثروة وتنامي فئات طفيلية لا تقوم بأية وظيفة اجتماعية مفيدة، ونمو رأس المال المالي والربوي واتساع عمليات المضاربة والسمسرة، وضعف ارتباط القطاع المصرفي بالاستثمار الإنتاجي، وهيمنة القطاعات غير الإنتاجية كالخدمات والتجارة.

وعلينا أن ننتبه إلى أنّ أزمة الاقتصاد الريعي التابع ليست أزمة وقتية عابرة يمكن تجاوزها عبر الارتفاعات التي تطرأ على أسعار النفط، وإنما هي أزمة بنيوية عميقة وهي مرشحة للتفاقم أكثر فأكثر مع مرور السنوات، في ظل تحكّم المصالح الرأسمالية الطفيلية لأطراف الحلف الطبقي المسيطر وارتباطاته التبعية بالإمبريالية، والأهم من ذلك هو عجز هذا النمط من الاقتصاد الريعي التابع عن تحقيق التنمية، حيث لا مصلحة تربط القوى المسيطرة بتحقيق التنمية ما دامت هذه القوى قادرة على الاستيلاء على الجزء الأكبر من الثروة الوطنية عبر النشاطات الطفيلية والتنفيع والارتباط التبعي بالإمبريالية، ولهذا أصبح واضحاً ذلك الفشل الذريع في الادعاءات الحكومية بشأن التنمية؛ وعدم الجدية في تنويع مصادر الدخل.

وفي مواجهة هذا الواقع فإنّ الحركة الوطنية عموماً، وفي مقدمتها اليسار الخليجي مثل الحركة التقدمية الكويتية والمنبر التقدمي في البحرين تناضل من أجل انتهاج توجه اقتصادي وطني بديل يستهدف بناء اقتصاد وطني منتج ومتطور ومستقل لمعالجة ما تعانيه البنية الاقتصادية الرأسمالية الريعية المشوهة

والتابعة من اختلالات هيكلية عبر المطالبة بتنويع مصادر الدخل والأنشطة الانتاجية، والمطالبة بالتوسع في الصناعات النفطية وخصوصاً التكرير والبتروكيماويات، بحيث يتحوّل القطاع النفطي، وتحديداً استخراج النفط الخام وتصديره، من قطاع مهيمن ومصدر للعوائد المالية إلى قطاع منتج للثروات تتمحور حوله مجموعة صناعات.

كما تدعو الحركة الوطنية وضمنها اليسار الخليجي إلى الاستخدام العقلاني الرشيد وطويل الأمد للنفط وإبقائه بيد الدولة بوصفه قطاعاً استراتيجياً ورفض خصخصته، وسد الأبواب أمام سعي شركات النفط العالمية الكبرى لإعادة هيمنتها عليها تحت غطاء اتفاقيات المشاركة في الإنتاج، وربط سياسة إنتاج النفط وتصديره بمتطلبات تطوير اقتصادنا الوطني واحتياجاته الفعلية؛ وكذلك ربطها بحجم الاحتياطيات النفطية الحقيقية القابلة للاستخراج، واستعمال مصادر الطاقة البديلة النظيفة الأخرى لتوليد الطاقة الكهربائية وتحلية المياه مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح والأمواج.

أما إذا انتقلنا إلى البعد الدولي العام للنفط والغاز كمصدر للطاقة وما يسمى بأزمة الطاقة، فعلينا أن ننظر إليها بالارتباط بالنظام الرأسمالي وتناقضاته وأزمته، فالارتفاع الكبير في أسعار الطاقة فاقم كثيراً من معاناة غالبية الشعوب، وهناك جانب آخر للأزمة، وهنا استعير ما سبق أن أعلنه الأمين العام للأمم المتحدة في العام الماضي عندما قال إنه من "غير الأخلاقي" أن تعلن شركات النفط والغاز الكبرى حصد "أرباح قياسية"، بينما ترتفع الأسعار، وكذلك من "غير الأخلاقي" أن تستطيع الدول الغنية فقط الحصول على الطاقة مع استمرار ارتفاع الأسعار، وهذه الأزمة توجب على أقل تقدير فرض ضرائب على "الأرباح المفرطة"، التي تجنيها كبرى شركات النفط والغاز وتوجيهها لصالح البلدان النامية، كما تتطلب الإسراع في الانتقال إلى مصادر الطاقة المتجددة. وأضيف ضرورة منع إخضاع أسعار الطاقة للمضاربات، التي تسهم في رفع أسعارها بشكل غير مبرر.

الثقافة الجديدة: دائما ما اعتبرت ان مقاومة الشعوب العربية للتطبيع مع "الكيان الصهيوني"، جزءٌ مستحق على الشعوب العربية ليس لكون هذه المقاومة فقط أحد ابسط اشكال التضامن مع الشعب الفلسطيني، وحقه الثابت والأكيد في تحرير أرضه، وحقه في العودة وتقرير المصير وفي إقامة دولته الوطنية؛ وإنما لأن الخطر الصهيوني لا يطال الفلسطينيين وحدهم، وانما يستهدف العرب جميعا.

في ظل موجات التطبيع الكثيرة السابقة واللاحقة للبلدان العربية مع إسرائيل، وفي ظل العلاقات العلنية والسرية للحكومات العربية معها، ها نحن نعيد من جديد لحضرتك أستاذ احمد صياغة سؤال كنا قد وجهناه بنسخته الأولى الى الدكتور ماهر الشريف في باب حوارات العدد (434) في تشرين الثاني 2022:

بعيدا عن الشعارات العتيقة والخطط الرومانسية، برأيك ما هي أساليب النضال الملموسة المطلوبة حاليا من قبل التنظيمات والأحزاب والقوى اليسارية والتقدمية العربية للوقوف ضد التطبيع؟ وما هي آليات التنسيق في ما بينها، وأيضا في ما بينها وبين الأحزاب والتنظيمات والفصائل اليسارية الفلسطينية بغية تقوية ودعم الاصطفاف الشعبي العربي

والإسلامي والعالمي مع الشعب الفلسطيني لانتزاع حقوقه ومطالبه العادلة؟ خصوصا وان هذا الدعم يدب فيه الفتور بين فينة وأخرى، وكما هو حاصل في هذا الوقت؟

أحمد الديين: لعلّه حان الوقت لتصحيح الالتباسات وتحديد المنطلقات وإعادة صياغة علاقة شعوب الأمة العربية وحركاتها التحررية والوطنية والديمقراطية والتقدمية، وفي مقدمتها القوى اليسارية والأحزاب الشيوعية مع نضال الشعب العربي الفلسطيني وحركة المقاومة والصراع مع الصهيونية على نحو واضح يتجاوز حالة التضامن إلى مستوى النضال المشترك أو على أقل تقدير التضامن الكفاحي. المنطلق يفترض أن يستند إلى أنّ أساس القضية الفلسطينية يتمثّل في كونها قضية تحرر وطني في مواجهة كيان صهيوني غاصب زرعته الإمبريالية في منطقتنا العربية ليتولى القيام بدوره الوظيفي في خدمة المصالح والمشروعات الإمبريالية الغربية وتثبيت هيمنتها على منطقتنا وبلداننا وشعوبنا، وذلك بالارتباط مع المشروعات التآمرية الإمبريالية منذ بدايات القرن العشرين ممثلة في وعد بلفور واتفاقية سايكس – بيكو، التي استهدفت استعمار وطننا العربي، وتمزيق بلداننا، وتفريق شعوبنا، ونهب ثرواتنا... والموقف تجاه الكيان الصهيوني يفترض أن يرتكز على التصدي لدور هذا الكيان في محاربة حركة التحرر الوطني العربي واستهدافها وإضعافها عبر العدوان الثلاثي على مصر في 1956، وعدوان 1967، واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وسيناء، ثم احتلال لبنان في 1982، وفرض اتفاقيات الاستسلام ومحاولات تصفية القضية الفلسطينية، وتمرير مشروعات تسيّد الكيان الصهيوني على المنطقة وتثبيت التبعية للإمبريالية تحت أسماء متعددة لما يسمى مشاريع الشرق الأوسط و"صفقة القرن"، وما ارتبط بذلك من مذابح وحشية وممارسات عنصرية بغيضة وتهجير تعرض له الشعب العربي الفلسطيني، وما نفذه الكيان الصهيوني من اعتداءات متكررة وجرائم واغتيالات وأعمال تآمرية امتدت إلى عموم منطقتنا العربية. ويجب أن يكون واضحاً أنّ الأساس في القضية هو اختلاق الكيان الصهيوني نفسه، وليس مجرد الاحتلال الصهيوني اللاحق للأراضي الفلسطينية في 5 يونيو/ حزيران 1967 وأنّ النضال ضد الصهيونية لا ينحصر في قيام دولة فلسطينية على الأراضي المحتلة بعد ذلك التاريخ فقط في إطار ما يسمى "حلّ الدولتين".

وحان الوقت لإعادة الاعتبار إلى أنّ مقاومة المشروع الصهيوني مرتبطة بالنسبة للشعوب العربية وحركاتها التحررية بمقاومة الهيمنة الإمبريالية، وإنّ تحرير فلسطين مرتبط بالضرورة بتحرير شعوبنا وتحرر بلداننا وتضامنها ووحدتها... وتجسيد حقيقة أنّ القضية الفلسطينية هي القضية المركزية لشعوب أمتنا العربية وقواها التحررية.

أقول إنّ المدخل هو تصحيح طبيعة الصراع والانتقال من حالة التضامن إلى مستوى النضال المشترك، واستذكر هنا أنه في العام 1973 باشرت قوى تحررية وتقدمية عربية، وليس لبنانية فقط، تأسيس "الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية" بقيادة الشهيد كمال جنبلاط، وأظن أنّ وجود مثل هذه الجبهة لا يزال مستحقاً.

واليوم، على الرغم من مرور خمسة وسبعين عاماً على زرع الكيان الصهيوني، إلا أنّ قضية فلسطين لا تزال حيّة حيث لم تتمكن الإمبريالية

والصهيونية وأنظمة التبعية العربية من تصفيتها، وذلك بفضل صمود الشعب العربي الفلسطيني ودور المقاومة... ولا أظنني أبالغ عندما أقول إنّ الكيان الصهيوني اليوم يواجه أزمة داخلية وجودية متفاقمة، وهي أزمة مرتبطة بأزمة الإمبريالية الأميركية المتقهقرة وبالتبدلات السياسية الدولية لعالم ما بعد القطب الواحد، الذي كان العدو الصهيوني يتمدد في ظله ممثلاً لمصالحه. وفي هذا السياق النضالي المشترك، أو لنقل على أقل تقدير في السياق التضامني الكفاحي في مواجهة الإمبريالية والصهيونية، وليس في حدود المواقف التضامنية الإنسانية أو القومية فقط، تبرز أهمية دعم صمود الشعب الفلسطيني وإسناد مقاومته، والعمل على فضح جرائم الكيان الصهيوني ومقاطعته وفرض طوق من العزلة عليه، مثلما كان الحال مع الكيان العنصري في جنوب أفريقيا، وتحويل التضامن إلى إسناد ملموس مادي وسياسي وعسكري ومعنوي في دعم صمود الشعب العربي الفلسطيني ومقاومته. ومن مهماتنا كحركة تحرر وطني عربية وكأحزاب شيوعية وكيسار في البلدان العربية رفض أي شكل من أشكال التطبيع مع الكيان الصهيوني الغاصب، ودعم نضالات شعوب الدول المطبعة لإلغاء اتفاقيات العار، وتحقيق درجة أعلى من التنسيق بين جميع القوى الفاعلية في المنطقة لمواجهة حملات التطبيع ونشر ثقافة مقاومة مضادة للصهيونية. وبالنسبة لنا في "الحركة التقدمية الكويتية" فإنّ مقاومة التطبيع مع الكيان الصهيوني، إنما هي جزء من واجب مستحق علينا كشعوب وقوى تحررية عربية، انطلاقاً من حقيقة أنّ الخطر الصهيوني لا يطاول الفلسطينيين وحدهم، وإنما يستهدفنا جميعاً نحن العرب... هذا الفهم ضروري لبلورة وجهة نضالية متماسكة لمقاومة التطبيع. وبالمناسبة فنحن في الكويت نستند في مقاومتنا للتطبيع مع الكيان الصهيوني إلى أرضية قانونية تحققت بشكل ملموس بفضل دور الحركة الوطنية الكويتية والموقف الشعبي الكويتي والتفهّم الرسمي من السلطة، حيث تتمثّل هذه الأرضية القانونية في عدد من التشريعات الكويتية التي تجرّم التعامل مع الكيان الصهيوني بأي صورة من الصور، من بينها القانون رقم 21 لسنة 1964 في شأن القانون الموحد لمقاطعة إسرائيل، الذي يحظر ولا يزال في مادته الأولى على كل شخص طبيعي أو اعتباري أن يعقد بالذات أو بالواسطة اتفاقا مع هيئات أو أشخاص مقيمين في إسرائيل أو منتمين إليها بجنسيتهم أو يعملون لحسابها أو لمصلحتها أينما أقاموا... ويحظر في مادته الثانية دخول أو تبادل أو حيازة البضائع والسلع والمنتجات الإسرائيلية بكافة أنواعها... وكذلك المرسوم الأميري بإعلان الحرب الدفاعية بين دولة الكويت والعصابات الصهيونية المحتلة، في يوم 5 يونيو/ حزيران 1967 وهو المرسوم الذي لا يزال سارياً إلى يومنا هذا... إذ أننا في الكويت من الناحية القانونية في حالة حرب قائمة مع الكيان الصهيوني الغاصب، وهو أمر له أهميته في تثبيت أساس قانوني يجرّم التطبيع مع الكيان الصهيوني ويضعه في مقام الخيانة الكبرى...

ومن المهم أن تناضل شعوبنا العربية وقواها التحررية في البلدان غير المطبّعة من أجل وجود مثل هذه الأرضية القانونية لتجريم التطبيع.

أدب وفن

حرية التعبير في خطر

حسب الله يحيى

بعد ان أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي والفضائيات والصحف.. عبئاً ثقيلاً على (العملية السياسية) في العراق.. وبعد ان تحولت حرية الرأي التي كفلها الدستور للمواطنين.. الى حق مشروع.. وبعد ان تحول الشارع العراقي برمته الى شارع معارض للأوضاع السياسية والاقتصادية والتعليمية والصحية.. برمتها.. وبعد ان غدت التظاهرات الشعبية تأخذ مداها على نطاق واسع مطالبة بالخدمات التي يفترض بالحكومة ان تنفذها، ومطالبة مجلس النواب بسن قوانين أساسية، ودعوة القضاء الى نشر العدالة بين الناس.

بعد كل هذا.. وجدت السلطات القائمة نفسها بمعزل كلي عن الشعب العراقي، وهو الأمر الذي جعلها تبحث عن قوانين رادعة تحول دون انتشار كل هذه المنابر خشيةً من اتساعها وامتدادها الى ما لا نهاية.

لقد بدأت السلطات بمكافحة ما يسمى (المحتوى الهابط) في مواقع التواصل، واتسع نطاقها ليشمل قمع كلّ صوت مخالف لتوجيهات السلطة القائمة، واتسعت هذه الدعوة لتشمل تجريم الاساءة الى الرموز الدينية والعلمية وتكميم الافواه على نطاق واسع.. لكي يصبح هناك خطاب سلطوي واحد غير قابل للنقد وللرأي الآخر. ومثل هذه القرارات التعسفية التي بدأ الاعلام الرسمي يروجها ويدعو الى سن قوانين خاصة بها.. بتنا نعيش أوضاعاً قمعية، أخذت تشكل اضافة سلبية الى اوضاعنا الحياتية المتدهورة.

ومع ان كل الاصوات المعارضة لا تلقى آذاناً صاغية من المسؤولين واصحاب الهيمنة على مقدرات الناس.. ومع علم الناس ان اصواتهم لا تأخذ مداها الحقيقي من التغيير.. الا انهم كانوا يعدونها متنفساً لهم وبوحاً من شأنه ان يشكل ملامح الرأي العام في العراق.

كما جرى الحال في الإجراء السلبي الذي اتخذ إزاء الكاردينال ساكو وشكل ضغطاً على مكون مهم واساسي من مكونات العراقيين متمثلاً بالمسيحيين الأصلاء في هذا الوطن.

ان هذه الإجراءات التي اخذت تتوسع ويتم الترويج لها لقمع الحريات، من شأنها ان تضع العراق تحت طائلة الإجراءات اللاإنسانية التي لا يمكن القبول بها.

ان الإجراءات التعسفية ضد حرية الرأي وقمع الحريات المدنية التي بات عدد من (المحللين الحكوميين) يلصقون بها شتى التهم، ويعمدون الى تشويه صورتها الوطنية بطريقة عكسية مدانة وان لها علاقة بالقوى الأجنبية.

ان حرية الرأي، حرية يكفلها الدستور، ذلك ان الشعب مصدر السلطات وليس هناك سبيل لإرادة الناس وهم يطالبون بحقوقهم المدنية ويختلفون مع الآراء التي تبدو في ظاهرها (عادلة) وهي توجهات سلبية لا بد من رفضها والعودة الى نبع الحريات، ونبع الآراء الحرة.

الشعر: تجييل أم تحول؟

د. نادية هناوي

لا شك في أن ميزة الشعر هي في التغيير والتجاوز المستمرين والتطلع إلى ما هو جديد وبآفاق متسعة اتساعا لا حصر معه، غير أن ذلك ينبغي أن يكون مخصوصا في الإبداع كتحولات ومراحل وتغيرات وفي خضمها تأتي ممارسات الشعراء من قبيل تشكيل الجماعات وإطلاق البيانات وليس العكس. ولقد فطن النقاد العرب القدماء إلى تحولات القصيدة العربية، وتحدثوا عنها وشرحوا أهميتها ومن خلالها صنَّفوا الشعراء. فكان أن عدوا شعراء النقائض (كتلة) بناء على ما ابتكروه في القصيدة من غرض جديد في العصر الأموي كما لم يميزوا بين الشعراء بحسب أعمارهم، إنما هي طبيعة القصيدة، فتحدثوا عن طرفة الفتى مثلما تحدثوا عن لبيد المعمر وعدوا بشار بن برد شاعرا محدثا وصنفوه تصنيفا فنيا شكليا بوصفه أول المولدين الذين طوروا القصيدة من ناحية بناء الصورة الشعرية. هذا التطوير الذي جاء في خضم التحول الذي من سماته استعمال استعارات غير مألوفة، تختلف عما استعمله الشعراء الأولون. ومثل بشار أبو تمام الذي صنّفه النقاد شاعراً مولداً متميزاً حتى على المولدين قبله لفنية شعره ولإغرابه في التصوير، وليس لزمانيته كشاعر، أي أنهم نظروا نظرا فنيا واعيا إلى الطرائق التي سلكتها قصيدته. فالشعر كان (قبل أبي تمام تحديدا حسيا للواقع لكنه صار معه خلقا جديدا للعالم وقد ظهر عند شعراء كثيرين بعده أبرزهم الشريف الرضي فتجاوزوا شكل الأشياء الخارجي وذهبوا إلى جوهرها.. أبو تمام بداية جديدة في الشعر العربي انه الشاعر العربي الأول الذي خلق لنفسه سلاسل فنية وعاش يرقص ضمنها)[1]، وعلى مثل هذه الشاكلة يصنف الشعراء ممن فتحوا للشعر العربي آفاقا جديدة عبر مراحله المختلفة.

ومثل النقاد القدماء كان النقاد المحدثون والمعاصرون ينظرون إلى الشعر كإبداع لا كجماعات أو تكتلات فتحدثوا عن الصورة والأسلوب والشكل[2]. وصنفوا الشعراء على وفق التحولات التي أحدثوها في جسد القصيدة كممارسات جديدة أو كتغيرات حوّلت الشعر من حال إلى حال أو استبدلت قديما بحديث. وقد يدخل في إطار هذا التحول

في الشعرية كلام عن صراعات تدخل فيها ذوات الشعراء، لكن ذلك يبقى في إطار تدعيم القول بالتحول الفني ولرصد المزيد من ظواهره.

أما ما يكسبه الشاعر من تأكيد أمر التحول فمزدوج لأنه يعطيه وزنا إبداعيا، به يظل اسمه عالقا بالتاريخ ملتصقا به ولأنه أيضا يضع قصيدته على مفترق طريق فيه الشعرية قبل التحول هي غيرها بعد التحول. فقوة الشعرية تحددها التحولات كانصهار وتواصل وقرب من الحياة وغير ذلك مما لا علاقة له بأي تكتل أو فصيل، ولا ارتهان له بمكان أو زمان. والنقدية العربية بالعموم تهتم بأمر التحولات فتتناول مختلف قضايا الشعر الموضوعية وظواهره الفنية كالرومانسية والواقعية والغربة والحياة والموت والغضب والزمن والثورية.. الخ. وينصب اهتمام النقاد والباحثين في الغالب على ما يجري في الشعر من تطورات فنية مرحلية. وأي كلام يأتي عن تسمية الشعراء ضمن تيار واحد كجماعة الديوان أو جماعة أبولو إنما يكون مقصودا منه توضيح ما أحدثوه من تغيير في الشعر يخدم أغراض القصيدة، وقد يبتعد بها عن الاعتياد والألفة ويقترب من التفرد والإدهاش.

أما مسألة الأجيال والتجييل فهي من اختصاص مؤرخي الأدب في الغالب. ولم ينبر لبحثها عراقيا سوى شعراء التجييل العقدي ومن تبعهم من الدارسين الذين يجدون في مثل هذا الموضوع تشويقا وأهمية، كونه يركز على الشعراء وتاريخ الشعر أكثر مما يركز على مسائل البنية والتراكيب وتأويل الصور وشرحها وتتبع الإيقاعات وموسيقاها التي تعد عويصة بالنسبة إلى بعض منهم. ولقد انفردت الشعرية العربية في العراق خلال الأربعين سنة الماضية بظاهرة خاصة تتمثل في تكتل بعض الشعراء في شكل جماعات ذات انتماءات ومسارات، يضمها اسم عقد واحد من السنين، حدوده عشرية لا قبلها ولا بعدها، وبها يتسمون كستينيين وسبعيين وثمانيين ..الخ. وغايتهم من هذا التحديد الزماني ـ المنافي لمعنى الجيل والأجيال ـ تجييل أنفسهم ظانين هذا التجييل وسيلة بها يبلغون بتجاربهم الشعرية مرتبة، تضمن لهم الذيوع. وهو ما أعطى للتجييل معنى انجازيا بوصفه معادلا موضوعيا لنجاح التجارب وثرائها والطريق الموصل إلى تحقيق أغراض كثيرة لا نستبعد منها غرض التعويض عما لم يتحقق من طموحات في عالم الشعر. وبهذا المعنى الكتلوي التجمعي يصبح التجييل أحد أمراض الشعرية العراقية ولن نغالي إذا قلنا إنه أخطرها؛ نظرا لسرعة العدوى به ولاتساع نطاقه في العقود الأخيرة بين الشعراء الذين لديهم استعداد داخلي وهوى ذاتي للكتلوية. إن هذا الانجذاب إلى الكتلوية والتعويل الجماعي على العقدية في عالم الإبداع الشعري ثم المراهنة على ذلك كله في إنتاج الشعر، له مسوغات كثيرة تناول بعضا منها الشعراء العراقيون المنظرون للتجييل، ومنها الرغبة في تجاوز الشعراء السابقين والتفاني الدائم في منافستهم بدعوى الثورية والاستقلالية والحداثوية وأن قيمة الإنتاج الشعري وإبداعيته تكمن في التجاوز والانقطاع والتمرد الذي ينبغي أن يكون حاضرا أو مختزنا داخل القصيدة.

ولا ننكر أن الشعراء المنظرين نجحوا في ترسيخ مقولات صارت عند دارسي التجييل بمثابة مصطلحات بيد أنها مصطلحات

مظهرية لا تركز على العملية الشعرية كتطورات وإخفاقات بل تُعنى بهوامش هذه العملية من قبيل الخصومات والمشاحنات والتقاربات والتجاذبات والأيديولوجيات.

وما من مراهنة نقدية عند أصحاب الجيلية العقدية على تحول فني معين يفرض عليهم خوض تجربة شعرية ما، لان أي تجريب لا يمكن حصره بعشر سنوات محددة كي يثبت نجاعته. هذا إذا وضعنا في بالنا أن التحولات الشعرية غالبا ما تأتي بشكل فجائي وبنزوع فردي يرتبط بتجربة شاعر معين ثم يتسع نطاق التمثل بها عند شعراء آخرين. ومثالنا الشعر الحر الذي جاء عن تجربة فردية وبنزوع ذاتي مارسه رواد هذا الشعر كل على حدة ثم استمروا يجربون فيه وانضم إليهم شعراء آخرون، وكل ذلك جرى بشكل تلقائي ومن دون أية قصدية في تسمية الظاهرة. ومع تقدم السنين صار التحول حقيقة ماثلة في الشعر المعاصر نقل القصيدة العربية نقلة نوعية من مستوى معتاد ومباشر إلى مستوى غير معتاد ولا مباشر وبخصائص تستتب في أغوار الشعر مثلما تستغور الذات والتاريخ. وليس كل تجريب يفضي دائما إلى تحول شعري، فبعض التجارب تنجح على مستواها الفردي فقط، فجبران مثلا أحدث في الشعر العربي أثرا، شاع بين شعراء مرحلة ما بين الحربين، ولكن هذا الأثر لم يكن كافيا لان يكون تحولا ينقل القصيدة نقلة نوعية شاملة. وعلى الرغم من محاولة بعض النقاد ـ كادونيس مثلا ـ اعتبار تجربة جبران ممهدة لحركة الشعر الحر، فان تجربة جبران بقيت في حدودها الذاتية، إذ شتان بين فعل لا تتضح فاعليته إلا بعد حين ليس بالقليل وبين فعل ينتج فجأة بسبب مؤثرات عدة ويكون من القوة ما يجعل تأثيره يسري مسرى النار في الهشيم فيكون البت من ثم في أثره وتأثيره وأهمية ما تركه من تحول فني، حاصلا وناجزا بشكل أكيد ومنقطع النظير. وما أُطلق على شعراء حركة الشعر الحر اسم جيل الرواد إلا تجوزا كمسألة احتفائية تعبر عن قوة التحول الذي أحدثوه في الشعر العربي وقوة الإرادة أيضا في مواجهة العنت والانتقاد. وبسبب ذلك وضعت نازك الملائكة كتابها (قضايا الشعر المعاصر) لكنها واجهت أضعافا مضاعفة من النقد الذي كانت قد واجهته في نظم قصيدة التفعيلة. فأخذ عزيز السيد جاسم عليها أنها وقفت من الشعر موقف المعلم وقعّدت قواعده تقعيدا متزمتا عوّقه ولم يجدده، وأنها مع شعراء آخرين (يتحولون بفعل الإشباع والغرور في ميدان الريادة إلى سادة.. ان هؤلاء يتحولون من مجددين إلى معوقين ومن محدثين إلى متزمتين بحيث تصبح الحرية عندهم وبفعل الزمن تقنينا خاصا. أنهم بهذه الوضعية يريدون تجميد التطور الشعري بحيث تبقى قياداتهم أزلية. أنهم يقعون في مغالطات خطيرة لعدم تفهمهم لحقبة التطور الذي يجعل ما في الغد مختلفا كثيرا عما في اليوم وقد ابتدأت نازك عندما أخضعت الشعر الحديث لشروط متعصية تفوق التعصب للأوزان الخليلية ولذلك وبحكم كونها رائدة كبيرة استطاع موقفها أن يثير لغطا خطيرا)[3]. وإذ نوافقه الرأي في أن الشعر تحول وليس تقعيدا، فإننا نخالفه رأيه في نازك الملائكة، فهي أرادت بهذه القواعد أن تعطي للشعر قيمته وتنقذه من حالة الاستسهال التي تصورها ناظمو قصيدة التفعيلة أولا، وتحفظ حق من له كفاءة في

نظم قصيدة التفعيلة آخراً. ناهيك عما في موقفها هذا من رد غير مباشر ومنهجي على اجتهادات من أراد مصادرة حركة الشعر الحر بحركة موازية ففندت شبهة التحديث هذه، وتعمقت في بنية الشعر قديمه وحديثه باحثة عن موجبات إثبات القاعدة التي عليها يقوم الشعر الحر. وليس في تثبيت القواعد تعليمية أو تعصب أو مغالطة، وإنما هي نظريات ومنهجيات فيها كانت نازك ناقدة رائدة وهي تتبع منهجية بنيوية، بها سبقت أي ناقد عربي. ومثلما تفردت نازك الملائكة في الشعر تفردت أيضا في مجال التنظير النقدي للشعر. ولان هذا التحول في الشعر كان كبيرا، تعددت دراساته وغدت له أولوية في النقد بحثا عن مسائل الريادة والأساليب والأبنية والثيمات وغيرها. وإذ لم تشغل مسالة التحول بعض الشعراء المجايلين للرواد أو الذين أتوا بعدهم، فان غيرهم شُغلوا بها. وقسم منهم وجدوا ضالتهم في التجييل العقدي متجاهلين حقيقة أن الجيل الشعري لا يقل زمنيا عن ثلاثين عاما. وتجاهل دقة مفهوم الجيل رافقه تجاهل لمفهوم التحول الذي ينبغي أن يكون في الشعر وليس في الشعراء وما يختلقونه من تصادمات ومناكفات وممارسات بها يتمردون على المقاييس، ويلغون التواصل مع من سبقهم، ويتصادمون مع التراث، لاهثين جريا وراء الموضات الغربية.

وقد عبّر عزيز السيد جاسم عن هؤلاء بأنهم (يحاولون زهق العواطف الإنسانية واغتيال الأدب بمجموعه)[4] ولو كانت الجيلية تتبع التحولات لشكّل كل تحول جيلا لوحده، وهو أمر غير ممكن لان التحولات لا تأتي بالمشتهاة ولا الرغائب، ولا هي تخندقات، بل الجيلية حاصلة ومحسومة على وفق نظرية المجايلة التاريخية. وهو أمر غير مخصوص بالشعر وحده بل ينطبق على كل ميادين النشاط الإنساني. لا شك في أن مهمة الشاعر ليست التفكير في الجيلية، لأنها مسألة تاريخية لها حدودها المعلومة زمانيا، إنما مهمة الشاعر التفكير في الشعر كمسألة مصيرية بها قد يجد طريقه إلى التغيير وربما الثورة وقد لا يجد سوى التقولب أو الثبات. وفي خضم جيل شعري واحد قد يشهد الشعر عدة تحولات وقد لا يشهد أي تحول؛ فأمر التحولات متوقف على بنية الشعر كإلهام ووعي وحدس ومقاومة واستغوار وانفلات ومساقات ونظم.

إن الجيل مقولة زمانية ووحدة قياسها عام تقويمي، والمنوط بها هو توثيق الأسماء في مسيرتها ومنجزاتها وتطور تجاربها. أما التحول فمقولة فنية ووحدة قياسها الانزياحات التي تولد التناقضات والاختلافات وهي ما تستهوي المبدعين وتغريهم أكثر من مسألة التحقيب والتوثيق. من هنا تتبدى ضرورة التحول من أجل تغيير الثابت شكلا ومحتوى وروحا بينما يبقى التجييل ـ سواء بمعناه العام أو العقدي ـ مجرد تاريخ يشير إلى أسماء الشعراء، كيف كانت ومع من تخندقت.. الخ. وإذا كان التحول منحة إلهامية وتتمة روحية فيها الشاعر ليس رقما في مجموع، فإن التجييل ـ عقديا وغير عقدي ـ وضعية جماعية فيها الشاعر رقم مع مجموعة أرقام لها بداية ونهاية وتتدخل في تحديدها عوامل غير فنية كأخلاق الشعراء وارتباطاتهم الشخصية ومسؤولياتهم الأسرية وتعايشهم المجتمعي والتزاماتهم وعدم التزامهم وعقلانيتهم أو عدم عقلانيتهم. وإذا ما طبّقنا هذا التصور

على النقاد والشعراء في مرحلتنا الراهنة، فسنجدهم ميالين إلى التجييل العقدي إن لم يكونوا قائلين به ومدافعين عنه غير ناظرين إلى أهمية التحولات التي هي أساس في توصيف أية تجربة. ووراء ذلك أسباب منها أن الشعر اليوم لم يستطع أن يصنع تجارب ذات تأثير نوعي في الأعم الأغلب، ومنها أن الشعراء بالعموم يكتبون إرضاء لرغبات معينة أو انتزاعا لمديح وقتي، ومنها ضعف الاعتمالات الداخلية فلا تنطلق إلى الخارج قوية، ومنها عوائق الإلهام ومطبات الصياغة الفنية وعسر التجريب. وإذ نؤكد أهمية التحول، فإنه لا غنى عنه في معرفة التطورات الشعرية وتحريك دماء القصيدة. وإذ يتوجب أن يكون كل تحول هو تجديد، فكذلك ليس واجبا أن يحصل التحول في كل جيل شعري لأن الجيل يتحقق سواء بالتحول أو من دونه كفرضية يحتّمها قانون التطور الذي فيه السابق قديم والحالي حديث. وكل حديث سيصبح قديما وكل آت سيكون حديثا وهكذا. اما قانون التحول فلا يتحقق إلا بالتجديد الفني المختلف عما كان قبله والذي لا يماثل ما هو سائد في زمانه. فمقولات الكلاسيكية والحداثة وما بعد الحداثة تدلل على تحولات إبداعية وليس على مراحل تاريخية. وتتفاوت العوامل التي تصنع التحولات لكنها بالنتيجة تؤدي إلى تغيير يطرأ بشكل فجائي لكنه يصبح فيما بعد جذريا وعاما وجماعيا. فالتحول أيا كانت درجاته يبدأ طارئا وينتهي متجذرا منتقلا بالشعر من حال إلى حال كأمر مفروغ منه يضفي على الإبداع حيوية مبعدا عنه الجمود والتحجر. وقد يسمى التحول تجاوزا أو تخطيا أو تجريبا أو تثويرا أو حساسية أو فرادة لكن المحصلة واحدة وهي المغايرة بعيدا عن المواءمة والانسجام والتنميط سواء على مستوى أعراف القصيدة أو على مستوى أبنيتها وقيمها. ويخطئ من يظن أن المغايرة تصنع التجييل؛ فالمغايرة تنجم عن تحول في الشعر وليس في الشعراء. وعموما تتسم التحولات الشعرية بعدم الثبات؛ لأن الشعر في الأساس موار بالمتغيرات، أما الاجيال فإنها ثابتة في نموها وتشكل قيمها التي تفصل بين القديم والجديد كشباب وشيوخ وآباء وأبناء وأساتذة وتلاميذ. وهذا من اختصاص مؤرخي الأدب الذين لا تهمهم مسألة نقد الشعر بقدر ما يهمهم إحصاء شعراء مرحلة ما من المراحل، تنقيبا عنهم وتوثيقا لسيرهم وتسجيلا لمنجزاتهم. وليس التجييل أو المجايلة بالأمر الجديد أو الغريب في نقد الشعر العراقي بيد أنه اكتسب فيما بعد منتصف الحرب العالمية الثانية أبعادا جديدة بعضها فني وبعضها الآخر ايديولوجي فأخذت مفردات (جيل الرواد وجيل ما بعد الرواد وجيل الستينيات وجيل ما بعد الستينيات) تكثر في نقد الشعر العراقي. وهو أمر نراه طبيعيا لان حركة الشعر الحر لم تكن اعتيادية فقد كانت تثويرا مهولا أحدث تحولا فنيا خطيرا في بنية القصيدة العربية لم يحصل منذ عشرة قرون حين قام أبو تمام بثورته التحديثية في عمود الشعر العربي. ومن هنا لم يستطع بعض الشعراء - الذين أثارهم هذا التحول ممن جايل رواد هذه الحركة أو من جاء بعدهم - تقبل الأمر أو استيعابه.

فتفاوتت ردود أفعالهم وأسقط في أيدي بعض منهم، فراح يبحث عن طريقة ما، بها يغالب هذا التحول ويصاديه فوجد في التجييل العقدي خير طريقة بها يؤكد حضوره في

خضم هذا الزلزال الشعري الكبير، متنكرا لقوانين الجيل الطبيعية ومتخذا من اسم العشر سنوات معيارا.

وسرعان ما وجدت نغمة العقدية هوى في نفوس شعراء آخرين وهكذا ترسّخ التجييل العقدي وهو اليوم مقولة معتادة في نقد الشعر العراقي وظاهرة ابتدأت مفتعلة بسيطة وانتهت مقعدة ومعقدة. وعلى الرغم من مرور سبعين عاما على قيام حركة الشعر الحر، فإن صدمة التحول ما زالت مؤثرة وفاعلة وبالقوة نفسها. ومن دلائل هذه القوة استمرار بعض الشعراء في القول بالتجييل العقدي، تارة بابتكار البيانات وتارة أخرى بالتخندقات، معبرين بذلك عن ردة فعلهم وطبيعة استيعابهم لذاك التحول الشعري الكبير.

هوامش:

1- مقدمة للشعر العربي، أدونيس، بيروت، دار العودة، ط3، 1979، ص46

2- ويعد الفارابي أول من اهتم بالإحصاء والتفريع، فعلم اللسان يتفرع منه علم الأشعار، ومن هذا العلم يتفرع إحصاء الأوزان وإحصاء تركيبات الحروف وما يستعمل من الألفاظ في الأشعار. ينظر: إحصاء العلوم، الفارابي، بيروت، مركز الإنماء القومي،1991، ص12.11

3- دراسات نقدية في الأدب العربي، عزيز السيد جاسم، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ص116.

4- المصدر السابق، ص111

الرثاء لا يليق بالمبدعين

أسماء لامعة وعقول نيرة ؛ فقدناها في العراق مؤخرا ..

الكاتب والمترجم الكردي : جلال زنكابادي , الفنان المسرحي الرائد والذي عرف بمسلسل (افتح يا سمسم) د.فائق الحكيم ،الشاعر :كريم العراقي ، والفنان الموسيقي :ياس خضر ، والتشكيلي : عقيل الاوسي ، والمسرحي التقدمي : مهدي سميسم ، والتشكيلي : ستار علي

هؤلاء الذين كان زادهم المعرفة والابداع ؛ شكلوا في الذاكرة العراقية حضورا بهيا ، مثلما اناروا الدروب امام الأجيال الحاضرة التي تعلمت الكثير من منجزاتهم البارعة

هؤلاء.. لا يليق بهم الرثاء ، لانهم احياء في خزيننا المعرفي ومنظورنا الجمالي ، مثلما هم نخبة خيرة سارت مسارا فاعلا ومؤثرا يتواصل مع الحياة والمجتمع .

لارواحهم السلام والطمأنينة والذكر المضئ .

ادب وفن

أسد الجّوع (سكيتش أنتيكي)

محمد خضير

أنشأ رجلٌ، من عائلة الشَّهبازيّين، يسكن قرية اسمها "كُوت الجُوع"، على الجانب الشرقيّ من شطّ العرب، متحفاً صغيراً لمقتنياته التي ورِثها من جدّه، صيّادِ الأسُود، مؤلّفةً من سَلاسل وفؤوس ومخارز وسّكاكين؛ ثم أضافَ إلى متحفه الخياليّ هذا صورةً رسمَها الرحّالة الأميركي فورغ لباخرة تمخر دجلة، وقد انتهى ركّابها توّاً من قتل لبوةٍ على الشاطئ، قرب واسط، في العام 1874.

دعا المتحفيُّ- الشهبازيُّ - زملاءه، أصحاب الأنتيكات، من مختلف أنحاء العراق، وقصَّ عليهم حكاية قتل اللبوة "الواسطية" زاعماً أن جدّه كان من زمرة المسافرين على تلك الباخرة. وما أن أدغلَ الليل واحتوى الضيوفَ وسط تلك المجموعة الأنتيكيّة من أدوات الصيد، حتى انتبهوا إلى الهيكل العظمي لمضيّفهم، المشتمِل بِزّةَ أحدِ المسافرين، الذين تكاد الصّورة التاريخيّة المعلّقة في صدر المتحف، تُظهِر سَحنات وجوهِهم، خلال الدّخان المنبعث من مدخنة الباخرة، وتكاد الريح تبدّده في فضاء النهر، مع اسم الباخرة المرقوم في مقدّمتها.

في نهاية العشاء الدّسم، خاطرَ الأنتيكانيّ_ الشّهبازيّ_ ولحَسَ وجوه ضيوفه بلسانِ اللبوة القتيل، وحكى ما ظنّه سيناريو مشابهاً لواقعة ذلك اليوم البعيد من رحلة الباخرة. فوجئ الضّيوف بذلك التبدّل الغريب في هيئة مضيّفهم، فتخيّلوه واحداً من أصحاب البضائع التي حملتْها الباخرةُ التجاريّة على متنها الحديديّ، وشاهداً قريباً على حادثة القتل البعيدة تلك (اقتضَت حكايةُ المضيّف الشّهبازيّ استبدالَ الأسماء، واختراعَ أنواع نادرة من الأسُود، في مكانٍ نظير، هو منشأ ولادته في قرية كُوت الجُوع، شرقيّ البصرة. وبهذا الانتقال بين زمانين ومكانين، زالت الرَّهبة من عيون الضّيوف واستقرّ ظنُّهم بحقيقة مضيّفهم، إنْ كان متحفيّاً هاوياً، أو أنتيكيّاً مُخضرَماً).

ترسّبت الظّلال، وانتظر الأنتيكانيّون حكايةَ مضيّفهم: "أصدقائي، لكي تنجح مهمّتنا، وهي المهمّة الوحيدة التي أجازَت لنا إنشاءَ

متاحف تحتوي آلات صيدٍ وفراءَ حيواناتٍ ومخالبَ وحوشٍ وسمومَ أفاعٍ وريشَ طيور، فلا مُنصرَف لأحدنا من شهادةٍ حقيقيّة تُجيز انتماءه لعالم الأسُود، قبل أن تنقلها الصُّور التي حُزْناها عن أجدادنا الصيّادين.. وكم أرهَبُ مهنتَهم!".

همهمَ أشخاصٌ لهذا الاعتراف، غير أنّ الأنتيكانيّ المخضرَم عاد وهيمن بصوته المقضقِض على الجمع المنطرح بين الوسائد، والجالس على كراسيّ أثريّة، والقائم في الزوايا المضاءة بمصابيح زيتٍ مضبَّبة.

تنحنحَ من حنجرة واهية، وواصلَ الحديث: "أتخيّل نفسي وُلِدتُ في ذلك الكُوت الصغير، مع صغار السِّباع، ورُبِّيت مع أخواتِهم من اللّبوات، وليتَ اعتقادي هذا يدوم بدلالة صورة الباخرة، لولا أنّ مثل هذه المناظر اختفت من حياتنا المدنيّة المعاصرة تماماً، وأصبحنا نهوى آثارَها بدل المعيشة بقُربها. اختفى ذلك العالم الوحشيّ من عيوننا ليترك لنا بقايا صيدٍ وعظاماً وفرواتِ جُلودٍ من متاحف الطبيعة تلك".

صمتَ الشَّهبازيّ قليلاً، ثم قال: "لكي تواظب على قتل الأسُود، تدبّر مخرجاً لسفينتك، كما تُوحيه تلك الصورةُ التي خطّطها الرحّالة الأميركيّ لمقتل اللّبوة، ومطاردةِ زوجها، أسدِ دجلة الرهيب، لركّاب الباخرة، طالباً الانتقام منهم. ولعلّ الرحّالة خاطبَنا بتخطيطه ذلك المنظر الرهيب: لو كنتَ معنا وقتذاك، لتولّتك رهبةُ المطاردة، ولن يبرح سمعَك زئيرُ الأسد، الراكض على الضفة، وقد طغا زئيرُه على صوت المحرّك البخاريّ، ما حييتَ. ابحثْ بنفسك عن عرينه في حوض النهر هناك، أو كوِّنْ لك مشهداً يحاكي مشهدَ قتلِ اللّبوة هنا في قريتك... وهذا ما استقرّ في خاطري يا زملائي واعتبرتُه رسالةَ الرحّالة المخصوصة".

اقتربَ نور الفجر، واقتربت عجلةُ الكلام من مقابلة الأسد الأخير في حكاية الأنتيكانيّ_ الشَّهبازيّ- الدائرة في متحفه: "ولكي تُنشئ مَربضاً لتلك الذكريات، يجب أن تتحصّل على عَشْر فرواتٍ للسّباع، ومثلها لثعالبَ وذئابٍ وضِباع، بينما لم تتوفّر أمامي إلا فروةٌ واحدة حيّة شاهدتُها تنتصب على ضفة نهرٍ بكُوت الجُوع، في فجر أحد الأيام. كنت عائداً لبيتي بعد رحلة صيد على الرابية المتبقّية من مدينة قديمة وراء القرية، حين انتصبَ أمامي ذلك السَّبُع الرهيب، وأظنّه تبعَني منذ أن غادرتُ أوكارَ الرابية وصخورَها المركومة".

(كم من الضّيوف ظلّ منتظراً نهاية مزاعم الصيّاد المتأخّرة؟ لا أحد يعرف الحقيقة بعد انسلال قسمٍ منهم تحت جنح الليل. وهل من شاهدٍ على قيام متحف قرية كُوت الجُوع فعلاً، لولا الكلمات المنسابة ببطء وانكسار؟).

ختمَ الشَّهبازيّ انسيابَه على مسرح الجُوع: "لا. ما يجعل أسداً يظهر أمامك إحساسٌ غير الجُوع. كان الجُوع قد قرضَ وجودَها في الماضي، لكن هل الجُوع جعل اللّبوة تقترب من مسافري الباخرة تلك في دجلة، فاصطادوها؟ لا. قطعاً فالأسُود لها قصة أخرى مع ملّاحي الانهار وتجّار البضائع وجامعي التُّحَف، وغيرهم ممّن قادَهم النصيبُ لمقابلة أحد تلك الحيوانات النادرة".

تدحرجت ضحكةٌ جوفاء، انطلقت من فكّي

الشَّهبازيّ، المحتكّتين كرحويين حجريّين، ورطمَت آذانَ البقيّة الباقية من ضيوف متحفه، ثم استرسل بهدوء: "لكلٍّ سَبُعُه الذي يتبعه، بوجود سفينةٍ أو راحلةٍ في صحراء أو قارب في نهر مملوء بالطّحالب، كذلك النّهر الّذي وقف أسدُ كُوت الجُوع على حافّته. خاطبَني الأسد: أأنت حفيدُ ذلك الصيّاد اللعين؟ لم أجِبْ بكلمة، لهول المنظر، وصدمة اللقيا بأسدٍ من ذلك الزمان، بل أومأتُ بقصبة بندقيّتي أن ينصرف عن سبيلي، إذا كان حقّاً ذلك الأسدَ الذي كمَنَ سنوات ثم عاد لينتقم للبوتِه القتيل. قال: لا تخَفْ، فلستُ جائعاً ولا منتقِماً. ثم انتفضَ في مكانه وخلعَ فروتَه، إذ لم يلبث أن تركَ في مكانه كومةَ الجِلد المنزوع واختفى كما ظَهَر".

جاء صوتُ أحد الضيوف من عُمق قاعة المتحف: "تقول نزعَ فروتَه! لا بدّ أنّها سُلِخت منه كما تُسلَخ من حيوان أجربَ عجوز. لا يمكن لأسَدٍ أن ينجو من عِثّ الجَرَب بعد تلك السنوات الطويلة!".

فوجئ الشَّهبازيّ بهذا القَطْع الزمنيّ: "لا يا صديقي. أسَدي الهرِم كان كاملَ الصورة، لكنّه تكتّمَ كثيراً على نيّته بالظهور المفاجئ. لقد سدَّت هامتُه ضوءَ الصّباح، وشمخَ ككائن جبّار، بفروةٍ سابغة، ولم ينطق إلا كفافاً أو تكبّراً".

نَبرَ صوتٌ واهن آخر من العُمق المتراكم بأدوات الصّيد: "الكائنات المنقرضة كلّها ذوات أجنحة. وأسَدُك ذو فروة. اختلف الأمران. ولا أظنّ أحداً منّا سيخلِط بينهما على سبيل التوهّم البصَري مهما كان خائفاً".

صحا الشَّهبازيّ، وصحّحَ مسارّ حكايته: "لم أقلْ شيئاً نُكرا. إنّي أتابع ما أظنّه تاريخاً ناقصاً من انقراض نوع من الأسُود الحكيمة، إذ لا موجبَ لقصِّ خبرٍ عن الافتراس بسبب الانتقام، فضلاً عن سبب الجُوع، فقد انتهت أساطيرُ ذلك الوجود على أراضينا. انهضْ من مكانك يا صاحبي، ودقّقْ في الفروة المعلّقة في ذلك الرُّكن. لأجل تلك الفروة أنشأتُ متحفي".

(ومقابل هذا الطلب الحازم، لن نتراخى في اقتباس عبارات صاحب المتحف، فلعلّ في قوله ـ إنّ إنشاء متحفٍ يتطلب الحصول على عَشْر فَرواتٍ أسَديّة ـ ما يؤسِّس حاشيةً لتجربتنا في تأليف قطعةٍ سرديّة ـ أنتيكيّة: فلكي تُنشئ يوماً ما يناظرُها، اتّبِعْ طريقَ الأسُود المنقرضة وراء روابي الزمن الغابر).

القاص محمد خضير والواقعية السحرية

داود سلمان الشويلي

تسعى هذه الدراسة لبحث وتحليل الشخصية في مجموعة القاص محمد خضير الأولى ''المملكة السوداء'' التي نشرت من قبل وزارة الاعلام عام 1972، أي بعد أن نشر أغلب قصصها منفردة قبل هذا التاريخ، حيث أحدثت نصوص هذه المجموعة في وقتها نقلة نوعية كبيرة في القصة القصيرة العراقية، فوضعت القصة القصيرة على جادة الصواب الابداعي، فاحتفت به أقلام النقاد والدارسين، وكتبوا عن تجربته القصصية الكثير.

تعتمد نصوص هذه المجموعة على ما يمكن تسميته في الكتابة السردية بـ ''الواقعية السحرية''، أو ما يسميها هو ''التغريب الواقعي''. وقد صاغ الروائي وكاتب المقالات ومؤلف الموسيقى الكوبي الجنسية أليخو كارپنتير (1880-1904) مصطلح ''الواقعية السحرية'' و''استخدمه أول مرة عام 1949 ليصف عملية الربط بين العنصرين الخيالي والواقعي اليومي في الرواية الأمريكية اللاتينية''[1].

إن مصطلح الواقعية السحرية، رغم عدم تبلوره في ذلك الوقت في العالم ومنه العالم العربي، والعراقي خاصة، وفي المجموعة كذلك، إلا ان مصادره المؤثرة في الذاكرة الابداعية لأي أديب متوفرة في حكايات ''ألف ليلة وليلة''، والعرب، والعالم. وهذا المصطلح يجمع بين ما في الواقع المادي من

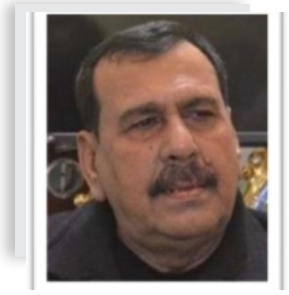

مظاهر وعلاقات، والقاص ذكي في رسم أماكن قصصه عند الأماكن المنعزلة، وبين الرؤى السحرية وما يرافقها من أمور خيالية للأشياء، والمظاهر والعلاقات. هذه الواقعية يمكن أن تجدها في الكثير من النصوص التي ضمتها مجموعة ''المملكة السوداء''، مثل نص ''المئذنة'' و''الشفيع'' و''الأسماك'' وغيرها حيث تبقى مخيلة المتلقي شغالة في تصور ما سكت عنه النص.

يقول القاص محمد خضير: ((كما لو أن القصة جسيم لا يُضبط إلا على وجهين: المرئي وغير المرئي، الواقعي والخيالي)).

***

اهتم القاص بالمكان كثيرا، المكان الواقعي المصوّر ليبدو مكانا يُرى في اللاواقع، وفي الأحلام على السواء. المكان هذا أثر في وعي وتفكير القاص فأعطى لقصصه، فضلا عن شخوصه، اضافة نوعية جديدة، فجاءت النصوص وعناصرها السردية بحلة جديدة

هي حلة ''الواقعية السحرية''.
وعندما كتب محمد خضير قصصه الأولى ونشرها في الصحف والمجلات كان هناك اسلوب جديد قد بشّر به ليكون هو الاسلوب الطاغي في جل قصص ''المملكة السوداء''، وهو اسلوب الواقعية السحرية، إذ تحتفظ ذاكرته بحكايات ألف ليلة وليلة التي هي تقع ضمن حكايات الواقعية السحرية تلك، كما ان القاص عبد الرحمن الربيعي بشر بالسريالية في بعض قصص مجموعته ''السيف والسفينة''، خاصة في قصته '' حفرة حيث لا أقمار'' حيث نجد عالما سرياليا كونته أفكار الربيعي.
حفلت ''المملكة السوداء'' بقصص أثارت اهتمام النقاد والدارسين، فكانت اضافة نوعية لعالم القصة القصيرة العراقية والعربية، كقصص زميله الربيعي. واتسمت بسعة البناء السردي لنصوصها، وغناها الفكري.

ماذا نقصد بالشخصية؟

لكل مصطلح من هذه المصطلحات الخمسة (القراءة، والشرح، والتفسير، والتأويل، والتحليل) مفهوم أي نص سردي يتكون بصورة عامة من عناصر رئيسية ثلاثة هي: (الشخصية، المكان، الزمان) ولا غنى عنها، ولا يمكن لأي نص أن تكون بنيته خالية منها إلا إنها يمكن أن تخلو من الوصف مثلا.
الشخصية تعني:
((كل جسم له ارتفاع أو ظهور، المراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص، والشخيص العظيم، والشخص، والأنثى شخصية، والاسم الشخاصة))[2].
أما اصطلاحا، فقد تغير نظر المهتمين بها، والدارسين لها، وتعدد مفهومها كثيرا. انها مفهوم تخييلي لا وجود لها في الواقع الحسي، تجسد كل ما يريد الكاتب من أفكار، ورؤى، وتخيلات.
إذ تعرّف الشخصية، كما جاء في معجم المصطلحات النقديّة: بأنها هي ((كل مشارك في أحداث الحكاية سلبا أو إيجابا، أمّا من لا يشارك في الحدث، فلا ينتمي إلى الشخصيات، بل يكون جزءا من الوصف، فالشخصية عنصر مصنوع محتاج لكل عناصر الحكاية، فهي تتكوّن من مجموع الكلام الذي يصفها ويصوّر أفعالها، وينقل أفكارها وأقوالها، وليست الشخصية شخصاً، ولا وجود لها خارج عالم الرواية))[3] .
فيما يقول محمد غنيمي هلال: ((الشخصية السردية تمثل عنصرا رئيسا في القصة القصيرة، وهي على هذا الأساس مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت منفصلة إلى دراسة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي بل هي ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما))[4].
تعد الشخصية عنصرا أساسيا في الأدب السردي، ومنه فن القص، وهي المنتجة للأحداث بتفاعلها مع الواقع، أو الطبيعة، أو حين يخلقها المخيال اعتمادا على ما يقدمه الواقع من معطيات.
انها شبكة من العلاقات التي تبنيها مع العناصر الأخرى في النص. وتلعب دورا مشاركا ومهما في الآداب السردية، خاصة القصة القصيرة، فدورها كبير في تقديم مضمون النص، وترابطاتها مع الآخرين. أما العلاقة التي تربطها بمنتج النص فهي

الحاملة لأفكاره، وآرائه، سلبا أو ايجابا، بحيث تجعل أفكار، وآراء، منتج النص، والتي هي أفكارها، وآراؤها، ذات تأثير كبير على شخوص القصة الآخرين، وعلى المتلقين أيضا. لهذا يقع عليها العبء الكبير في نمو القصة، وتقدمها، وتطورها.

وهي التي تقوم بتحريك الناس والأشياء التي يقفون قربها في فضاء القصة عن طريق وصفهم، أو الدخول في حوار معهم، أو الكلام عنهم بوصفهم شخصيات غائبة، ولهذا تجعل الأحداث السردية تجري أمامنا حية وتنبض بالحياة، ومثيرة للفكر والمشاعر، والفكرة فيها أكثر وقعا في نفوس المتلقين.

وهي اما ان تكون شخصية رئيسية، واما ثانوية. الرئيسية هي الشخصية الفنية التي اصطفاها الكاتب لتمثل ما أراد التعبير عنه من أفكار وأحاسيس، ويمكن للمتلقي الاعتماد عليها في فهم مضمون القصة، أي انها تنهض بمهمة رئيسة في تطور الحدث، كما وتساعد المتلقي على فهم طبيعة ما يجري أمامه.

أما الشخصية الثانوية فوظيفتها تهيئة الأجواء المناسبة أمام الشخصية الرئيسية، ولها دور تابع في مجريات الأحداث، وفي ابراز أبعاد الشخصية الرئيسية، كالبعد الفكري، والبعد النفسي، والبعد الاجتماعي، فتقوم بطرح، وفعل، وممارسة أفكارها، ورؤاها، لتكون القصة في النهاية كاملة وأكثر نضجا. ولا يخلو أي نص قصصي من هذه الشخصية ان كانت لوحدها أو كانت مع آخرين.

الشخصية في قصص محمد خضير:

الشخصية في نصوص المجموعة حاملة لسمات إنسانية، ((بوصفها كائنا إنسانيا يتواشج داخل النص السردي مع عناصر السرد الأخرى في تكوين المشهد السردي.)).

ان النزعة الانسانية هذه التي تتصف بها نصوص المجموعة، والعمق الانساني لشخصيات محمد خضير هي التي يفتقدها الكثير من نصوص بعض قصاصينا في الفترة تلك وفي الفترات التي تلتها.

وشخصياته الرئيسية قوية في حضورها بحيث تترك أثرا كبيرا في النص وعناصره خاصة، وفي الشخصيات الأخرى المحيطة بها.

تعتمد القصص هنا وفي مجاميعه الأخرى على الشخوص، إذ ان أغلب شخوص ''المملكة السوداء'' من النساء المنسحقات اللواتي من قاع المدينة.

ان الشخصيات الرئيسية التي يقدمها محمد خضير في نصوص هذه المجموعة تنتظر مجيء شخص ما خاصة الزوج الغائب، وتضم كذلك شخصية الغائب. وشخصيات ثانوية، كالجدة، والأبناء، والصبية، وهذه الشخصيات تتفاعل مع الشخصية الرئيسية في النص، وتدخل في حوار مع معها لتكشف عن جانب مهم منها.

ان لكل شخصية من هذه الشخصيات دورا مهما في النص. فالشخصية الرئيسية هي قطب الرحى التي تدور حوله باقي الشخصيات في النص، وهي محورها الذي تلتف حوله، وتربطها بها علاقات اجتماعية، وفي بعضها علاقات عائلية، وأيضا تدعونا للتعاطف معها لأسباب انسانية لا تخلو من النزعة الاجتماعية. هذه الشخصيات، وعلى الرغم من ''توحدها'' وميلها لهذه الوحدة الاجتماعية إلا انها تدخل في علاقات اجتماعية مع آخرين رغما عنها وتبقى محتفظة بوحدتها، وبإشغال فكرها بالشخص الغائب. وقبل أن

نختتم هذا القسم من الدراسة علينا التأكيد على اننا لم نلتق بشخصية واحدة فيها، من باب النزعة الانسانية، بذرة لثورة على واقعها المأساوي، أو تمرد على الأعراف والتقاليد، بل تنتهي النصوص والشخصية الرئيسية هي هي لم يصبها التغيير. نحن نقرأ نصوص محمد خضير القصصية تطوف في ذاكرتنا هذه الشخصيات وقد التقينا بها في يوم ما في حياتنا، أو سمعنا عنها.

النصوص

كتب القاص نصوصه في فترة قمة الابداع الأدبي العراقي. فقد كانت فترة الستينيات، ومن بعدها السبعينيات، حافلة بنتاج أدبي يوصف بأنه نتاج تجريبي أنتج لنا نصوصا متقدمة على ما سبقها من نصوص قصصية، وكانت هذه المجموعة من بين النتاج ذاك، والتي نشم فيها انعكاسا لانتكاس قضية فلسطين المركزية في النضال القومي العربي، والصراع العربي الإسرائيلي، في الفترة التاريخية التي كتبت فيها نصوص المجموعة (1966 و 1971) هي فترة ذلك الانكسار.

يقسّم الكاتب نصوص المجموعة القصصية "المملكة السوداء" إلى قسمين، ولم يذكر السبب في ذلك. فهل قسمها بسبب تاريخ كتابتها، كأن تكون نصوص القسم الأول قد كتبت في الستينيات، ونصوص القسم الثاني قد كتبت في السبعينيات؟ أم لسبب آخر؟ ويبقى السبب في "قلب" القاص محتفظا به.

القسم الأول يضم النصوص التالية:

المئذنة، أمنية القرد، نافذة على الساحة، الشفيع، شجرة الأسماء، المملكة السوداء، الأسماك.

فيما يضم القسم الثاني النصوص التالية:

حكاية الموقد، تقاسيم على وتر الربابة، الأرجوحة، العلامات المؤنسة، القطارات الليلية، التابوت.

*** الخاتمة، والنتائج:**

بعد هذه الرحلة الحوارية لقصص محمد خضير "المملكة السوداء" ، توصلت إلى نتائج مهمة تتعلق بالشخصيات الرئيسية، والشخصيات المؤثرة فيها، وهي كالآتي:

- الشخصية هي إحدى التقنيات السردية التي تنهض بها القصة القصيرة عند محمد خضير، فلا قصة دون شخصيات تأخذ بيد الأحداث، وتنظم الأفعال فيها، وتعطي القصة بعدها الحكائي.
- تنقسم الشخصيات في القصة القصيرة عنده إلى شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية.
- حضور الشخصية في نصوص هذه المجموعة قويا، ومؤثرا، وخاصة الشخصيات النسوية، بحيث تترك أثرا كبيرا في النص، وعناصره الأخرى.
- كشفت هذه النصوص المسكوت عنه في وضع النساء الموضوعات على هامش المجتمع، والتي كان اختيار الكاتب لها.
- أغلب نساء نصوص المجموعة منحدرات من القرى، وحتى عندما نجدهن في المدينة فانهن انحدرن من القرى والقصبات بسبب العمل في المدينة.
- أغلب نساء نصوص المجموعة من قاع المدينة.
- الشخصية النسائية هي محور الشخصيات الأخرى، والأحداث، في النص.
- الشخصية في قصص المجموعة ذات نزعة انسانية، وتتميز بعمق انساني عال.

- النساء في نصوص المجموعة متوحدات، بائسات، أغلبهن ينتظرن أزواجهن. ((الامرأة لا تقدر أن تبقى وحدها طويلا، فهي تمرض وتهرم سريعا)).
- ثمانية نصوص من أصل ثلاثة عشر نصا فيها امرأة متوحدة.
- ثمانية نصوص تتحدث عن الزوج الغائب، أو غياب الأم، أو الأب الغائب، أو الحفيد الغائب، أو غياب شخص ما، أو غياب عشير المستقبل، وهذا الغياب أما أن يكون موتا، أو أن يكون هروبا، أو أن يكون لسبب آخر. ((ولكنه سيحصل على إجازة في يوم ما.)).
- أغلب الغيابات هذه يصاحبها الانتظار غير المجدي من قبل النساء. ((ليس عندي أي خبر عنه، لا يكتب رسائل لي، لقد أهملني تماما)). ((- لن يأتي.)).
- ظهر من جدول علاقة الشخصية الرئيسية بالشخص الغائب:

أ – خمسة أزواج غائبين.
ب – عشيرين.
ج – ابن واحد غائب.
د – صديق واحد غائب.
هـ - أم واحدة غائبة.
و – أب واحد غائب.
ز - حفيد واحد غائب.
ح – غياب جماعي واحد.

هوامش:

1- معجم المصطلحات النقدية، لطيف زيتوني، لبنان، دار النهار، 2004.
2- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط6، مادة ش.خ.ص – 7/45.
3- مقولات السرد الادبي، تزفيطان تودوروف، ترجمة: الحسين سحبان وفؤاد صفا، الرباط، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1982.
4- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، دار العودة، بيروت، (د ط)،1973.

قراءات في قصص العدد الماضي

سرديات القص.. بين الواقع وسيمياء المفارقة

علي حسن الفواز

تستعيد القصة القصيرة نمط الكتابة المكثفة، وتُعطي للقاص زاوية نظر يمارس من خلالها الافصاح عن رؤياه عبر تلك الكثافة، وعبر لعبته في توظيف الزمن والمكان والشخصية في نسق سردي، يتكاثف فيه جهده في التأليف، وفي ترسيم حدود كتابته داخل بنية محدودة، أو في سياقٍ يتعقب من خلاله القاص العالم الذي يستعيده عبر القصة، وعبر ما تقترحه عينه السردية من وظائف تقوم على تقانات الحوار، أو اللقطة، او التوتر، أو التشكيل، وهي عناصر مهمة في البناء القصصي..

بعض القصص تتمحور حول مركزية ”الأنا الساردة“ وبما يجعل التصريف القصصي حافلا بما يغوي به ”تيار الوعي“ من انثيالات يتواشج فيها الاعتراف بالتذكّر، والحلم بالتصوير، وبما يجعل لعبة القص تقوم على تعيين حركة لسردنة تلك الأنا، تتضاعف أو تتكثف مع طبيعة المجرى السردي، على مستوى صناعة المشهد، أو على مستوى تغذية الوحدات السردية في القصة بشعرية التفاصيل. وثمة بعضٌ آخر من القصص ينزع الى التركيز على الواقع، وتكثيف الرؤية وذلك بكشف ما يمور في عوالمه، او ما يتشكّل عبره من أحداث، أو ما ينطوي عليه من ايقاعات او طاقات اشارية، تتفجّر

عبر ما ترصده عين القاص، أو ما تقترحه من مشاهد، هي الأقرب للقطات المشهد السينمائي، أو السيناريو، حيث يتجاور فيها ايقاع الحركة مع ايقاع التعبير عنها، وبما يستجيب الى وجهة نظر القاص، إمعانا في التعبير عن حساسيته، وعن مستوى تمثيله لزاوية نظره.

في القصص التي نشرتها مجلة ”الثقافة الجديدة“ في العدد الماضي نجد خصوصية السرد الأنثوي هو النسق المؤطِر لها، عبر اختيار خمس قاصات من العراق ومصر والجزائر، توزعت قصصهن بين تقانات التجريب للذات الساردة، كما في قصة ”تعاسات من ورق“ للقاصة إيمان المحمداوي، وبين قصة المشهد/ اللقطات كما في قصة ”زمن الشرفة“ للقاصة الجزائرية

شميسة غربي، وبين البحث عن الغائب كما في قصة ''ايلا'' للقاصة تماضر كريم، وبين الاعتراف كما في قصة ''اوراق امرأة'' للقاصة حسينة بنيان، وبين ثيمة التشظي الداخلي كما في قصة ''الوجه الثاني'' للقاصة المصرية منال الأخرس.

هذا التنوّع الذي توزعته القصص، كشف عن مستويات مختلفة، في المعالجة السردية، وفي تشكيل ملامح القص، إلّا أن ثيمة التمرد على الواقع، والكشف عن المخفي، بدت هي الأكثر تمثيلا للمجرى القصصي، وفي التعبير القلق الوجودي الذي تعيشه الذات الساردة، فبقدر ما يبدو انحيازها للواقع مخاتلا، إلّا أنها انطوت على معالجات احتشدت فيها دوال فلسفية ونفسية، كمحتوى رمزي للتعبير عن سيميائية مراقبة تحولات ذلك الواقع، وعبر ما يتبدّى منه في حيوات الشخصيات، من اضطراب أو تمرد أو فضول، أو عبر ما تعيشه من هواجس الفقد التي تعيشها هذه الشخصية أو تلك، والتي توظف عين الكاميرا لاداء فعل المراقبة، وتعرية ما يدور في العالم المخفي، أو عبر ما يتجلى في الصراع الذي تعيشه خفاياه الذات، وهي تواجه الفقد والحزن، والالتباس في التعاطي مع مفهوم الثورة والتغيير، أو عبر ما تستغوره شخصيات تتقاطع زوايا نظرها، فتعيش معها اضطرابات التعبير عن ذاتها، وعما يعتورها من قلق وخوف واحساس بالضآلة..

السرد وشخصية الورق:

تُحيل قصة ''تعاسات من ورق'' للقاصة إيمان المحمداوي الى أطروحة رولان بارت حول سردية ''الشخصية الورقية'' التي تصنع وعيا مفارقا بالسرد، أو التي يجعلها السارد أداة للتمثيل السردي، وعلى نحو ارادتْ به القاصة أن تصطنع صراعا داخلً بنية سردية، اقترحت لها شخصيات متخيلة، تؤدي وظائف الكشف والنقد، عبر تقانة المؤلف/ السارد، إذ تنطوي هذه الوظائف على فعاليات سيميائية، وعلى مقاربات يكون فيها السرد أكثر صدقا في التعبير عن الواقع، لاسيما في سياق التحكّم في مسار الشخصيات، فتُسبغ عليهم صفات، تكون معهم'' أفضل حالا من السهر قرب أغنية متألمة أو قرب هاتف لا يرن أو قرب شاشة تلمع كقنديل خافت لا ينقل لنا سوى دمعة محترقة''

شخصيتا ''ايمان'' و''احلام'' تتحركان في سياق سردي، يجعلهما تحت ضغط ظروف السرد، فتنمو معهما ثيمة الصراع، ويتأثران بها، بوصفهما كائنات تمثيلية، غارقة في بنية سرد قصدية، تكشف عن الحُجب، وعن لحظات الحب والفقد، وبما يجعلها أكثر حضورا في السياق السردي، على مستوى خرقه، أو على مستوى اعادة توجيهه، ليساعدا على تنامي عناصر السرد الأخرى، والتي تتداخل مع ما يصنعه الايقاع السردي من احالات وتخيّلات، فالشخصية الأولى تتحكم بالحدث، وتقترح توجيه الشخصية الثانية، عبر حكاية رواية داخلية ''امرأة في عيون نزقة'' لتبدو هذه ''التقانة الميتاقص'' فاعلة في الحراك السردي، على مستوى انضاج فعل التحبيك السردي، أو على مستوى السيطرة على وظائف الشخصيات، فتفعهما الى اداء وظائف مجاورة، بمنحها دوراً جديداً في كتابة اليوميات، وفي الافصاح عن شغفها السري بتمثيل ممارسة لحظات انوثتها مع

حبيبها خالد.
كتابة احلام لليوميات، تخرج من كونها لعبة سردية، الى مايشبه تمثيلها الواقع، فعيش أنوثتها المرتبكة، عبر ترددها بالبوح عن اسرارها التي ارادتها ''نوال'' أن تكون جزءا من الوظيفة السردية، لذا جعلتها القاصة تفشل في التدوين، وفي كتابة قصة جديدة، تتمثل وجودها داخل لعبة الورق، لأن ما حدث جعلها تعيش مفارقة الكتابة، لذا تحولت معها الى بؤرة رمزية للتعبير عن الذات، وعن ما تعيشه من خواءٍ وعجز، اصطدمت بالواقعية الشهوانية لخالد الذي يربط عجزه عن الحب بخيانتها مع امرأة أخرى، والتي تتحول الى ''وظيفة معادية'' لتبرير دفعها نحو الانخراط بشروط لعبة السرد التي تقترحها ''ايمان'' التي ترقب مايجري لصديقتها المتخيلة، وهي تعيش تداعيات الخيانة والمرض والمشفى الاحساس بالتعاسة والدونية، والتي تُنهيها الشخصية الأولى بالقول إن ما جرى هي احداث متخيلة وأن ابطالها كانوا من ورق..
اجادت القاصة تصميم حبكتها عبر ضبطها لإيقاع شخصياتها، ولإيحاءاتها في التعبير عن ما تحمله من دلالات مكثفة في مشهد القص، بوصفه مشهدا يُفيد من مكونات بصرية/ عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ومن مكونات رمزية تتمثل أزمة المرأة العاشقة، والمرأة الكاتبة، بمواجهة أزمات الخيانة والاغتراب الداخلي وسطوة المؤلف الخارجي الذي قد يكون المجتمع أو الآخر أو الطقوس الضاغطة..

القصة وسردية البحث عن الغائب:

في قصة ''إيلا'' للقاصة تماضر كريم تتحول ثيمة البحث عن الغائب الى موضوعة البحث عن الذات، عبر شفرة المكان المخفي، وعبر الإنشداد الى اسراره العالقة في الذاكرة كسيمياء غائرة، تتجلى عبر رائحة الأمكنة البغدادية التي تستعيدها القاصة تمثلا لاستعادة الهوية الغائبة، والإحساس بالوجود الناقص خارجها.
يتمثل صاحب التكتك شخصية ''المساعد'' في البحث عن الغائب، بوصفه توظيفا سرديا لبرنامج ''فلاديمير بروب'' فيؤدي وظيفة الناقل، أي البطل الظل، الذي ينخرط في عمل اسنادية داخل سردية البحث، وذلك بمرافقة السيدة المهاجرة ''إيلا'' وهي تبحث عن منزل أبيها القديم في احدى محلات بغداد الشعبية، بعد أن تم تهجير عائلتها.
التنقّل في محلات بغداد بواسطة التكتك، هي لعبة سردية لها إشارتها السيميائية، في مقاربة المنظور المكاني بوصفه تاريخا، فتتحول تلك الرحلة الى لعبة في الحفر داخل سردية المكان، وعبر الكشف عن خفايا المسكوت عنه في ذلك التاريخ العالق بذاكرة العنف والهجرات والطرد الهوياتي، وبما يجعل البحث عن المكان/ البيت البغدادي هو البحث السيميائي عن الذاكرة والوجود، وعن ما يضمره من حيوات اخفتها الأنساق المهيمنة، في التاريخ وفي المثيولوجيا.
العلاقة بين صاحب التكتك والسيدة المهاجرة تتحول من علاقة منفعة الى علاقة اشباع رمزي، ينتقل بها من النفي الى الاثبات، تجمعت فيها ملفوظات سردية غارقة بهواجس الرغبة بالكشف والتواصل والمعرفة، والتي جعلتها القاصة أكثر انفعالا عن طريق اختيار الأنثى للقيام بوظيفة الرحلة، وتحويل العلاقة من المكان الغائب الى علاقة تتقصى الاشباع والاكتمال، فتؤدي

الملفوظات السردية وظائف تعريفية للامكنة، وللشخصيات الغائبة، وبقدر ما أن القاصة لم تعمد الى البحث في عالم ''إيلا'' الشخصي، إلّا أن تمثيلها الوظيفي جعلها تؤدي دورا استعاديا، تقوم سرديته على اساس كسر ايقاع المفارقة الزمنية، وعلى اساس استنفار الذاكرة لتصنع زمنا نفسيا ظل هو المهيمن على تفاصيل القص، بدءا شغف العثور على المكان المخفي، والتجوال الاركيولوجي في عوالمه واسراره، وانتهاء بالعودة الى الفندق، وبقدر ما بدت هذه الرحلة محدودة، لكنها تحولت في السياق السردي الى رحلة قصٍّ عوليسي، غايته الكشف عن الغائب، واستعادة مايمكن أن تصنعه الرؤية السردية وهي تتجاوز مظاهر الحكي الى مظاهر المشاهدة..

سردية الاعتراف.. شغف الحلم:

في قصة ''أوراق امرأة'' للقاصة حسينة بنيان تتحول ثيمة الاعتراف الى بؤرة مركزية، تتحقق من خلالها القاصة معادلا سردي الايقاع حياتها المضطرب، والمشغول بوعي الجسد وشغفه، وبتحريضه على التمرد، إذ تجد في تتبع ايقاعه مغامرة تقوم على رصد يوميات امرأة تعيش عالم العزل، وعالم الحرب، وعالم علاقتها مع الأب والأخ، ومع القرينة التي تشاطرها لعبة ''السرد'' عبر ضمير المخاطب.

''اوراق امرأة'' هي عتبة عنوان تستكنه السري والأنوي في يوميات تحولاتها، مثلما هي شواغل لهواجسها العميقة، ولما تجاذبها من رغبات وصراعات، بدأت من بحثها عن ذاتها، وشغفها بتقليد الاولاد، وعلاقتها المراهِقة مع إبن الجيران، ولم تنته عند انفتاح وعيها على قراءات قصص الف ليلة وليلة والمنفلوطي، وما اصطنعه من قصص داخلية، كانت هي النظير لهويتها التي بدت أكثر دافعا لتشكيل حساسيتها بالعالم وبالأفكار الجديدة، وبصورة الرجل الآخر الذي بدا أكثر تمثيلا لخيبتها، ولوعيها الشقي الذي ربطه الأخ بتفسيرات مثيولوجية.

ثيمة التحوّل، ليست زمنية بالمعنى الكرنولوجي، بل باتت أكثر قربا ن صدمة الوعي، ومن سيمائية وجودها أمام عالم فقد كثيرا من ايقاعه الرتيب، ليصعد ايقاعها النفسي، المسكون بتساؤلات مفتوحة، وبهواجس البحث عن المكوث في البيت، أو في الحب، او عند عالم الرجل الذي اخذته لعنة الحرب، الى حيث الخراب والثكل والوجع، والعنف الطائفي، والى حيث الانتظار الذي يظل شغفا بالحلم وتوقا للبحث عن اشباعات رمزية، قد تأتي ''بعد رحيل السنين''

هذه القصة هي الاقرب لفكرة التكثيف، ولتحويل ''الأوراق'' الى مشهد استرجاع لايحكمه مونتاج محدد، بل استيهامات نفسية، تتواتر مع رغبتها بالبحث عن دوال رمزية، تتوزع بين الحب والنهر ورحلة القارب، وهي احالات نفسية وسيميائية تظل حمولاتها رهينة بالبحث الاشباعي التعويضي عن الوجود بوصفه وعيا بالزمن، أو زمنا شخصيا لما هو مدوّن في اوراق امرأة.

الوجه الثاني والقص الضدي:

في قصة ''الوجه الثاني'' للقاصة المصرية منال الأخرس تتحوّل واقعة تذكّر يوميات الثورة المصرية الى حافز سردي يكشف عن التباسات ماجرى، عبر تقانة استرجاع تلك اليوميات، إذ تتمثّل البنية الحوارية في مجال

تمثيلي لمواقف خلافية، حول مفهوم الثورة، وحول تأويلاتها، والتي جعلت من الوجه الثاني بدلالته السيميائية موجّها سرديا للكشف عن ما يمكن أن يحجبه ''الوجه الأول''

اعطت هذه القصة للديالوج بين الشخصيات بُعدا اعطى للسرد نكهة تعبيرية، تمثله الايقاع الضدي، الذي يقوم على الخرق، وعلى تتبع الحمولات الرمزية التي تُثيرها عنونة القصة، التي بدت وكأنها عتبة نصية مُستفِزة تقوم على سردنة ما يقترحه الوجه الثاني من مفارقات، يتعرّى فيها الوجه الأول، بوصفه وجه الثورة، وتمثيلا لتحولاتها الاجتماعية، وللهواجس التي كانت تتلبّسها شخصية ''نجاة'' وهي تتحدث عن ''المفارقة العجيبة'' وعن مظاهر السرقة والخطف والفقد التي حدثت ''اعقاب الثورة'' ورؤيتها لمفهوم الثورة الحقيقية، والارادة الصادقة في التغيير، وفي القضاء الفساد والظلم والألم والمرارة. تدخل سردية المفارقة عبر شخصية ''الرجل النادر'' الذي يعيش فوبيا الجنون، والخشية من الطبيب النفسي، وإحساسه بأنه مظلوم ومُهدَد، ومحاصر برزقه، حتى بدت هذه العلامات وكأنه تتحدث عن ضحية للسلطة، أو ربما هي اصطناع لشخصية مضطربة، يعيش هواجس الظلم مع ابنه، وكلاهما شخصيات مرسومة بنوع من السرد المجازي الذي يزاوج مابين الواقعية والغرائبية، ويكشف عن التمثيل السردي للتحولات الغائرة في خفايا عوالم ''الوجه الثاني''، عبر توظيف ثيمة الاعتراف، أو عبر تمثيل انوجادها في بنيات مكانية، لها حمولتها الرمزية، بدءا من ''ميدان التحرير'' و التصوير امام دبابة خلف دار الفضاء العالي، وصولا الى عيادة الطب النفسي التي تدخل في السياق السردي بوصفها خرقا للمكان المألوف، واستحضارا للمكان الاعترافي الذي يمكن يكشف عن المخفي والسري في الوقائع المضطربة، والحيوات المضطربة، وعند الشخصيات التي تعاني من اعراض وهلاوس بحثها عن الحب والاشباع العاطفي والرمزي..

الزمن الواقعي.. الزمن السردي:

في قصة ''زمن الشرفة'' للقاصة الجزائرية شميسة غربي يكتسب زمن القصّ بُعدا دلاليا مُفارِقا وذلك بتحوله الى ''زمن نفسي'' ينطوي على حمولات متعددة، تخصّ العين المراقبة من الأعلى، وتخصّ المكان/ الشرفة، مثلما تخصّ ''ندى الصباح'' التي تتحرّك في زمن ارضي، له احالاته الى الشارع الذي يمور بالفقراء والمتسولين والمدمنين، وكلُّهم يبحثون عن اشباعاتهم الرمزية والواقعية.

البحث عن الاشباه يتحول الى عنصر محرك للأحداث، إذ يدفع توظيف العين الرائية لرصد فنطازيا الشارع، والى توظيف الجسد العاطل وشحذه بالحياة/ الحركة، وهذه المعطيات تُدخل الزمن في علاقة سيميائية مع الأشخاص عبر توصيفهم، ف'' ايمن'' هو ضحية لشيء ما، يعيش عطالة عبر العين المُراقِبة، و''ندى الصباح'' الافريقية السوداء ضحية للفقر واللجوء، تعيش حياتها في الشارع بوصفه مكانا صيانيا، و''العمة'' هي اشباع حيوي يحضر في ملفوظات لعبة السرد بوصفه تعويضا عن الغياب والمرض.

تزمين لعبة السرد عبر حشرها في فضاء الشرفة، يجعلها محكومة بسردية ذهنية تقوم على تحويل حدث محدود/ الرؤية عبر الشرفة، الى واقعة سردية، أو الى

بؤرة سردية تتمثل عبرها المادة الحكائية واحالاتها النفسية التي تجعل من ''السرد البصري'' شهادة على وجود علاقة ايهامية مابين الشارع/ المجال السفلي، وبين الشرفة/ المجال العلوي، وكذلك علاقة ما بين عطالة جسد ''ايمن'' وبين الحركة الصاخبة لـ''ندى الصباح''. هذه العلاقات تنطوي على كثير من الانفعال، فهي ليست تمثيلا للقطات سريعة، أو ايهامات نفسية، بقدر ما هي استنفارات، تبدأ من فضول المشاهدة، الى ايقاظ الجسد وإتصال العمة، وشغب الرجل المدمن في الشارع، وصولا الى لحظته الحسية التي تسكنه بشغفها وهو '' يقف على قدميه، يتصبب عرقه، يحمّر وجهه، تنتفخ اوداجه، يتسمّر في وقفته، يراها من بعيد، والوعاء بين يديها، تمشي بخطواتها الواثقة، تمنى لو ترفع رأسها قليلا لتراه، ليلوح بإحدى يديه نحوها'' حرارة هذا السرد، تكشف عن طابعها الاشباعي، والاستفزازي، والتي تجعل من الجسد، أكثر تمردا على زمن الشرفة الراكد، للتماهي مع زمن الشارع الصاخب، إذ تتحول اليد الملوحة في الفراغ الى شفرة نداء للتعبير عن شغف التواصل.

---

* شاعر وناقد / رئيس اتحاد الأدباء والكتاب في العراق

في اعدادنا القادمة

ـ الصدأ / قصة من الخيال العلمي المستقبلي للكاتب الأمريكي جوزيف اميرج كليم ،، ترجمة : ناظم مزهر .

ـ في المشهد .. عبد الزهرة زكي / شاعرا ، ود.جاسم محمد جسام و إسماعيل إبراهيم عبد / نقادا .

ـ د. رهبة اسودي حسين / تكشف أوراق وحياة ومواقف عالم الاجتماع : د.شاكر مصطفى سليم .

ـ الكاتب المغربي محمد علمي يكتب عن رواية (أحلام) للروائي المغربي: إبراهيم حريري .

ـ الناقد صباح محسن جاسم / يناقش هوية ولعنة الحكام في رواية (الى المزاح اقرب) لطه حامد الشبيب .

ـ اثر الحليب/ نص : صادق الطريحي .

ـ حوار مع الكاتب الأمريكي المعاصر .. بول اوستر ، ترجمة : جواد وادي .

وهناك موضوعات ونصوص أخرى قيد القراءة .

خضير الحميري..
رسام الكاريكاتير الذي: (يدسُّ) أنفه في كل شأن..!

خالد خضير الصالحي

كتبت عن تجربة رسام الكاريكاتير العراقي خضير الحميري عدة مرات متفرقة؛ ولكنني الان اشعر ان جمْع شتاتِ ما كتبت في نص واحد بات حاجة ملحة لمتابعة النتاجات المستمرة، والتطورات المتلاحقة للرسام الحميري.

الطبيعة المزدوجة للكاريكاتير

كنا، وما زلنا، ننطلق من فرضية أولية بان فن الرسم الكاريكاتيري يشترك مع فنون الصحافة، وخاصة الصورة الفوتوغرافية الصحفية، بـ(ازدواج) الطبيعة ذاته، واجتماع التناقض بوجوب:

أولا، تحقق الاشتراطات المادية (الشيئية) التي تشكل الوجود الجوهري للرسم، وضمنه: الكاريكاتير والفوتوغرافيا لتتحقق صفة (الفنية)، وثانيا، تحقق الطبيعة التوثيقية بأهدافها النثرية والتسجيلية، وبذلك يكون الرسم الكاريكاتيري مؤسسا على الجمع بين: أولا، طبيعة العمل الفني، في توفر الاشتراطات الجمالية، وثانيا، طبيعة النص المدون المنشور في وسائل الصحافة بأهدافه الصحافية الإبلاغية.

الواقعة (البصر/مادية) للكاريكاتير

ان رسام الكاريكاتير خضير الحميري، في معرضه (كراسي) الذي أقامه في قاعة (رؤيا)، بان النتائج المتحققة، لهذا الجمع في الرسم الكاريكاتيري ينتج تواشجات نادرة، وتفاعلات بين وقائع تشكل بمجموعها الرسالة الكاريكاتيرية؛ فتتشكل شيئية الرسم الكاريكاتيري، او ماديته، غالبا من:

أولا، مادية الحبر الصيني بخطوطه، ومساحاته الداكنة، وتنتج أيضا عن: ثانيا، مادية اللون، الذي بدأ يخالط الحبر بدرجات متفاوتة، في الآونة الاخيرة، وتتضمن مادية الرسم كذلك: ثالثا، شكل الحروف التي يكتب بها الرسام تعليقاته، وان هذه الوقائع كلها، نعدها وقائع بصرية، وعلاماتية، غنية دلاليا، وذات طابع ثقافي متواطئ عليه في الثقافة الشعبية العراقية، وهو ما اعطى تجربة خضير الحميري فرادة أسلوبية متميزة.

كاريكاتيريو ما بعد غازي

لقد افرزت مرحلة سبعينيات القرن الماضي

في تاريخ الرسم الكاريكاتيري العراقي، ما اسميته (جيل ما بعد غازي) في الكاريكاتير العراقي، وهم رسامون مهمون فتحوا ابواب الحداثة في الكاريكاتير العراقي، ومنهم: نزار سليم، مؤيد نعمة، رائد نوري، بسام فرج، عبد الرحيم ياسر، منصور البكري، شهاب الحميري، خضير الحميري، كفاح محمود، ضياء الحجار، وقد كانت تأثيرات التجارب الكاريكاتيرية المصرية تدخل الكاريكاتير العراقي عبر المجلات المصرية التي كانت تصل العراق عن طريق مجلتي (روز اليوسف) و(صباح الخير)؛ فكانت توجهات غالبية جيل ما بعد غازي تقليلية، وقد يكونون متأثرين، في ذلك، بالاتجاهات التقليلية المصرية، التي يسميها خضير الحميري نفسه، (اللبادية)، نسبة الى الرسام المصري محيي الدين اللباد، وكانت هذه النزعة التقليلية قد اثرت على (واقعيي) الكاريكاتير العراقي: بسام فرج وخضير الحميري، وعلى (تجريديي) الكاريكاتير العراقي: مؤيد نعمة ورائد نوري وكفاح محمود، وخلقت جيلا يحاول ان ينتهج خطا وسطا محاولا تطوير اسلوب (غازوي) بطريقة مطورة ومحافظة على التفاصيل الضرورية.

تنوع اشتغالات الحميري

تتنوع اشتغالات خضير الحميري في حقل الكاريكاتير، الى طيف واسع يمتد من: القصص الصحفية الكاريكاتيرية (فيجرستوريـ/كاتيري) التي جعلت الكاتب حسن العاني يعد (الكاتب الصحفي) خضير الحميري ينافس (رسام الكاريكاتير) خضير الحميري، وهو نمط يمارسه الحميري، ولم يدخله ضمن كتابه الأخير (رسوم مندسة)، وربما يمكن ان يسعه كتاب قادم، وهي رسوم يصاحبها تعليق يقوم مقام القصة في توضيح مقاصد الرسام، وهو نمط قد يكون في الطرف (الآخر) للرسم (بدون تعليق)، وقد يوضع التعليق أحيانا بيافطة علوية تشكل فعليا عنوانا للرسم وشرحا لقصته، كما يتمثل التنوع في تعدد الياته المادية بالرسم: من خلال التكبير والتصغير حسب أهمية أبطاله في الحدث الكاريكاتيري، الى استخدام التحبير والمساحات المتباينة، الى استخدام الألوان بوعي، او تشكيل اللوحة من عدد متسلسل من الرسوم لتشكل باجتماعها موضوعا وسيناريو و(عملا) واحدا.

التعبير عن الروح المحلية

ما زالت دعاوى التعبير عن الروح المحلية فاعلة في منجز خضير الحميري، وان اختلفت، عما ساد الرسم العراقي منذ بداياته، فقد كان الحميري قادرا على صهر المحركات الشعبية (السرية) للثقافة العراقية بوعي عال، حتى انه لا يمكن تلقي العديد من نتاجاته الكاريكاتيرية من دون هضم دقائق الثقافة الشعبية العراقية، ولا يمكن استيعاب الأعمال المنشورة في كتاب (رسوم مندسة) دون الالتفات الى المرحلة التي أُنجز فيها كلُّ رسم، للربط بين التاريخ المثبت على الرسم وبين ما جرى من أحداث في ذلك التاريخ. فالحميري يعول كثيرا، على تلقي أعماله استنادا الى الخزين الثقافي في المجتمع العراقي، وخصوصية ذلك الخزين، الذي تلعب فيه: المفارقةُ، والنكتة، والطرائف، الثقلَ المحسوس، مما جعل ظهور الجاحظ، وغيره من كتاب النوادر الفكهة، انبثاقا طبيعيا في الثقافة العراقية، وهو ما يجعل

تلقي رسوم الحميري نابع من افق متوقع تبنته الثقافة الشعبية العراقية منذ القِدم، وهو ما يجيد الحميري التلاعب به، وعليه. ان المفارقة العالية في رسوم الحميري تثير بالقارئ متعة البحث عن (نسخة الحميري) من الواقع، واكتشاف اوهام توقعات ذلك القارئ، التي يجيد الحميري كسرها سواء بطريقة مضحكة، او محزنة ومبكية، بسبب التعارض المحزن بين واقع الحياة الذي يقدم الحميري نسخة منه بطريقة مبالغ بها، وبين النسخة اليوتوبية لأفق التوقع المقبول بشريا للحياة في حدها الأدنى.

الفكرة الواضحة والبعد الثقافي:

ينطوي هذا العمل على فكرتين، واحدة واضحة يتلقاها المتلقي البسيط او العابر، وفكرة غائرة تحتاج إلى درجة من التأهيل الثقافي، حيث يحيل الكتاب الظاهر في الصورة (قصة الفساد ج1)، واجزاؤه الموضوعة على الطاولة الى كتاب ديورانت (قصة الحضارة) بأجزائه العديدة كإشارة الى ان الفساد مديد تماما كقصة الحضارة الإنسانية.

(أبطال) أيقـونيــون! بلا بطولات.. وتاريخ بلا حوادث!!

يتخذ ابطال رسوم خضير الحميري تركيبتهم كأيقونة شكلية تتم صياغتها بعناية فائقة، فنماذجه التي يقدمها المرة تلو الأخرى انطوت على انزياحات شكلية اتخذت ثباتا ملفتا، ومؤثرا، فلقد نوهت في موضوع سابق الى العلامة التي اتخذها سياسيو العراق في تجربة الحميري كانت تتمثل بإكسسوارات متميزة تتألف من: نظارة (جعب استكان) او نظارة سوداء تخفي العيون. وانف معقوف مرتفع، لا يقصه السيف، كأنف السياسي.. وسبابة نافرة، كسبابة صدام حسين، وعلي عبد الله صالح، واعجاز كبيرة وصفها الرئيس العراقي الراحل جلال الطالباني بانها هي التي تملا الكرسي وتفيض فيتمسك بها الكرسي بقوة، وهي ترمز الى التنعم بأموال العراق، تلك الاعجاز التي كان والدي العامل الأمي يعدها علامة سيميائية للطبقات المتنفذة بالمجتمع العراقي ايام الخمسينيات؛ وكأن الطريق الى طبقة البرجوازيين لا يمر الا منها!، وان كل هذه السمات الشكلية تؤثث الفكرة، عند الحميري، وتهيء المتلقي للنظر الى الشخصية المحورية، التي تمثل صوت الشعب، التي تقع عليها أوزار الأفعال السيئة للسياسيين العراقيين، وهي شخصية العراقي (حنظلة)، الرجل المسحوق، الذي كانت اهم خصائصه الشكلية: الظهر المحدودب، والعرق المتصبب، والوجه (المجعوص)، واهم الانزياحات المخالفة لقواعد التشريح المتعارف عليه: شكل اليد المحنية عكس اتجاه المفصل، وكل هذه التوكيدات الشكلية يتلمسها المتلقي بسلاسة ودون ان يفكر بتفاصيلها، ان كانت تطابق القوانين التشريحية ام لا.

حنظلة الحميري!

غالبا ما يقوم الحميري بدس صورته، مثل (حنظلة) ناجي العلي، كنموذج للعراقي المسحوق الذي أفنى عمره ماشيا على قدميه، حاملا أوراقه، ومجرجرا نفسه خارج الورقة، التي تعني الوطن.

(رسوم مندسة).. تجربة مفارقة في الكاريكاتير العراقي

ان ما نشره خضير الحميري، في كتابه (رسوم مندسة)، تجربة مفارقة في الرسم الكاريكاتيري العراقي، فقد قسم الحميري

كتابه الى (فصول) عنونها بمقتبس نصي ربما تكون له علاقة مع رسوم كل فصل، وعلى المتلقي ان يستثمر فطنته وثقافته لإيجاد هذا الترابط، الذي سيكون شخصيا بالتأكيد، وهو كتاب لا يمكن الحديث عنه بل رؤيته بصريا، سوى انه يعرض تجربة الحميري من عام 2004 الى 2021.

ان اهم ما يميز تجربة الحميري قدرته في الوصول بالفكرة والشكل الى اشد درجات البساطة، مع القدرة على ان يشكل العمل دبوسا واخزا (يسميه رولان بارت الوخزاو البنكتوم (punctum))، وهو الذي يدفع المتلقي لاتخاذ موقف من قضية ما..

والبنكتوم (الواخز) هنا هي المفارقة التي نعدها العنصر الأهم الواجب توفره في الاعمال الأدبية، وهو يتنوع من البساطة، الى الطرافة، الى البعد الثقافي الذي يحتاج متلقيا مثقفا ومتعلما:

قوة الخط وقوة الفكرة.. وبساطتهما

تتوفر رسوم الحميري على اهم خصائص الخط القوي، فخطوطه القوية التي انتهت اليها تجربته هي ذاتها ما كان اكده الشاعر الرسام وليم بليك بان اهم عناصر الخط: ''القوة والبساطة''.. الحميري يمتلك هذين العنصرين بدراية وتمكن.

(رسوم مندسة) ترزم العراق في البومات

تؤكد سوزان سونتاغ في كتابها حول الفوتوغراف، بان الصور الفوتوغرافية، وهي ترزم العالم تلوح بانها تغري بالرزم، فهي تحبس في البومات، او تنشر في الصحف والمجلات، او يصنفها الناشرون في كتب، و''لعقود عديدة، كانت الكتب الطريقة الناجحة الأكثر في ترتيب (وعادة في تصغير) الصور الفوتوغرافية، لتضمن لها طول العمر ان لم يكن الخلود (ص11)، فلا تفقد الصورة الفوتوغرافية، كما هو الرسم الكاريكاتيري ميزاتها الجوهرية حين يعاد انتاجها في كتاب، بسبب انتفائها الى قضية النسخة الاصلية التي يشترطها وجود اللوحة، انه امر شديد الاهمية اذن ان تجمع نتاجات الرسام في كتاب يعصمها من الضياع، اولا، وييسر على الكتّاب والباحثين ان يجدوا كمّا كافيا من النتاج مجتمعا في مكان واحد، وهو ما فعله خضير الحميري. منذ صفحة الغلاف الأولى لكتاب (رسوم مندسة)، لا يكتفي الحميري بدس صوره ضمن الكتاب الالبوم، ولا يكتفي بدس انفه (الضخم) في كل شان، حاله في ذلك حال المثقف الباندي، نسبة الى جوليان باندا في كتابه الشهير (خيانة الاكليروس)، الذي يعد المثقفَ مسؤولا عن ابداء موقف بكل المشكلات الحياتية، بل لا يكتفي خضير الحميري بذلك، بل يدس نفسه في صورة الغلاف، وعلى القارئ؛ لأجل الحصول على جائزة وهمية منا، اكتشاف صورة الرسام في غلاف كتاب (رسوم مندسة)، في اقل من ثلاث ثوان.

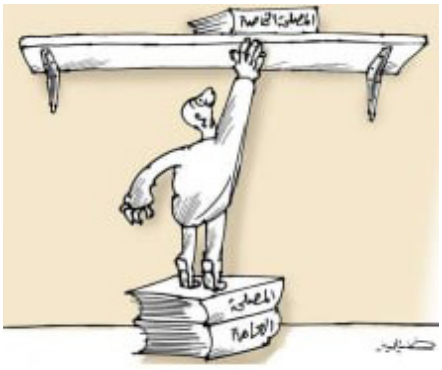

معرض (كراسي).. حرب الكراسي وحرب طروادة!

لا تتطلب عملية التلقي في حالة الكاريكاتير، برأينا، درجة من الانتظار المستسلم كتلك التي تشترط لتلقي الاشكال الخبيئة الكامنة في الغيوم، او السطوح الرثة، فتلقي الكاريكاتير لا يستلزم ذلك الا بشكل طفيف، حيث يستلزم تلقي خفايا ومستويات العمل الكاريكاتيري واكتشاف دلالاته السرية، يستلزم بحثا يماثل البحث عن اشكال الحيوانات والكائنات في الحيطان العتيقة، وفي الغيوم، وهي لعبة تتيح التمثل السلبي لحفريات الواقعة الفنية كآلية اولية فقط تهيئ عملية التلقي باتجاه تفعيل الطاقة التعبيرية لخفايا، ولحفريات (متعرجات) (frottage) سطح النص البصري دلاليا، وباتجاه عمقه الثقافي المسكوت عنه، على حد سواء، ونقصد بحفريات الرسم الكاريكاتيري: الصور، والعلامات البصرية، والمتواطئات الثقافية التي تشكل الدلالات الاعمق فيه، وهي كلها تحكمها نسختان من الواقع: اولا، نسخة الواقع العراقي المعيش كما يعيشه خضير الحميري، وثانيا، نسخة يوتوبية من الواقع وفق اشتراطاته التي تحققت للبشر في العالم المتحضر، وثالثا العمل الكاريكاتيري للحميري الذي يخفي قدرا ويظهر قدرا، وما بين الاظهار والاخفاء يؤسس للمفارقة (البنكتوم) الواخز الذي يكون مضحكا ومبكيا معا.

أنسنة الأشياء

لقد كنت، حيثما اريد الكتابة عن أنسنه الاشياء، يخطر ببالي، بشكل آلي، النحات ايف تانكي والنحات هنري مور، وكيف شاكلا بين اشكال الحصى واشكال البشر، فصارت اشكال الحصى كائنات تشعر وتفرح وتتألم، وايضا يخطر ببالي الرسام السوري يوسف عبدلكي، الذي تحولت بقايا الاسماك والحيوانات والاشياء عنده الى كائنات حية، تعقد صلات مع المتلقين، وايضا كيف تحول البشر الى كائنات بسحنة (بطاطية)، من دون تشديد الطاءات، في لوحة (آكلو البطاطا) لـ(فان كوخ)، بعد معرض (كراسي)، للحميري سأستخدم رسوم الحميري، في معرضه هذا، أنموذجا لأنسنه الاشياء، فلم تعد الكراسي ما كانت عليه سابقا، تكوينا يفيد جلوس البشر، ومصممة لتستوعب اعجازهم بمقاساتها (الطبقية) المختلفة، لقد صارت الكراسي، (بعد) الحميري، أمرا اخر مختلفا، كائنات بدأت: تختلف، وتتخاصم، وتصدر عنها مواقف شتى..

أنسنة الكراسي

لقد كتب الحميري عن الكراسي:

"الكرسي من أشهر قطع الأثاث وأكثرها ألفة واستخداما في حياتنا، فهو موجود في المقهى والرصيف والمطعم والمطبخ والصالة والمدرسة والدائرة والعيادة والوزارة و قاعة الاستقبال وقاعة المغادرة وقاعة البرلمان، وقاعة الامتحان ،وقاعة الانتظار، غير أنه

أُختصرَ(وربما شُوهَ) رمزيا على نطاق واسع بدلالة السلطة والهيمنة والنفوذ!.
وقد كان الكرسي حاضرا في مخيال الفنان التشكيلي لأسباب جمالية و فلسفية عديدة، ويُعد كرسي (فان كوخ) الأشهر بين الكراسي المرسومة، كما يُعد الكرسي ذو الرجل المكسورة أمام مبنى الأمم المتحدة في جنيف (لدانيال بيرست) الأشهر بين الكراسي المنحوتة، ودخل الكرسي في أعمال العديد من الفنانين الآخرين كبطل رئيسي للعمل الفني أو بصفة كومبارس، كما كان حاضرا في الأعمال الأدبية أيضا (قصصا وأشعارا ومسرحيات) بدلالته الرمزية أو الاجتماعية أو السياسية، ممدوحا مرة ومهجوا عشرات المرات. وقد تطور الكرسي تاريخيا من حجارة كبيرة طاب لأحد أجدادنا الأقدمين الجلوس عليها بعد أن شعر بألم في ركبتيه، الى (مسطبة) من الطين أو الحجر صنعها وطورها لاحقا الى (دكة) ثم (تخت) فكرسي بأربع قوائم بلا ذراعين ولا مسند، وبعد فترة نبتت له ذرعان واتكأ على مسند عريض، ثم آلت الأمور أخيرا الى كرسي يهتز ويُدَلِك ويدور ويمشي و.. يطير أحيانا!!".

تحولات نمط (التعليق)

رسوم الحميري الكاريكاتيرية، تحولات نمط (التعليق) الذي يرافق رسومه، فقد تجاوز هذا الرسام الانماط التقليدية: التعليق العادي الذي يكتب اسفل الرسم الكاريكاتيري، او اسلوب التعليق بالفقاعة او الفقاعتين للحوار بين شخصيتين، او اكثر، والتي تؤشر الى شخصية المتحدث بما يشبه السهم الذي يشير اليه، او اختفاء التعليق ليتحول وجوده الى عبارة (بدون تعليق)، الا ان التعليق عنده قد تحول الى (نص) له سمات إخبارية، او حكائية سردية، او معلوماتية، ولكن بأسلوب فكه كاريكاتيري وان كان في الغالب سوداويا حزينا..

وقد كتب الحميري عن :"الكرسي من أشهر قطع الأثاث وأكثرها إلفة واستخداما في حياتنا، غير أنه أُختصرَ(وربما شُوهَ) رمزيا على نطاق واسع بدلالة السلطة والهيمنة والنفوذ!.
وقد كان الكرسي حاضرا في مخيال الفنان التشكيلي لأسباب جمالية و فلسفية عديدة، ويُعد كرسي (فان كوخ) الأشهر بين الكراسي المرسومة، كما يُعد الكرسي ذو الرجل المكسورة أمام مبنى الأمم المتحدة في جنيف (لدانيال بيرست) الأشهر بين الكراسي المنحوتة، ودخل الكرسي في أعمال العديد من الفنانين الآخرين كبطل رئيسي للعمل الفني أو بصفة كومبارس، كما كان حاضرا في الأعمال الأدبية أيضا (قصصا وأشعارا ومسرحيات) بدلالته الرمزية أو الاجتماعية أو السياسية، ممدوحا مرة ومهجوا عشرات المرات.
وقد تطور الكرسي تاريخيا من حجارة كبيرة طاب لأحد أجدادنا الأقدمين الجلوس عليها بعد أن شعر بألم في ركبتيه، الى (مسطبة) من الطين أو الحجر صنعها وطورها لاحقا الى (دكة) ثم (تخت) فكرسي بأربع قوائم بلا ذراعين ولا مسند، وبعد فترة نبتت له ذرعان واتكأ على مسند عريض، ثم آلت الأمور أخيرا الى كرسي يهتز ويُدَلِك ويدور ويمشي و.. يطير أحيانا!!".
ان مقتضيات المصلحة العامة تقتضي بأنه كلما (راكمَ) السيد المسؤول من:
"مقتضيات المصلحة العامة"
و"خدمةً للصالح العام"

و‘‘ بناءً على متطلبات المصلحة العامة‘‘ كلما أصبحت مصلحته الخاصة في متناول اليد!!..
فساد هذه الفئة السياسية ! وإذا فَسُدت فان التخلص من بيضة واحدة منها لايجعلها صالحة .. ولذلك .. وحرصا على سلامة عائلتك الكريمة ننصحك بالتخلص منها كاملة.. مع (الكارتونة)!‘‘..

دكتوراه فخرية..

وصف الأكاديمي والإعلامي د. كاظم المقدادي في إحدى مقالاته الساخرة ظاهرة منح شهادات الدكتوراه الفخرية بأنها (منهج لإقصاء العقل الفعال.. بإحالة العلم والعلماء الى دكان البقال).. واتهم (فخرية) ومن لف لفها من شهادات المراسلة والمجاملة بأنها السبب في (استبعاد الجامعات العراقية عن المنافسة الدولية لتصنيف الجامعات الرصينة والموصوفة بالجهد والعلم والكمال).
وتضع الجامعات المرموقة شروطا لا يجوز الاخلال بها عند منح الدكتوراه الفخرية، فهي تخصص لشخصيات بذلت جهدا محمودا في مجال من المجالات يوازي (أو يتفوق) في مكانته جهد البحث العلمي وكتابة الرسالة وخوض غمار المناقشة، ولا تُمنح لمن تمنح لهم الا بعد سلسلة من إجراءات التقييم والمراجعة والتمحيص، ولا تعد شهادة تعويضية لمن فاتهم قطار الدكتوراه الفعلية، كما لا يحق للحاصل عليها استخدامها للحصول على عمل ولا استثمارها لتزيين اسمه بحرف (الدال) بأي حال من الأحوال.
فهي تمنح للشخصيات العامة ويفضل عدم منحها للشخصيات التي تلعب أدوارا سياسية أو شخصيات في مراكز السلطة منعا للتملق والابتزاز وفق الاتجاه البريطاني، كما تمنح للشخصيات العامة المؤثرة والشخصيات التي تقدم الدعم المالي السخي للجامعة لتحفيزها على الدعم المالي الأسخى وفق الاتجاه الأمريكي..
وتذكر الويكيبيديا إن الدكتوراه الفخرية منحت لأول مرة في العصور الوسطى الى رجل دين.. وهو أسقف سالزبوري!
ويبذل بعض طالبي الجاه جهدا (فاخرا) في طلب القرب من (فخرية) وكسب ود مانحيها تمهيدا للاقتران بها واقتيادها الى كليشة السي في.. بعد التقاط السيلفي!

تـرقيع

ابتدع العراقيون، ايام الحصار السوداء اساليب في (الترقيع) لا تخطر عل بال، ومنها كنموذج ترقيع تايرات (اطارات) السيارات القديمة التي كانوا يخرجونها من باطن الانهار، حيث كانت ومازالت تلقى!، ويخيطونها لدرجة انهم لا يتخلون عن اي تاير الا بعد ان (يخلع) اي تتهتك انسجته المعدنية الرابطة..
ويبدو ان النظام العراقي الحالي قد أبدع كثيرا في (تركيع)، اي ترتيق مؤسسات الدولة واحدة واحدة ليسلمها لأعضائه ممن لم يستكمل غالبيتهم حتى جزءا يسيرا من مؤهلاتهم المهنية..
رسام الكاريكاتير المبدع خضير الحميري يرسم محاولة (ركع) لمفوضية الانتخابات والتي يبدو انها بدأت (تخلع) الان..

---

*فنان وناقد تشكيلي عراقي يقيم حالياً في باريس

مسرحيات قصيرة جداً

طلال حسن

الدمية

انفجارات، عتمة، تدخل فتاة متربة، تحتضن دمية

الفتاة: يا ويلي، رصاص، قنابل ، صواريخ ، انهارت البيوت ، بل انهارت المدينة كلها ، و .. انهار السرداب ، واختفى كلّ شيء ، وسط دوامات الاصوات القاتلة والغبار والعتمة ، حتى القمر نفسه ، الذي كان يطل علينا، عبر الكوى التي فتحتها الانفجارات ، اختفى تماماً ، كما لو أن حوت الطفولة قد ابتلعته ، وهبّ الجميع من نومهم وأحلامهم ، يتصايحون ، لكن أصواتهم تخافتت ، ثم انطفأت تماماً ، ربما فروا جميعاً ، وربما طمرتهم الأنقاض، من يدري ، كانت طفلتي تنام إلى جانبي ، وقد احتضنت دميتها ، طفلتي كانت ، كما أردتها ، حتى وأنا طفلة في الثامنة من عمري ، على مثال صديقتي نهلة ، التي كانت تجلس إلى جانبي في الصف ، حنطية ، ذات عينين خضراوين ، وضحكة ككركرة الماء ، و .. مددت يديّ بسرعة ، في العتمة إليها ، ودوامة الأصوات القاتلة والغبار والموت ، وأخذتها إلى صدري ، هذا ما أردته ،ولذت بالفرار من الجحيم " تحدق في الدمية " هذه دميتها ، دمية رأيتها في واجهة محلّ راقٍ ، لا تدخله بي أمثال امي الخياطة ، في حيّ شعبيّ ، فأبي مات وأنا طفلة ، و .. " تحدق في الدمية بجنون " يا ويلي ، أين طفلتي ، كانت لتكون مثل أبيها ، حنطية ، ذات عينين خضراوين ، كان ابن جارتنا سليمة ، كان اكبر مني بسنوات ، ذهب إلى الحرب ، ولم يعد ، أيهذا ، الذي أخذتك الحرب المجنونة ، أين ابنتنا ؟ يا ويلي، لقد مددتُ يديّ ، وأخذتها إلى صدري ، هي ودميتها ، ها هي الدمية ، فأين هي ؟ أين ابنتي؟ يا ويلي، يبدو أنني لم أحمل غير الدمية هذه ، وتركت ابنتي ، التي تشبه فريال ، وتشبه .. " تصمت " ابنتي مازالت في السرداب ، حيث كنا نرقد، هرباً من الجحيم ، قبل أن يأتينا الجحيم ، بالدوامات والأصوات والغبار والعتمة ، " تهم بالخروج " سأذهب إليها ، لعلها ما زالت موجودة هناك ، تنتظر أن أعود إليها ، وانقذها من

الجحيم " تحاول عبثاً أن تتحرك ، وكأن هناك من يُمسك بها ويمنعها " دعوني ، دعوني أذهب إليها ، دعوني انقذ ابنتي " اصوت رصاص وانفجار قنابل وصواريخ " لا يهمني الرصاص ، لا يهمني أي شيء ، إنها ابنتي ، ويجب أن أنقذها ، لا يهمن أن أموت تحت الرصاص والقنابل والصواريخ ، المهم أن أنقذ ابنتي " تجثو باكية " دعوني .. دعوني .. دعوني .. " تسكت ثم ترفع رأسها " لعل من حسن الحظ .. أنني لم أتزوج .. ذهب إلى الحرب .. ولم يعد .. لم أتزوج .." تحدق في الدمية بجنون " هذه دميتها .. فأين هي .. أين ابنتي .. اين ابنتي " تتجه راكضة إلى الخارج " ابنتي .. إنني قادمة .. ابنتي .. ابنتي .. ابنتي ..

تخرج صارخة، أصوات رصاص وقنابل وصواريخ إظلام

*****

وعاد كودو
غرفة في دار للعجزة، خيرية ترقد في أحد الأسرة

الممرضة "تدخل وتقترب من خيرية": صباح الخير ..
خيرية: أهلاً بك ابنتي، أهلاً بك.
الممرضة: أنت اليوم أفضل.
خيرية "تهز رأسها" ....
الممرضة "تميل عليها": لديك زائر.
خيرية: زائر!
الممرضة: رجل ، جاء يسأل عنكِ.
خيرية: لم يسأل عني أحد منذ فترة طويلة.
الممرضة: يقول أنه يعرفك، ويريد أن يسلم عليكِ.
خيرية: أهلاً به ، فليتفضل.
الممرضة: إنه بالباب، سأدعوه حالاً .
خيرية "تراقبها متشوقة وهي تبتعد" ....
الممرضة "عند الباب": تفضل .
الرجل "يدخل": نعم ..
الممرضة: إنها تنتظرك ..
الرجل: أشكرك .
الممرضة: سأتركك معها، لكن لا تطل، إنها مريضة .
الرجل: خمس دقائق لا أكثر .
الممرضة "تخرج وتغلق الباب" ....
الرجل "يقترب من خيرية": صباح الخير.
خيرية "تحدق فيه": صباح النور.
الرجل "يحدق فيها كمن يبحث عن انسان كان يعرفه" ....
خيرية "تحدق فيه مذهولة": فتحي !
الرجل: نعم، أنا فتحي، يا خيرية .
خيرية: قالوا لي أنك فُقدت، وأنك ربما ..
الرجل: كنت في الأسر طوال هذه المدة ..
خيرية "تبكي بصمت"....
الرجل: لا تبكي ، يا خيرية ، لا تبكي.
خيرية "من خلال دموعها ": لقد خنتك، يا فتحي، خنت وعدي لك ..
الرجل " يهزّ رأسه أن لا" ....
خيرية: قلتُ لك، سأنتظرك، وقد انتظرتك، لكن الانتظار طال كثيراً، ولا من خبر عنك ، فزوجتني امي لابن خالتي.. "تجهش بالبكاء": صار لي ولد، اسميته فتحي، لكن ابني فتحي قتل في حرب الكويت.
الرجل "يمسك يديها": لا تبكي، يا خيرية ، كفكفي دموعك، دموعك غالية عندي ، كفكفي دموعك ..
خيرية "تكفكف دموعها" ....

الرجل ”طوال فترة أسري، لم تغيبي عني يوماً واحداً. كنت أفكر فيك دائماً، وعندما طال الأسر، ولم يعد لي أمل في العودة إليكِ قريباً، تمنيتُ بيني وبين نفسي، أن لا تبقي على وعدك لي، تمنيتُ أن تتزوجي، وتُسعدي في حياتك، يا خيرية ..
خيرية ”بمرارة“: وها أنا كما تراني، ولم يعد لي أحد في الحياة.
الرجل: لا تقولي هذا، يا خيرية ، لقد عدتُ لك وحدك، ولن تكوني وحيدة بعد الآن.

صمت، ما زال فتحي ، يُمسك يدي خيرية إظلام

*****

القطة
حديقة عامة، تدخل
امرأة عجوز رثة

المرأة وهي تبكي: ”يا عيني عليها ، ليتني مرضتُ بدلها ، إنها صغيرة،وجميلة وضعيفة ، لا تحتمل ، ولم تحتمل. ”تصمت“ سيأتي أحدهم ، فضولي ، وما أكثر الفضوليين ، وسيسألني، وكأني أهمه فعلاً ، لماذا تبكين؟ ”تنظر إلى شخص افتراضي“ وما شأنك أنت؟ ابتعد عني هذا أمر يخصني وحدي، ابتعد ، ابتعد. ”تصمت ثمّ ترقّ“ آه، يبدو انساناً طيباً ، يا لي من حمقاء ، ما كان لي أن أردّ عليه هكذا ، فأنا عادة أكون رقيقة مجاملة طيبة. ”ترفع رأسها إليه “ عفواً ، لا تؤاخذني ، مصابي كبير ، أكبر مما أحتمل ، رغم أنني احتملت الكثير. ”باكية“ لقد ماتت قطتي .. ماتت .. وتركتني وحيدة، آه. ”تصمت“ لا تصدقهم سيقولون لك ، إنها تكذب ، قطتها لم تمرض ، ولم تمت ، إذ ليس لها قطة في الاساس. ”بانكسار“ أنت مشغول؟ نعم فلك أسرتك لك زوجتك ، ولك أطفالك ، أما أنا فلم يكن لي غير تلك القطة ، وها هي قد رحلت ، تفضل اذهب ، رافقتك السلامة. ”تلوح له“ تحياتي إلى زوجتك وأطفالك ، وداعاً لا تنسني ، ربما سأكون هنا .. رافقتك السلامة. ”تصمت حزينة“ لا أحد يريد أن يصغي إليّ ، ربما سيقولون ، إنها قطة، مجرد قطة، لم تكن عندي مجرد، وإنما قطة ، عرفتها من فترة طويلة. ”تصمت“ رأيت قطة ، في بيتنا القديم ، وقد ولدت عدة قطيطات، ما أجملها، وكأي أم، كانت تدافع عن صغارها، وتخمش كلّ من يقترب منهم، لكن عندما اقتربت أنا من صغارها، لم تخمشني ، ولم تحذر مني، بل بدا وكأنها ارتاحت إليّ وقالت لي: أنتِ فتاة مسكينة طيبة، من أهل الله. أنت ملاك، خذي قطيطة من قطيطاتي الصغيرات. قلتُ لها أشكرك، إنني حائرة ، قطيطاتك كلها جميلة ، اختاري لي أنت واحدة ، والحقيقة أن عيني وقعت على قطيطة بالذات ، وتمنيت أن آخذها ، وكأن القطة عرفت ما تمنيته ، فقد دفعت لي تلك القطيطة نفسها ، وقالت لي ، خذي قطيطتي هذه ، ولتبقَ معك ، طول العمر ، فأنت ستكونين أرحم مني عليها ، خذيها ، نعم خذيها ” تصمت “ وأختها ، وفرحت جداً بها ، ورعيتها كأنها .. كأنها ابنتي ، وبقيت معي حتى في المنام ” تبكي “ واليوم ماتت ، لا أدري لماذا ، لماذا يموت أحباؤنا ؟ أخذوها مني ، اخذوها عنوة ، فهربت من دار العجزة ، هربت ولن أعود ثانية ، ” تتلفت حولها ” سيأتون إليّ ، إنهم يعرفون أنني هنا ، فلطالما تحدثت عن هذه الحديقة

ـ الجنة بصوت عال حتى مع نفسي ، إنهم يقولون عني ، أنني أكذب ، فليس عندي قطة ، ولم يكن عندي قطة في يوم من الأيام" تتجه إلى الخارج " فلأهرب ، قبل أن يأتي هؤلاء القتلة ، ويُعيدوني قسراً إلى دار العجزة " تخرج .

المرأة العجوز،
تخرج راكضة خائفة
إظلام

*****

حنان

الزوج ، الزوجة ، الطفل
على بساط الغرفة يرسم
الزوج: " يشير لزوجته أن الطفل يرسم " ....
الزوجة: " تهمس " نعم ، يرسم .
الزوج: " يهمس " ماذا يرسم ؟
الزوجة: " تهمس " من يدري .
الزوج: " يخاطب الطفل " بنيّ ..
الطفل: " يرسم ولا يردّ " ....
الزوجة: دعه ، إنه يرسم .
الزوج: إنه منهمك ، ليتني أعرف ما يرسمه .
الزوجة: حدثته عن الأخطبوط الأم ..
الزوج: " يعبس " ....
الزوجة: وقلت له ، إنها عندما تضع البيض ، تحرسه ولا تأكل ، وحين يفقس هذا البيض ، ويخرج صغارها إلى الحياة ، تنطفئ هي ، وتموت .
الزوج : مادام ابني يحب البحار ، وهو رجل ، لابد أنه يرسم شابة جميلة على الشاطئ .
الطفل: " يتوقف عن الرسم " ....
الزوجة: سنرى الآن ماذا كان يرسم .
الزوج: حدثنا ، يا بنيّ ، عما كنت ترسم .
الطفل: كنت أرسم جمال الأم ، وحنانها .
الزوجة: " تنظر إلى الزوج منتصرة" هذا ابني .
الطفل: رأيتُ تمثالاً صغيراً من العاج ، نحته مثّال اشوري ، قبل آلاف السنين .
الزوج: فرحاً " عرفته ، أنت ابني بحق
الزوجة: " تنظر إليه متسائلة " .....
الزوج:إنه يمثل تمثال فتاة شابة جميلة تبتسم ابتسامة ساحرة ، حتى أن البعض يسميها ، موناليزا العراق .
الزوجة: " تعبس " ....
الطفل: كلا ، ليس هذا التمثال .
الزوجة: " تبدو فرحة " ....
الزوج: أي تمثال عاجيّ إذن ؟
الطفل: تمثال عجل ..
الزوج: " يعبس " عجل !
الزوجة: " تكتم ضحكتها " ....
الطفل: عجل صغير ، يرضع من أمه ، والأم تدير رأسها ، وتنظر إليه بحنان .
الزوجة: " تبتسم " ابني فنان ، يحس بمشاعر الأم ، وهو احساس انسانيّ راق .
الزوج: " يأخذ ما رسمه الطفل ويتأمله بارتياح : آه أحسنت ، يا بني ، لقد رسمت حنان الأم ، كما جسده الفنان الآشوري ، في منحوتته المشهورة هذه ، أنت نينويّ بالفطرة ، يا بنيّ .

الزوجة تنظر إلى اللوحة
فرحة ، ثم تأخذ الطفل وتقبله
إظلام

السينما والرواية

(هيرمانوس وإيشيغورو) ألق المخرج الياباني كوروساوا في فيلم «العيش»

علي المسعود*

غالبا ما يتم استذكار المخرج العبقري (أكيرا كوروساوا) في روائعه السينمائية عن اليابان الإقطاعية وعرض بطولة الساموراي، ولا يفوتنا فيلم المخرج الياباني "إيكيرو" عام (1952) المستوحى من رواية ليو تولستوي "موت إيفان إيليتش " عام 1886، الفيلم تدور أحداثه حول موظف حكومي بيروقراطي يلعب دوره الممثل المفضل للمخرج كوروساوا " شيمورا تاكاشي " وهو يحاول إيجاد معنى لحياته عندما يكتشف حقيقة احتضاره بعد تشخيص أصابته بمرض السرطان. عندما صنع كوروساوا فيلمه لم يسرد القصة نفسها تماما ولكنه نقلها من سان بطرسبورغ عام 1886 الى طوكيو التي دمرتها الحرب العالمية الثانية. يسرد كوروساوا عن محاولة لإيجاد معنى للحياة لحظة مواجهة الموت، وفي الوقت نفسه يتوهج في لحظته التاريخية التي كانت في عصر إعادة البناء في اليابان.

إعادة إنتاج مثل هذا الفيلم التحفة فعلاً مجازفة كبيرة وجرأة من المخرج الجنوب أفريقي "أوليفرهيرمانوس" حين أعاد هذه التحفة الفنية معتمداً على سيناريو كتبه الروائي الياباني-الانكليزي الجنسية "كازو إيشيغورو" الكاتب الحائز على جائزة نوبل، المولود في ناغازاكي باليابان عام 1954 قبل أن يهاجر إلى بريطانيا عام 1960 مع والديه. بعد كتابة روايتين تستكشفان الثقافة اليابانية، كتب إيشيغورو في عام 1989 رواية "بقايا اليوم" باللغة الإنجليزية التي تم الإشادة بها التى تحولت فيما بعد لفيلم سينمائى ناجح من بطولة "أنتونى هوبكنز" و"إيما تومسون" عام 1993. لطالما بنى كاتب سيناريو جسورا بين الثقافة الإنجليزية والثقافة في وطنه اليابان وهو الذي اقترح على المخرج أوليفر هيرمانوس فكرة إعادة إنتاج مفترضة لفيلم أكيرا كوروساوا الكلاسيكي إيكيرو (لايف) الذي صدر في عام 1952، ونجح " إيشيغورا مع

المخرج في تكيفه وتصوير أحداث رائعة كيروساوا في لندن الصاخبة عام 1950. في سيناريوه، ينقل كازو إيشيغورو ببساطة حبكة المعيشة من طوكيو إلى لندن، لكنه يحتفظ الفترة نفسها، سنوات فترة ما بعد الحرب مباشرة. هكذا يبدأ الفيلم من منصة محطة قطار في ضواحي لندن. نتابع رجل يرتدي بدلة مخططة وقبعة مثبتة على جمجمته، السيد ويليامز"بيل ناي" المسؤول عن التخطيط لإعادة بناء مدينة تضررت من تفجيرات الحرب العالمية الثانية. االذي يقدمه في الفيلم الأصلي تاكاشي شيمورا. اختار المخرج هيرمانوس إعادة سرد الفيلم الياباني الأصلي لعام 1952 في لندن وفي فترة بعد الحرب العامية الثانية في عام 1953، وافتتح القصة بمونتاج محبب رائع لما يعرف الآن بمعالم لندن السياحية التي لم تشوهها ناطحات السحاب وإعلاناتها الضوئية. وتبرز مهارة المخرج" هيرمانوس في الالتزام بالدقة التاريخية من خلال كل إطار والتقاط تفاصيل تلك الفترة بكل بدقة ، من المكياج إلى الأزياء والعادات والمركبات وعربات القطار .

حكاية الفيلم :

تدور أحداث الفيلم في لندن وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية التي دمرتها. وتظهر المدينة المدمرة وهي تتعافى بشكل بطيء في ذلك الوقت. رودني وليامز (بيل ناي) موظف حكومي كبير ولكنه بيروقراطي وغير مبدع في عملية إعادة البناء. رجل عجوز متحفظ كان لسنوات مرتبطا بأخلاقيات الواجب كمسؤول حكومي. في المشهد الافتتاحي في لندن في الخمسينيات، في وقت الصباح وعندما شاهدنا لأول مرة على السيد ويليامز (ناي) من خلال نافذة القطار ينقل رجال أعمال يرتدون ملابس أنيقة حاملين حقائب سوداء في إحدى محطات القطار في لندن عام 1953. وجه صارم وثابت ولغة جسد شديدة بنفس القدر، وقليل الكلام وبصوت منخفض، يظهر السيد ويليامز يستعد لركوب قطار للوصول إلى مكتبه في مجلس مدينة لندن ويستقل زملاؤه في المكتب القطار نفسه، الموظف الجديد بيتر واكيلينج (أليكس شارب)، يتعرف على شخصية رئيسه من خلال أحاديث زملائه في العمل ميدلتون (أدريان رولينز)، هارت (أوليفر كريس)، وروسبريدجر (هوبرت بيرتون) الذين انضموا إليه في رحلته إلى المدينة. سرعان ما نكتشف أن السيد ويليامز يفضل الحفاظ على مسافة بينه وبين العاملين معه لذا يتجنب مشاركتهم المقصورة ذاتها معهم، مما يثبت شخصيته خلال الدقائق القليلة الأولى من الفيلم . يؤسس الممثل ناي شخصية السيد ويليامز ببراعة عن طريق تعامله مع موظفيه في مكتبه وهم يأخذون القطار كل يوم. السيد ويليامز (ناي)، مشرف في مكتب حكومي ويشرف على مجموعة من الرجال وامرأة واحدة، يجلسون حول طاولات مكدسة بمجلدات الملفات والوثائق. في اليوم الأول من عمل الموظف الجديد بيتر واكيلينج (أليكس شارب) في المكتب الاشغال في مجلس بلدية لندن ونتابع الوافد الجديد بيتر واكيلينج حيث يبدأ في تعلم طريقة عمل المكتب. بمجرد وصولهم إلى المكتب يأخذون جميعا إشارات من رئيسهم - كما تفعل زميلتهم مارغريت هاريس (إيمي لو وود) ويميلون بهدوء وكفاءة إلى الملفات

المرمية والمهملة في دائرة الأشغال العامة في مجلس البلدية .

السيد ويليامز يحظى باحترام ومكانة كبيرين، يضمن إكمال كل إجراء يقوم به فريقه الصغير بأقصى قدر من الكفاءة ويتم اتباع الإجراءات بشكل روتيني . وفي الوقت نفسه ، يبدو غافلا عن الكابوس البيروقراطي الذي يعاني منه السكان المحليون ، وبالتحديد مجموعة من النساء المحليات اللواتي يحاولنَّ الحصول على تصريح لتحويل منطقة صغيرة تم قصفها في الغارات الجوية إلى بارك وملعب للاطفال . اليوم الأول لواكيلينغ في العمل مقيدا بشكل محبط في مهمته لمساعدة ثلاث نساء في سعيهن للحصول على الموافقة على التماسهن لملعب للأطفال . رحلة الرباعي حول المبنى هي دراسة حالة في الالتفاف البيروقراطي والركود، مع عدم وجود أحد على استعداد لتحمل المسؤولية وكل شيء ينتهي بالضبط حيث بدأ. في مثل هذا النظام يتم إحباط اي خطوة للتطوير والتقدم عمدا بسبب اللامبالاة والروتين. ومع ذلك ، تبدأ النقلة الكبير بخبر مزعج حين يهز التشخيص القاتم لحالة السيد ويليامز المرضية ويجعله يسترجع كيف مرت عليه الحياة لأنه مشغول جدا بالعمل وما قيمة الحياة من دون أنجاز يخلده . في موعده الفحص الطبي مع طبيبه المتابع حالته الذي يصارحه بتشخيص مرض السرطان وأمامه ستة أشهر فقط للعيش. المشاعرالتي التقطها المخرج الجنوب أفريقي أوليفر هيرمانوس بشكل جميل، تكمن في غياب البكاء أو النحيب عندما يعلم ويليامز بحالته والفترة القصيرة الباقية من حياته ، وحتى في سكونه فإن ألمه وندمه واضحان ، يتدرب السيد ويليامز على إخبار ابنه وزوجة ابنه اللذان يعيشان معه بحالته المرضية . مفرداته منكمشة للغاية ومحدودة للغاية والكلمة الوحيدة التي يمكنه التفكير فيها لوصف الموقف هي الـ ”تحمل“ . يغرق في التفكير في الماضي وهو جالس بلا حراك وبصمت في الظلام .

السيد ويليامز لديه ابن مايكل (بارني فيشويك) لكنه لا يستطيع أن يخبر الفتى عن تشخيصه، إلى جانب ذلك ، يتصرف هو وزوجته فيونا (باتسي فيران) كما لو كان والده ميتا بالفعل ويضعان بالفعل خططا لميراثهم . بعد تلقي الأخبار السيئة عن صحته يقوم ويليامز بأخذ إجازة من العمل ويسحب نصف مدخرات حياته والتوجه الى شاطئ مدينة برايتون، حيث يلتقي بكاتب مسرحي شاب يدعى ساذرلاند (توم بيرك) الذي يخبره بوضعه الصحي، ينصحه الكاتب ساذرلاند في العيش والتمتع بالايام الباقية من عمره، يأخذه في جولة ليلية الى حانات وملاهي الرقص وحضور العروض المسرحية الكوميدية. وفي ملهى ليلي رث يغني بارتعاش الأغنية التقليدية (يا شجرة روان). ولكن بعد عودته إلى لندن يقرر تغيير طريقه معيشته واستئناف حياته العادية بأفضل ما يستطيع، حين يصادف مارغريت هاريس (إيمي لو وود) الموظفة السابقة في مكتبه وتعمل الأن بوظيفة نادلة على أمل في أن تصبح مديرة مطعم، في البداية يدعوها لتناول العشاء وبعدها الذهاب سوية إلى السينما، من الواضح أنهما يستمتعان بصحبة بعضهما البعض. يقوم كاتب السيناريو كازو إيشيغورو بعمل رائع

عندما يتعلق الأمر بعرض ماضي ويليامز ويكشف شيئا فشيئا عن ذكرياته وكل المشاعر التي كدسها بداخله بعد أن يتلقى الأخبار السيئة من طبيبه، السيد ويليامز يشرع في تحقيق أقصى استفادة من وقته المتبقي على قيد الحياة. في فيلم '' العيش '' يقرر ويليامز نقل مشروع الملعب من الحفظ في الادراج الى واقع التنفيذ وتحقيق رغبة الأمهات في تحويل فناء موبوء بالقوارض إلى حديقة مناسبة للأطفال المحليين. يتسابق مع الزمن في الدوران على الأقسام المختلفة في مجلس المدينة للحصول على الموافقة على المشروع و استحصال الموافقات.

واحدة من أكثر اللحظات حساسية في الفيلم الأنيق تحدث خلال لقاء في جنازة ويليامز بين الأبن مايكل ومارغريت. كانت وفاة الرجل بمثابة الصدمة له. ويشعر مايكل بالدمار عندما يدرك أن والده لم يكن قادرا على الكشف عن هذه الحقيقة الأكثر أهمية وحميمية لابنه. عليه أن يقترب من مارغريت ليكون مستنيرا فيما يتعلق بمرض والده والتعرف على الأشهر الأخيرة: ''هل كان والدي يعلم أنه مريض؟ أ، وهل كان يحتضر؟ ولو كان يعرف لماذا لا يخبرني؟'' ترسم على وجهه علامات العار والحيرة . قبل عشر دقائق من إنتهاء الفيلم نرى الملعب المكتمل بعد أن أثمرت جهود ويليامز في بنائه في أحد الأحياء الفقيرة. ونشاهده جالساً على أرجوحة الأطفال وهو يغني لنفسه أغنية اسكتلندية مستحضرا فيها شريط حياته ، بينما يقف من بعيد شرطي يراقبه في جو ضبابي وهو دامع العينين . اللقطة الافتتاحية للسيد ويليامز على الارجوحة في الحديقة التي ساهم في بنائها تتكرر في ختام الفيلم، ثم تتحول الكاميرا ببطء نحو الأطفال الذين يلعبون في مكان قريب والتواصل مع أمهاتهم.. مشهد مؤثر ودافئ. اللحظة الانفرادية، تذكير بأن الأشياء البسيطة في الحياة هي التي تجلب أكبر قدر من الفرح والذكريات التي نعتز بها أكثر. هذه الرسالة المهمة لفيلم ''العيش'' لأوليفر هيرمانوس.

الحياة والعيش بها بين رؤية المخرج الياباني أكيرساوا والمخرج هيرمانوس:

قد يبدأ بعض رواد السينما في المقارنات مع نسخة جديدة من (أكيرو) أو ''العيش ''، الذي كتبه و أحرجه أكيرا كوروساوا العظيم بالأبيض والأسود في عام 1952، تتمثل فضيلة فيلم المخرج هيرمانوس في احترام جوهر حكاية كوروساوا طوال الفيلم وامتلاك أوجه التشابه مع الثقافة اليابانية مع إدخال الهوية الإنجليزية في قلب السيناريو. ربما ساعدت هذه المهمة كثيرا كازو إيشيغورو كونه ياباني و يعيش في المملكة المتحدة وهذا هو أحد مفاتيح النجاح للنسخة الانكليزية . يركز كوروساوا بشكل أساسي على جانبين: البحث عن الهوية وانتقاد البيروقراطية. الأول يسلط الضوء على إنسانيته وإيمانه بأنه حتى أكثر البشر ''شيوعا'' يمكنهم تغيير حياته بالقيام بشيء من أجل الصالح العام، وبالتالي يكون له تأثير على حياة الآخرين يبرر وجوده بشكل أساسي في هذا العالم وألاكثر دهشة في نسخة كوروساوا اعترافه بالبيروقراطية الخانقة في العمل الحكومي قبل سبعين عاما. يستمد ''إيكيرو'' قوته التي لا تقدر بثمن من التوتر بين اتساع الحياة وصغر ما

نختار القيام بها.
الدراما البريطانية العاطفية المؤثرة المقتبسة من قبل الكاتب كازو إيشيغورو من فيلم أكيرا كوروساوا الكلاسيكي إيكيرو والذي يعني ''العيش'' باللغة اليابانية، في جوهرها ميلودراما عن الفناء والندم والحزن والفرح. اتجاه هيرمانوس في التعاطف مع الشخصية الرئيسية بعمق في آن واحد وينطبق الشيء نفسه على دور ناي الذي يؤسس تماما شخصية السيد ويليامز ببراعة. لذا فإن فكرة نقل فيلم كوروساوا من اليابان ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى بريطانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية أيضاً لها منطق. ومن الناحية العملية، هناك بعض الاهتمام الإثنوغرافي لهذه القصة التي كتبها إيشيغورو كازو الحائز على جائزة نوبل. شخصيات أفلام كوروساوا تميل إلى أن تكون أكثر وضوحا عاطفيا من تلك الموجودة في أفلام أخرى، يمكن القول الشيء نفسه في النسخة الانكليزية التي تميزت من ناحية التصوير السينمائي الرائع لجيمي رامزي الذي يبحث عن الجماليات في تكوين أطار المشهد أكثر من التمثيل السردي والمجاز وبشكل يغلفنا بالحنين إلى الماضي. على غرار فيلم كوروساوا ينجح سيناريو إيشيغورو بترك أثرا طيبا للسيد ويليامز بعد وفاته بعد أن عمل بعناد وثم محارباً شرساً للبيروقراطية من أجل بناء الملعب المقترح ما جعل زملاءه في العمل يتساءلون عما إذا كان رجل واحد يمكن أن يحدث مثل هذا الفرق والتأثير . في الأصل ، إيكيرو ينتهي بعدد قليل من الشخصيات التي تتعلم قيمة وأهمية الحياة على أكمل وجه ، ويدرك المشاهد كيف أحدثت شخصية شيمورا فرقا . وعلى النقيض من ذلك فإن رؤية إيشيغورو للعالم أكثر تفاؤلا من نظرة كوروساوا ، وهنا يكمن الفرق الكبير بين اقتباس إيشيغورو وفيلم كوروساوا. ومع ذلك، فإن كلا الفيلمين يحملان الرضا عن النفس.
فيلم ''المعيشة '' ترنيمة للحياة وعمل حزين لكنه في محطات يمنحنا الأمل والبهجة، واما نهايته فأنها تكشف لنا الجمال في أيامنا السريعة الزوال على الأرض . يقدم الممثل الانكليزي بيل ناي (الحاصل على جائزة بافتا مرتين وجائزة الغولدن غلوب مرة واحدة) أحد أفضل العروض في حياته المهنية وبأداء رائع و هادئ والبسيط ليس مبهرجا. الفروق الدقيقة والدفء والكاريزما التي يمنحها الى الشخصية وحركتها وقلقها في الحياة ولا يبالغ أبدا في أدائه لشخصية وليامز وسلوك شخصيته المتحفظ وأنماط الكلام الهادئة على طول مسار الفيلم بالكاد تتغير. بدلا من ذلك، يرفع الممثل مستوى طاقته الجسدية تماما كلما تبدأ صحة ويليامز في الأستنزاف ، عندها يعطينا المثل القدير ناي من خلال أدائه الرفيع تحولا دقيقاً في المواقف ، كذالك التحول الكبير في سلوك الشخصية التي رسمها ويليامز دائما عبر الصداقة مع امرأة شابة نابضة بالحياة. يختتم الفيلم بمؤثرات محملة بالصورللثلوج التي تتساقط فوق رأس يليامز وهو جالس في أرجوحة فارغة ويترنم بالاغنية الإسكتلندية الحزينة. كل شيء من التصوير السينمائي إلى تصميم الأزياء إلى الإضاءة وحتى السرعة البطيئة يساهم بشكل كبير في تلوين المشاهد بأسلوب مبهر.
الرسالة الاساسية التي يبعثها الفيلم هي سرد

الرواية عبر في قدرتنا على تغيير حياتنا إذا وجدنا الشجاعة والتصميم على المتابعة. ان الرجال الذين عملوا جنبا إلى جنب مع واتانابي لمدة ثلاثين عاما يدركون الدرس الذي تعلمه من دون ان يؤثر التشخيص القاتل على العيش بطريقة إيجابية، كاميرا مؤثرة وجذابة ورائعة بصريا بالقدر نفسه الذي يجعل الفيلم معزوفة تطرق قلبك مدة عرض الفيلم ، لهذا تظل نسخة المخرج الياباني العبقري عرضا رائعا لإنسانيته ولقدرته على تجريد شخصياته من أوهامها وتحيزاتها ، عندما يجد واتانابي في أكثر مشاهد فيلم " إيكيرو " التي لا تمحى نفسه وحيدا في إحدى الليالي على أرجوحة في الملعب الذي جعله ممكنا ، يبدو الأمر وكأننا نرى هذه الشخصية بالكامل لأول مرة ، ماضيه المستقيم وحاضره الحزين ينهار في إطار واحد مدمر ، رجل عجوز يغني أغنية عن طفولته وسط الثلج الذي ينث بياضه . تلك الرحلة السينمائية الممتعة بشكل مدهش . في المقابل ، عندما يتم تشخيص إصابة السيد ويليامز بسرطان قاتل ومنحه بضعة أشهر للعيش فإن الطريقة التي يلعب بها هيرمانوس وإيشيغورو المشهد لا تناقض مع طريقة كوروساوا.

في فيلم "إيكيرو"، حين يخبر الطبيب كانجي واتانابي بحالته المرضية يهون الأمر عليه ويصفها أنها مجرد قرحة، والحقيقة هي كذبة لأن التشخيص الصحيح كان سرطان المعدة مع ذلك يخط اليأس آثاره على وجه شيمورا. ولكن في النسخة الحديثة "العيش"، الطبيب يخبر السيد ويليامز بحالته المرضية بشكل واضح حين يقول: "الأمر ليس سهلا أبدا". على غرار فيلم كوروساوا، تصبح نتيجة تصرفات واتانابي أكثر وضوحا في الجزء الاخير من الفيلم الذي يتكشف اثناء جنازته. كان كوروساوا ناقدا اجتماعيا أكثر صرامة. في الوقت الذي أخرج فيه إيكيرو كانت راديكاليته السياسية واضحة، الفيلم الذي أعطاه عنواناً "معنى العيش" جاء بعد سنوات قليلة من إسقاط القنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي". في "مشاهد الحياة الليلية في طوكيو على وجه الخصوص يلمح إيكيرو إلى اليأس والهستيريا و يكشف بطريقته الخاصة عن أهوال الحرب . وهي وجهة نظر المخرج العظيم كيروساوا في الخضوع للسلطة وعدم نكران الذات وهو الامر الذي قاد اليابانيين إلى كارثة الحرب.

---

*كاتب عراقي يقيم في المملكة المتحدة

المعلم

جودت جالي

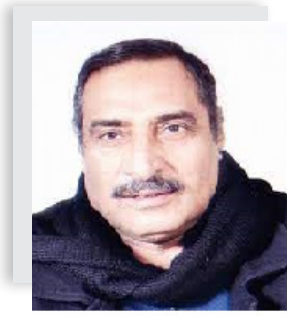

وقف مسؤول اللِحام خليل، عند طرف ماكنة التفريز بين ناجي مسؤول الخراطة وعامله وحيد. كان خليل في وقفته تلك مهيمنا بطوله الفارع على الإثنين، مائلا بعض الشيء برأسه الضخم نحو وحيد وقد ضيق عينيه بمكر وهو يقول بصوت خفيض متوعد:

-"أتقول أنت ما قلته لي اليوم عن ناجي أم أقول أنا؟"

ران الصمت ثقيلا على الثلاثة، وقد زاده وطأةً السكونُ الذي عم سقيفة مأوى القاطرات في ساعة الغداء بعد انسحاب عمال الصيانة الى غرفة الإستراحة. رفرفت حمامة في مكان ما على عوارض السقيفة الشاهقة، وعاد الصمت من جديد لا يشوبه سوى دمدمة بعيدة لقاطرة المناقلة التشيكية وصدى أكثر بعدا يبدو كما لو كان لجرس، في المحطة ربما. لم يكن ناجي في تلك الأثناء قد حول نظره عن وحيد. رأى كيف ارتبكت ملامحه أول مرة ثم استسلمت الى شحوب غيّر لون بشرته قاتمة السمرة الى لون بني، وقد ثبت عينيه على غطاء الماكنة بينهما، كانتا عينين تركز فيهما كل الشعور بقسوة السؤال المفاجئ الفاضحة، وإذا كانت هذه الطلعة السمجة من قبل خليل أبو راس، حتى ولو كانت مزاحا، غير متوقعة بالنسبة الى الشاب وحيد ذي الخمسة وعشرين عاما فإن ناجي الذي يعرف خليل من أيام دراستهما معا في المعهد لم يكن ليجدها غريبة أن تصدر منه، وليست سوى مقلب من مقالبه التي يدمن على إيقاع الآخرين فيها، لولا أنه فعلها معه هذه المرة. الحقيقة أنها كانت مفاجئة له هو أيضا. لقد أبقى بينه وبين خليل دائما على مسافة ثابتة لا تبيح لهذا أن يمازحه، مسافة تحكمها صرامة لا يمكن حتى لخليل الفوضوي تجاوزها، ولكن يبدو أن عامله تفوه بحماقة مكنت خليل من أن يعبرها بخطوة واحدة. خلال عشرين عاما، إذا صادف ان يكونا معا في موقع العمل نفسه، كلما دار نقاش بينهما غالبا ما كان ناجي يخرج رابحا، وفي أول شبابهما كان كثيرا ما يوبخ خليل على انغماسه في حياة شقق العزاب، سكر ومعاشرة البغايا، وعلى ميوله السياسية الفوضوية. الآن وبعد هذه السنين، كما كانا من قبل، لا أحقاد، على الأقل من جانب ناجي، فللعِشرة عنده اعتبار، غير أن الشيخوخة لم تخفف من لؤم خليل وميله للسخرية وإنْ رمت بثقلها عليه، وقد منحه وحيد فرصة العمر ولا شك، يمكنه أن يدرك من إطراق وحيد أنه

فعل. التفت ناجي ببطء نحو خليل الذي كان لا يزال ينظر مبتسما الى وحيد الذي أصبح لا يدري أين يذهب بوجهه عنه. كان يعذبه بنظرة التشفي الواخزة تلك ويستمتع غاية الإستمتاع، وتدريجيا تحولت الخيبة التي استحوذت على حواس ناجي مما فعله وحيد الى حقد على خليل، لأول مرة في حياته يحقد عليه، وربما كان سيدفعه ويطرده لو بقي واقفا مكانه ولكن خليل، وقد اكتفى بما حصل عليه من متعة التشفي، بدد الصمت فجأة قائلا لوحيد: ”سأذهب لكي تبقيا وحدكما وتقول له بنفسك ما قلته لي عنه“. ودون أن ينظر الى ناجي خرج متوجها الى ورشته بخطوات أثقلتها البدانة.

بقي ناجي للحظات مثبتا نظره على الفراغ الذي خلفه خليل، فكر أن يسأل الولد ما الذي قاله ويخلصه من الإحراج، لقد قال شيئا ما، ثم ماذا؟

-ماذا قلت له؟

رفع وحيد بصره اليه بنظرة خالها ناجي تعبيرا عن امتنان خجول لأنه طلب منه أن يتكلم ويقول ما قال فلا يبقى الأمر سرا وفي هذا بعض الراحة. قال:

-قلت له أنك مخبل... لا أ.... لم....

وراح بتمتمة بضعة حروف لعله أراد أن يبرر أو يعتذر ولكنه لم يستطع، وما لفت انتباه ناجي أن وحيد لم يبدأ مخاطبته له ككل مرة بكلمة ”إستادي“ مثلما تجاهل خليل مخاطبته بكنيته لأول مرة على قدر ما تسعفه ذاكرته منذ أن التقيا بعد توظفهما وكانا قد تزوجا وأنجبا وأصبح لكل منهما كنية. لقد تفهم ناجي استبعاد وحيد كلمة ”إستادي“ من اعترافه إذ ستكون نشازا في الإعتراف، فكر بمسحة من السخرية المرة، ”إستادي أنت مخبل“، بذل جهدا ليمنع نفسه من الضحك أو الإبتسام:

-لقد أدخلت السرور على قلب خليل كما لم يدخله أحد عليه من قبل... هو الآن جالس يضحك علي وعليك....

سكت للحظات. لم يسأله ما السبب أو ما كان موضوع حديثهما الذي أدى به الى أن يصفه بهذا الوصف لأنه لم يكن يريد أن يزيد الأمور سوءا بينه وبين عامله بكشف الكثير وهو لم يبق على صدور أمر إعادته الى بغداد إلا أيام قليلة بعد أن قدم طلبا بذلك لرغبته في قضاء ما تبقى من خدمته في مدينته بغداد، كما أنه وبعد قليل من التفكير رأى أن وصفه بالمخبل ليس شيئا جديدا باستثناء أن وحيد هو الذي قاله هذه المرة، فجميع من في المعمل يرون فيه شخصا غريب الأطوار لتشدده في تطبيق أوامر العمل وتدقيقه في مواصفات العمل المنجز ورفضه لكثير من العروض للقيام بأشغال على مكائن المعمل لأناس مقابل مبالغ مالية تحسن وضعه المادي، بل بالعكس كان ينفذ أعمالا خارجية للدائرة بعقود رسمية ويعطي أحيانا المكافآت التي يحصل عليها للعمال الذين يقومون بالعمل معه ومنهم وحيد. نعم هو مخبل لأنه مشغوف بالكمال، مع ذلك كان ناجي يتساهل مع وحيد في العمل وأوقات الدوام ويسمح له بالإنصراف قبل نهايته ليذهب للعمل في السوق ليعيل أهله وعائلته ويوفر العلاج لوالده. لكن هذا الإستثناء لم يكن بلا مبرر برأي ناجي.

قال له: ”إذهب الآن وأعد درجة طاولة التفريز الى الصفر ونظفها من البرادة“.

واستدار متوجها الى خارج السقيفة من ناحية الأرض الفضاء حيث تمتد خطوط السكك متوازية ومتداخلة حتى المحطة وحيث تترامى على مد البصر من الجانبين أرض برية محاذية للصحراء لا شيء فيها من العمران

سوى بضعة بيوت لعوائل عمال السكك من اليمين ومركز شرطة من اليسار وعند الأفق المحطة. لن يأتي قطار إلا بعد ساعتين والخطوط خلت حتى من قاطرات المناقلة. ذهب الى أبعد مما يذهب عادة حين يكون بحاجة الى أن يختلي بنفسه. جلس على طرف إحدى عوارض السكة الكونكريتية ومد رجليه على الأرض الحصوية. لقد شعر بأن شيئا حميما بينه وبين وحيد قد تلاشى، كما يتلاشى شيء بين أب وابنه بعد خيبة أو خذلان، نعم بين أب وإبنه، لطالما شعر بأنه فعل لوحيد ما يفعله الأب لإبنه، لقد علمه الصنعة وهو طفل صغير عندما كان في معقل البصرة، ليس هو فقط بل مجموعة من أبناء عمال السكك لا تتجاوز أعمارهم الرابعة عشرة لكي يكونوا بدلاء عن آبائهم وتبقى عوائلهم في دور السكك الصغيرة ذات القباب إذا ما مات الأب أو أحيل على التقاعد. فما الذي يفعله الأب لإبنه أفضل من أن يضمن له موردا ويعلمه صنعة يعيل بها فيما بعد زوجة وأطفالا؟

كانوا ستة علمهم كيف يكونوا أسطوات بارعين، وأشرف على عملهم أربع سنوات، فتيان كان يسرهم أن يكلفهم بعمل فيسارعون لتنفيذه بمرح وسرعة، يدفارد المسيحي الأنمش الأشقر الذي كان ناجي يعطيه ثمن ربع قالب ثلج في ساعة الإستراحة كل يوم في الصيف ليذهب الى شارع المحطة من جهة القصور بيوت كبار الموظفين ذات الطراز الإنكليزي الكولونيالي، ويشتريه من بائع الثلج ويوصله الى بيته، يضعه على العتبة ويطرق الباب وينصت وعندما يتأكد من أن أحدا قادم لفتح الباب ينصرف سريعا على دراجته عائدا الى المعمل، لم يكن يدفارد يقبل أن يؤدي هذه الخدمة الى "إستاده" غيره، وكاظم ابن الحداد الأسود كالباذنجان ذو القلب الطيب كالورد الأبيض الذي كان يغني لنفسه أغاني الخشابة وهو واقف عند ماكنته المقشطة، وغازي إبن شلتاغ عامل صيانة مرجل القاطرات البخارية التي لم يبق منها في العمل آنذاك غير قاطرتين صغيرتين عتيقتين للمهمات ضمن المنطقة، شلتاغ الذي قضى سنوات خدمته الأخيرة في كآبة لأن زمن القاطرات البخارية ولى ولم تعد تتاح له الفرصة كثيرا ليظهر مهارته في تثبيت مسامير بدن المرجل المحمية حد الإحمرار بضربات مطرقته الضخمة، وربيع إبن الملا الذي إذا تغيب يوما افتقد الجميع نكاته ومرحه، و "عبادي خمسه ميل" ذو اليد الذهبية في العمل والقدم الذهبية في كرة القدم، نعم كرة القدم، فقد شكل ناجي من تلامذته وفتيان آخرين من أبناء حي القبب والحي المجاور الذي كان يسمى قديما حي الهنود فريق كرة قدم ينقسم الى فريقين ويجرون لعبة في ساحة البضائع أيام العطل يكون فيها هو المدرب وهو الحكم، مباراة هي الى المزاح الخشن والضحك المتواصل أقرب منها الى الرياضة. لكن لا شيء ينتهي نهاية طبيعية في حياته، وهو شخص يملأ عقول رجال الأمن بعلامات الإستفهام إذ يتملص من الإنتماء الى الحزب ومن الإلتحاق بقاطع الجيش الشعبي ودائما يتحدث بأحاديث مريبة وفي دولابه في دار الاستراحة كتب لا يفهمون ما فيها تبدو كأنها مخصصة لتعلم لغة ما.

جاء الأمر بنقله، بمبرر الحاجة الماسة الى خدماته ككل مرة، الى أبعد نقطة شمالا، محطة اليعربية داخل الحدود السورية حيث قضى سنوات عمله في فحص البضائع الآتية الى العراق، لا أحد عراقي هناك سواه ولا وسيلة له للتسلية غير التمشي في أوقات الفراغ في

البرية المحيطة بالمكان والذهاب الى القرية المجاورة، ثم تعرف على من يستطيع أن يأخذه الى مدن سورية قريبة لقضاء ساعات من الترفيه. كثيرا ما خطر على باله خلال حياته فيما بعد السؤال الذي لم يجد له جوابا مقنعا: ''لماذا لم يبق في سوريا أو يذهب الى دولة أخرى، أوربية، أو غيرها وكان في مقدوره ذلك؟''.

التقى بعد سنوات بوحيد في هذا المعمل حيث لم يتوقع أن يلتقي به بعيدا عن البصرة. عرف منه أن جميع ''الوِلد'' قد انتهوا نهاية مأساوية خلال الحرب. كاظم إبن الحداد أخذوه في قاطع جيش شعبي بديلا عن أخيه الأكبر الطالب في الكلية وحوصر القاطع بمجرد وصوله الى الجبهة ولم يعد منه أحد، وعبادي ذو القدم الذهبية فقد ساقيه في قصف تعرض له المأوى، وغازي أيضا مات فورا في نفس القصف حيث كان بجوار خزان الهايدروكاربون عند انفجاره، ويدفارد اختفى ولا يعرف أحد مصيره. تقول الإشاعة بأن رجال الأمن اعتقلوه وهو عائد من المدرسة المسائية في شارع فرعي بالأبِلّة دون معرفة السبب، وربيع ابن الملا اعتقلوه أيضا مع أهله كلهم بتهمة الانتماء الى حزب الدعوة. لم يبق منهم سوى وحيد ومن يومها كان الشعور المهيمن على ناجي هو الشعور الأبوي، نوعا ما يشبه شعور أب فقد أبناءه كلهم ولم يبق غير واحد منهم، حتى ألقى بينهما خليل ما ألقى اليوم.

نهض وسار عائدا الى المأوى. مر من أمام الأبواب الموارية ولم يدخل الى ورشته بل ذهب مباشرة الى ورشة اللحام. وجد خليل وحده يتناول غداءه، رفع خليل بصره نحوه ودفع الأكل الموضوع على قطعة من النايلون فوق الطاولة الحديدية ليكون في المنتصف بينه وبين ناجي ليأكل معه ، جلس ناجي قبالته وهز رأسه غير راغب في الأكل، لم يلح عليه خليل ولم يعلق بشيء بل واصل الأكل، خبز عروق وخضرة وكوب الشاي الكبير يتصاعد منه البخار. بعد قليل تمتم: ''إشرب شاي إذن''. رد ناجي وهو يحدجه بنظرة ثاقبة: ''لا أريد شايك....''. ثم بعد لحظات من الصمت المتأمل: ''.. أريد فقط أن أعرف لماذا فعلت هذا وأحرجت الولد؟ كان بإمكانك أن تقول لي بغير طريقة''. رفع خليل يده عن الأكل ونظر نظرة برم الى ناجي:

-''لأنك لا يمكن أن تتفهم ما يدور حولك إلا بصدمة كهذه، ولكي تصدق حين أقول لك....''

والتفت نحو الباب المفتوح ليرى إن كان يوجد أحد قريب في الممر

- ''تقول لي ماذا؟''

-''حين أقول لك أنه ليس الملاك الذي تتصوره؟''

-''لم أتصور أحدا ملاكا في حياتي.. هو عامل ماهر واعتمد عليه فحسب. فما الذي تقصد؟''.

-''أقصد أنه لا يختلف عن غيره من الذين حولك بالإضافة الى أنه يوصل ''اليهم'' بانتظام أخبارا عنك''.

حاول ناجي أن يحافظ على نظرة ثابتة وأن يتظاهر بلا مبالاة ومسحة من البرود على ملامحه:- ''من هم هؤلاء الذين يوصل اليهم أخباري؟''.

-''أحقا لا تعرف يا ناجي؟''.

أشار ناجي بيده إشارة التهوين من الأمر:

-'' هم يعرفون منذ زمن بعيد أني لا أنتمي لأي حزب''.

-''حسن، ولكن سلوكك لا يقنعهم بذلك. أنت تتحدث وتناقش كما كنت تتحدث وتناقش

في الأيام الخوالي. صحيح أنك لا تتحدث بالماركسية والماوية وما شابه، ولكنك تبقى ترببهم لأنك لست منهم وأثقف".

-"أظنهم ممتنون لي لأني أعدت تشغيل معمل أصابته أعطال كثيرة في القصف، ولا تنس أن السكك مثل مجتمع... مثل حي واحد أو عشيرة واحدة، نعرف بعضنا بعضا، وهؤلاء الذين تقصدهم بعضهم زملاؤنا من أيام المعهد والآخرون عملنا معهم سويا. انقرض الجيل القديم والآن معارفنا المسؤولون عنا مباشرة...."

وانحنى ليكمل قائلا: ".. بيني وبينك، فلينقل اليهم بعض الأخبار غير الضارة ليكسب ثقتهم ويكون آمنا منهم ويعيش وعائلته بسلام. وإذا تسألني فأنا موافق".

اعتدل في جلسته وقد شعت ابتسامة الرضا من ملامحه كلها. فكر بأنه سوّى المسألة وأفسد على خليل النشوة التي كان يشعر بها قبل قليل، بينما قابله خليل بابتسامة أخرى، ساخرة ومتعجبة في الوقت نفسه:

-أعتقد أن وصفك بالمخبل بعد كل ما قدمته له من مساعدات لا يدل على أنه يمتنع عن التسبب بأذى لك...

قاطعه ناجي:- أنت استدرجته... أنا أعرفك. رويت له بعض المجازفات التي قمنا بها في شبابنا وجعلته يعلق بهذه الكلمة من باب التعجب أو الإعجاب.

يعرف ناجي في قرارة نفسه أنه لا يريد أن يمنح خليل فرصة الشعور بأنه نجح حتى ولو بمجرد إزعاجه.

في هذه الأثناء بدا خليل كأنه يفكر فيما سيقوله مليا:

-إبق على وضعك.. وأوهامك.. إبق في ظنك إنهم يقدرونك لأنك تعيد الحياة الى المصانع وما الى ذلك من السوالف. هل يقدرونك حقا في حين لم تبق محافظة فيها سكك إلا ونقلوك اليها؟ ألست الى الآن تسكن في بغداد مشتملا ملحقا ببيت شقيقتك؟...ثم هل تتصور أنهم لا يعرفون بأنك تسمح لوحيد، وأحيانا، لعمال آخرين بالخروج من المعمل. أتظن أنك أنت المتفضل عليه؟ في الواقع أنهم يعرفون وموافقون ليستفيدوا منه وقت الحاجة.

هز ناجي يده مستخفا بقول خليل ونهض متوجها نحو الباب.

عندما تجاوز الباب ببضع خطوات توقف. فكر بأن من الأفضل له أن يضع نهاية للأمر ويجعله طي النسيان، لقد أثار ذكريات جعلته متألما. مع ذلك، ربما لم يقصد وحيد أن يمسه بكلامه وقد أفلتت منه كلمة لعلها متداولة في هذا الزمن في أحاديث الشبان وليس لها عندهم في شطحات الأحاديث المعنى القاصد للإهانة الذي لدى جيله، أما كلام خليل ففيه طبعا ما يستحق الإهتمام ولا يستبعد في قرارة نفسه أن يكون متأثرا لأجله، فهو صديقه القديم، ولكن بعد كل شيء لم يبق له في هذا المكان إلا أيام معدودة، فليدعها تنقضي مريحة.

دخل الى الورشة الفسيحة التي تتوزع بمحاذاة جدرانها المكائن. رأى بطرف عينه وحيد جالسا حيث كان يجلس عمال الورشة عادة لتناول الطعام في وقت الإستراحة، قبل أن يتركوا العمل في السكك الى العمل في السوق لقلة المرتب. منضدة من الحديد مستطيلة منخفضة كالطاولة وعلى جانبيها مسطبتين من الحديد أيضا بمستوى المنضدة. لم يلتفت نحو وحيد وتوجه نحو المخرطة كأنه ينوي التأكد من تنظيفها متظاهرا بتلمس حاملة أدوات القطع وهناك أطرق محاولا السيطرة على ارتباك تفجر داخله فجأة. سمع وحيد

يقول بصوت بدا له متوجسا، لا بل فيه نبرة التوسل، توسل الرضا الذي لم يستطع التعبير عنه قبل قليل:
- إستادي... تفضل الغداء.... لا يبرد..
تذكر ناجي أنهما بالأمس اتفقا على أن يجلب وحيد غداءا من البيت فجلب أكلة بصرية من الرز وسمك الصبور والمقبلات. ابتسم ناجي حين تذكر البصرة لكنه أخفى ابتسامته حين استدار وتوجه الى حيث يجلس وحيد وجلس أمامه. سمى بإسم الله وتناول صمونة. قال وهو يأخذ منها قطعة:
-بعد الغداء إربط أداة القطع، التي جلبتُها بالأمس، على ماكنة التفريز لعمل الشغلة التي جاءت طلبيتها الخارجية من معمل الطابوق.... الترس المخروطي.
وهز سبابته بوجه وحيد قائلا:
-يجب أن تنتبه كيف أعملها... هذه من الأشغال المطلوبة كثيرا.
هز وحيد رأسه وقد تملكه الإرتياح إذ أدرك أن ''إستاده'' قد جعل كل ما حدث وقيل للتو خلف ظهره، ولمعرفته بطبعه ومزاجه، رجح أنه قلب صفحة جديدة كما فعل في أحيان كثيرة ليسير العمل دون منغصات شخصية، ولن يحرجه ويطلب منه أن يحكي له السبب الذي جعله يقول عنه تلك الكلمة الجارحة في لحظة طيش. أخذ يأكل بشهيته المعتادة ويهيئ نفسه ليتعلم بذهن مفتوح كيف ينجز ''إستاده'' الشغلة.

*****

بعد ثلاث سنوات أتم ناجي أربعين عاما في الخدمة وقدم طلبا للإحالة على التقاعد، وفي ذات يوم وهو يراجع لإستلام معاملته والذهاب بها الى دائرة التقاعد التقى في الممر الطويل للقسم الإداري بخليل الذي كان يراجع أيضا للغرض نفسه. سأله ناجي عن وحيد فانقبضت ملامح خليل وأطرق قليلا قبل أن يجيب:
-لقد توفي في العام الماضي بمرض أصابه بشلل الساقين أولا ثم توفي.
سأل ناجي متعجبا:
-ما هذا المرض الذي قتل شابا نشطا كوحيد لم أره يوما مريضا.
-لا أدري بالضبط... ربما من الإرهاق فهو يعمل في الدائرة ثم يذهب للعمل في محلات التصليح، وعمل الخراطة كله وقوف وتعرض للدخان والأبخرة....
وبعد أن سعل قليلا:
-بعد أن توفي إقترح البعض على زوجته أن تتعين في الدائرة مُعينةً لتبقى واطفالها ساكنة في بيت مجمع السكك، ولكنها أخذت أطفالها وعادت الى البصرة.
ذهب ناجي ما أن واتته الفرصة ليترك خليل الى إحدى الحدائق الصغيرة المحيطة بالبناية، واختار ركنا منزويا جلس فيه على مسطبة كونكريتية. شعر بألم طاغ لهذه النهاية المأساوية، مأساة يعرف أن آلاف العوائل الآن تنتهي بها نهايات يضع عليها القدر لمسات مختلفة، وتذكر الأولاد الستة، أحباءه الصغار، بينهم وحيد ولدا صغيرا، وهو معهم يصفر بصفارته خلف عربات البضائع وهم يتسابقون نحو الكرة وتتخاطف حولها أقدامهم الغضة أو يتوقفون حين يمر موكب عرس يضج بالموسيقى والهلاهل على شارع جزيرة السندباد ويعلقون ويتضاحكون، وفجأة انهالت دموعه وأخذ يتمتم:
كانوا أطفالا.... مجرد أطفال....

كانون الثاني 2023

جرّة غاز تكفي للغياب

سعد جاسم *

- الى روح صادق هدايت -

عندما أَصبحَ هواءُ العالمِ
فاسداً وخانقاً وقبيحاً
قرّرَ (صادق هدايت)
السارِدُ الفارسيُّ الامهرُ والاخطرُ
في فضاءِ الحكاياتِ
والرواياتِ والمهازلِ الأرضية
قلتُ : كانَ الصادقُ قدْ قرَّرَ :
أَن يستحمَ بجرّةِ غازٍ وطني
حتى يشتعلَ جسدُهُ المقهورُ
كطائرِ فينيقٍ عنيدٍ
دائماً ينهضُ من رمادِهِ
ويستحيلُ شعلةً وهّاجَةً
تُضيءُ ظلامَ الشرقِ الكئيب
وبلادَ فارسٍ المُحترقة
من هولِ الفتنِ والمآربِ
والذرائعِ والفجائعِ
والحروبِ المريرةِ
التي جعلتِ الناسَ
يكرهونَ أَنفسَهم وبلدانَهم
وكلَّ شيءٍ فيها
لمْ يروا من جوهرِهِ الغامضِ
أَيَّةَ نافذةٍ للأمل
أَو باباً للخلاصِ

أَو كوّةً لتنفسِ هواءٍ
ليسَ فاسداً ولا خانقاً
ولا قاتلاً مثلَ هواءِ البلادِ
وجرارِ غازاتِها غيرِ الصالحة
للاستحمامِ والتنفّسِ
والموتِ العميقْ
وأَعْني : الموتَ السعيد
الذي اختارَهُ " صادقُ هدايت"
بمحضِ رغبتِهِ الباسلةِ
وإرادتِهِ الحديديةِ
للتحرّرِ والتحليقِ من بلادٍ
لا رغبةُ فيها ولا أيّ مزاجٍ
لإنسانٍ مثل " هدايت"
و " فروخ فرخ زاد"
الشاعرةُ السينمائية المغدورة
و لا " كَوكَوش " الجميلة

و ” قاسملو“ الشاعرُ العنيد
وغيرهم الكَثيرون جداً
نعم، ليس لأَيٍّ من هؤلاءِ
الطاقةُ والقدرة
على العيشِ في تلكَ البلادِ
التي ينبغي أَنْ تُسَمّى
بلادَ النارِ
وبلادَ الموتِ:
حرقاً
وشنقاً
وخنقاً
وبلادَ الغيابِ الاختياري
سواءً بالغازِ الوطني
او بأحزمةِ الضحكِ الانتحاري
آآآآهٍ ...
يا الصادق بن هدايتْ
لقدْ جارتِ الدنيا عليكَ
وأَطبقتْ علينا بفخاخِها
ومخالبِها ورحاها
ثمَّ عاثتْ بمصائرِنا
وعلى رؤوسِنا الجريحةِ
غارتْ ثمَّ داسَتْ
آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآهِ
ياصادقَ هدايَتْ

• شاعر عراقي يقيم في كندا

حارسُ الناس*

عبد الرزاق الربيعي - مسقط

إلى فضل خلف جبر

عندما كنّا جنديين
نحرّس بوّابات الوطن المخلّعة
وثغوره غير المبتسمة
من لصوصه الهواة
غلبني النعاس
فأدخلتُ فوّهة البندقية
في قلمي الجاف
ووضعتهما في جيبي
ووضعتُ رأسي
على وسادة كونكريتية
ومن دون "أحلام سعيدة"
تغطّيتُ
بما يتيسّر من صور شهداء
حديثي الولادة
قلت له: ياحارس الناس
سأغيبُ قليلا
أمّا أنت فواصل
يقظتك
وكنْ حذرا
من كلاب الليل
خذْ بالك
من اللصوص...
فيجيبني:
- لا عليك
أنا لها
وستكون لهم
الفرضة والشعيرة
والشعر
بالمرصاد
....
نمتُ...
فيما ظلّ
يحرسُ رأسي من الصداع
والكرة الأرضية
من الإنجراف
وروحي
من التقهقر...
....
أمس تذكّرنا هذا
عندما كنّا نتحاورُ
في منطقة محايدة

كانت ساعتي تشير :
صباحا بتوقيت مسقط
وساعته تشير:
مساء بتوقيت كولومبوس
وكانت صور لصوص الوطن الكبار
بشواربهم الكثيفة
وثغورهم الباسمة
تملأ الشاشات
- لا تبتئس أخاه
قال لي...
للوطن ربّ يحرسه...
وحين عسعس الليل
في سريره
وتنفّس الصباح
على حائطي
قال لي:
حان الوقت
لأتركك وحدك
تحرس بوّابة الأرض
خذْ بالك...
لاتسدّ فوهة قلمك
فلصوص العالم يتكاثرون
مثل وباء
بخلية واحدة!
وعندما يحين رقادك
ايقظني
لنحرسَ العالم

---

* ملاحظة: العنوان إحالة إلى عنوان ديوان الصديق الشاعر فضل خلف جبر الجديد
"رسول الناس"

وظيفة الصورة البلاغية في قصص «بئر برهوت»لجابر محمد جابر: تحليل سيميولوجي

عبد الغفار العطوي

ما هي السيميولوجيا؟ وما هو التحليل السيميولوجي؟ وكيف نخضع النص الأدبي (القصصي) لمفاهيمه النظرية؟! هذه أسئلة نضعها، و نحن نعاين المجموعة القصصية (قصص قصيرة جداً) للقاص جابر محمد جابر (بئر برهوت)[1] في تحليل سيميولوجي بشكل موجز، عرف برنار توسان السيميولوجيا بـ (علم العلامات)، أو هو (علم يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية)[2]، و قد نشأت السيميولوجيا في بدايتها متعلقة بكيفية عمل اللغة، الوسط الذي فيه التواصل عبرها، وكان الفضل يرجع في ذلك إلى العالم اللغوي السويسري فردينان دوسوسير بداية القرن العشرين، فهو أول من عرف السيميولوجيا كعلم يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، و هو تعريف تبناه كل السيميولوجيين بعده[3]. و بالنظر إلى تطورها صارت منهجاً نقدياً حديثاً يعنى بدراسة النصوص الأدبية، و غيرها من جوانبها المختلفة سيميولوجياً، أي إن السيميولوجيا هي نظرية عامة للأدلة وسيرها داخل الفكر، و هي نظرية للأدلة والمعنى و سيرها في المجتمع أيضاً[4]. كما عرفها كل من تودوروف و غريماس و جوليا كريستيفا و غيرهم وهي تدرس الأنظمة اللغوية ، و غير اللغوية ، و في مقدمة ذلك دراسة اللغات ، و يبدو إن موضوعها الرئيسي العلامة، و دورها يتلخص في بناء أنظمة عامة عن أنظمة الإبلاغ[5] رولان بارت له مساهمة واضحة في رد العلامات إلى اللسانيات، مما قلب أفكار سوسير التي كان يعتقد العكس أي إن اللسانيات هي عبارة عن منظومة من العلامات، واتجاه بارت في هذا الإجراء فتح المجال لدخول السيميولوجيا إلى عالم الأدبيات، و بذلك عدّت السيميولوجيا أحد المناهج التي اثبتت جدارة في شق الطريق النقدي، مستنداً على أسس لسانية وبنيوية و سيميولوجية، يقوم بتحليل النصوص، لهذا نجد إن المنهج السيميولوجي سلم بعدم

الفصل بين الشكل و المضمون كما كان يعتقد النظر السياقي في النقد التقليدي. و إذا كان الأدب يذهب إلى إن الدافع إلى المعنى الذي يعتقده الأديب صحياً بدرجة كافية، فهذا لا يعني الإيمان بأن الوصول إلى المعنى ليس إلزامياً إلا في حدود التصور البنائي في النص(- - -) و من أجل الاختصار نتعامل مع مشروع بارت السيميولوجي المعروف في تطبيق مفاهيم علم اللغة العام، في شكله البنيوي، على مجالات دلالية مختلفة موصولة بالحياة الاجتماعية و الأفراد و الجماعات الذي قدمته د. آمنة يوسف في كتابها (سيميائية النص القصصي)[6].

لندخل إلى دراسة مجموعة القاص جابر محمد جابر هذه، في سيميولوجية النصوص الموازية (عتبات النص أو العتبات النصية) و سيميولوجية الصورة ، في أنماط الصورة السيميولوجية و وظائفها القصصية (الصورة القصصية) لارتباطهما بالمفهوم البنيوي و العلاماتي الدلالي الذي يميز تجربة القاص في نوع سردي مختزل (علاقته بالقصة القصيرة) يطلق عليه (الأقصوصة أو الومضة أو القصة القصيرة جداً) والمفاهيم التي يستعملها بارت هي من علم اللغة، منها اللغة و الكلام و الدال و المدلول التي سيستخدمها الناقد السيميولوجي في تحليل النصوص الأدبية، أولاً بوصفها علامات وظيفية ترتبط ببنية عميقة في الحياة الاجتماعية، و تمثل الوسط الذي يستخدمه الناس للتواصل ، وفي تعاملنا مع مجموعة (بئر برهوت) لا نجد بعداً توصيفياً بين التحليل السيميولوجي وسواه من الأنشطة النقدية المعاصرة.

النصوص الموازية (عتبات النص، أو العتبات النصية بمفهوم جيرار جنيت) وهي عبارة عن مداخل أو بدايات للدخول إلى النصوص باللزوم ولها علاقة وظيفية، لذلك تعد علامات سيميولوجية لا يخلو منها أي نص أدبي، كذلك هي علامات ذات وظائف عديدة ، تتعدد بتعددها، و تتمايز بمستوياتها و قدراتها الفنية، وإمكانياتها الجمالية و سنختار ثلاثة نصوص من هذه المجموعة، هي عنوان التجنيس والعنوان الرئيس، و مقدمة - عنوان التجنيس الذي ووضع على غلاف الكتاب في الأسفل، باللون الأبيض و تحته خط، بوصفه من العلامات الإشارية الدالة على أهميته وهو أكثر العلامات و أغناها إثراء (كما بحثها امبرتو إيكو، و عدّها من العلامات الإيحائية و الإيمائية ذات الأهمية الكبرى في حياتنا اليومية – السيميولوجيا برنار توسان ص27) وبالتأكيد هذا النص الموازي للمتن يشكل لدى القاص جابر محمد جابر فارقاً في كتابة المتن، في التمايز الدلالي و السيميولوجي و الإشهاري، و لهذا العنوان ارتباط دقيق بالنص الرئيس، من حيث الإشكال الذي تفرضه صفة التجنيس القلقة (قصة قصيرة جداً تعريفها ، مرادفاتها علاقتها بالقصة القصيرة أصلاً) و مدار الجدل في كون هذه ال(جدا) هي عبارة عن 86 نصاً اهتمت باحتوائها على عناصر القصة القصيرة (الحدث ، اللغة ، الدال ، الشخصيات ، الإيحاء ، الومضة ، الكلام و الحوار و الزمن و المكان ..الخ) لإدراك القاص جابر بتطابق تعريف القصة القصيرة على الـ (جداً) مازال بعيد المنال ، يمكننا تعريفها إنها أقصوصة و هو نص سردي مختزل ، وظفه جابر محمد

جابر بعيداً عن ضفة التجنيس لوعيه إنها أقرب للشعر، وإنه الأكثر تعبيراً حتى عن الرواية في الحياة الاجتماعية ، و هو الدال السيميولوجي الذي اخترق النصية الأدبية الظاهرة إلى البنية العميقة التي تستقر في ثقافة المجتمع، القصص القصيرة جداً هذه المعلقة في الغلاف هي النص الموازي الأكثر فاعلية في مستويات العلامات التي رسمها المؤلف، لكن تظل هذه الاقصوصة بنية إشكالية عند الكثيرين من مرتاديها، وتاريخ نشأتها وتطورها وشيوعها في العالم كبديل محتمل لجميع الأجناس الأدبية جعلها تشعل عالم الأدب إشكالاً، خاصة في حمى الجدال في ثبوت تاريخية أصولية لها في العراق (تؤكد أغلب المصادر إنها كانت عراقية، أنظر: الأبد الأخضر، مئة قصة ومضة مترجمة من الإنكليزية لمجموعة من المؤلفين ترجمة د. عبد الستار عبد اللطيف) لتكون الأجواء ملتبسة و ملبدة بالنزاعات التي تعير جانباً للنزاعات الريادية بدلاً الاتجاه نحو تأصيل التجنيس و الإبداع في مجالاتها.

العنوان الرئيس (بئر برهوت) مع إن العنوان الرئيس العام (بئر برهوت) إشكالي في ذاته، بميله للتوصيف أكثر منه للإبلاغ بسبب قدرته في الدلالة، من كونه يستخدم في الخطاب الإشهاري العام الذي لا يفصح عن الالتباس بين الدلالة وعلم العلامة، و لتجاوز هذه العقبة، فإن العنوان هنا هو الذي يمثل العلامة ذات المستوى الإيحائي، المعبر عن الومضة و التوصيف الوظيفي سيميولوجياً، فيما يرغب القاص من تقديمه بنيويا على وفق مشروع بارت، حيث يؤكد سعي القاص هما من منظور سيميولوجي إلا أن الدال و الذي يحمل كل الإحالات التي تلتقي بالعنوان (بئر برهوت) في عموم الشر و الفساد، اللذين نجدهما في نصوص المجموعة (86) فالعنوان هنا قد اتكأ على جملة من العلامات التي هي أنظمة للتواصل والتي تشير إلى ماهوية البئر، وإحالاته اللسانية و الروائية والكلامية والكتابية والشفاهية والسردية والملحمية، كما عبر عنها رولان بارت في (مدخل إلى التحليل البنيوي للمسرود) إن المسرودات في العالم لا تعد ولا تحصى، فضلاً عن العلامات غير اللسانية وهي كذلك أنظمة للتواصل والتعبير غير اللسانية التي تتكاثر في مجتمعاتنا و بالخصوص على أشكال إيقونية (ما هي السيميولوجيا برنار توسان ص 20) التي تمثلت بشكل أوضح في العلامات

الإشارية، لكن مقصدية القاص في ماهوية العنوان أقره هو بدوره كعلامة دالة إبلاغية في المتن(الأقصوصة بالعنوان ذاته - عتبة عنوان داخلية بئر برهوت التسلسل 76) و حاول استغلال التفاعل البروكسيمي في ملء فضاء التوقعات الإيحائية حول سفره لـ (بئر برهوت) إلى موطنه البدائي (اليمن) كصحفي، تاركاً التأويلات في العلامات غير اللسانية التي، تنشط في حقل الإحالات الاجتماعية و الاسطورية والتاريخية و الثقافية.

مقدمة، وهو النص الموازي الثالث الذي اخترناه والذي يكشف المستوى الكلامي في الترابط السياقي القائم بين موظف الجمارك وأوسكار وايلد، وحوله المؤلف بسؤال لفظي إلى دال بلا مدلول بين، في ظاهرة صوتية مفردة، إذ لا رابط بين سؤال موظف الجمارك و إجابة الكاتب أوسكار وايلد والعنوان في النص الموازي هذا (مقدمة) من ناحية إن المقدمة والسؤال والإجابة كونت حقلاً من العلامات الدالة على عدة أصوات، يساير بعضها البعض في خط متواز، و لا تلتقي سوى في وصفها علامات إيحائية الخ.. وتظل النصوص الموازية (العتبات) الخارجية و الداخلية جميعها تمثل العلامات الرمزية التي تضفي على المتن معنى سيميولوجياًو بنيوياً .

الصورة الروائية والقصصية، أنماطها، ووظيفتها:

تمثل الصورة الحقل الأقرب في اللغة إلى المعنى، فإن كان المعنى تمثله الكلمات، كذلك تمثله الصورة، لأن الصورة طرف مهم من التشكيل اللغوي المحدد بالبعد البصري الذي ساد في بداية القرن العشرين كوسيلة متقنة ومعقدة من وسائل التعبير التواصلي الذي تبرزه اللغة بمعناها السيميولوجي الأكثر إيحائية في إطار التداولية التي تمارسها الأنظمة اللغوية التي أنشأها علم العلامات وعلم اللسانيات، لكن الصورة موضوع قديم، أستخدم لأغراض متعددة.

ان مفهوم الصورة في تعبير نورمان فريدمان يعني استعادة ذهنية لإحساس أنتجه إدراك فيزيقي[7] فإدراك أحدنا للون مثلاً هو بمثابة تسجيل صورة لذلك اللون في الذهن، بسبب إن الاحساس الذاتي الذي اختبره الشخص هو إدراكه لنسخة ظاهرية أو انعكاس اللون الموضوعي ذاته، وللصورة أنماط ووظائف، وقد دخلت مع البناء السردي (الروائي و القصصي) في عملية الكتابة، وشكلت إحدى تقنيات الكتابة السردية في السرد و التبئير مثلاً، وعرفت الصورة السردية (القصصية) بحضورها القديم في هذا الجنس الأدبي، أولاً في تكون الصورة، والتحدث بالخصوص عن الصور البلاغية التي أشار إليها جيرار جينيه لارتباطها بالخطاب الحكائي، موضحاً إن عمله يمشي في سياق بلاغة جديدة ، بنا حاجة إليها، وهي لا تنفصل عما يمكن تسميته بسيميوطيقا الخطابات بكل أنواعها[8].

وتظهر عقبة التمييز بين الصورة والرمز في العمل القصصي، من الضروري التنبيه إليها هنا، من حيث إن الصورة القصصية تتعلق بالمحسوس في شخصيات وأحداث وأشياء يتجسد فيها الموضوع على وفق

رأي غراهام هو في (الحكاية الرمزية)، لأن ذاك التمييز يبين لنا كيف تتحول الصورة إلى ملامسة الشخوص والوقائع السردية وغيرها، و التي يستحيل النفاد إليها بدون الصورة، أي إن الصورة قرينة الحسي[9].

لكي نفهم الفرق بين الصورة البلاغية و الرمز من جهة، و بين أنماط الصورة ويرجع السبب في إن توزيع الصور أنماط معينة تساعدنا على الوقوف تجاه مستويات متعددة لتجليات الصورة و تمظهراتها في ثنايا الخطاب الروائي (والقصصي)[10] مع وجود موانع إجرائية تعوق عملية الانطلاق في هذا المورد، و ما يهمنا هنا هو تعريف الصورة البلاغية التي سنطابق هذه المجموعة (بئر بروهوت) على وفق مستوى النظر فيها ، من ناحية تنوع الامكانات التي تتشكل منها فهي عبارة عن بوتقة لعناصر منصهرة قابلة للانشطار، لهذا يجب التحدث عن جملة من الصور البلاغية، الاستعارية، المجازية ..الخ[11].

ومن أجل إيضاح ما الاستفادة من الصورة، علينا الإشارة لوظيفتهافي العمل القصصي، في البنية الكلية للعمل القصصي بالذات (مع المراعاة في إننا نتطرق إلى السرد القصصي في القصة القصيرة جداً هناك فرق)على ما يبدو هنالك وظائف عدة يمكن حصرها حالما نقوم بالتحليل الوظيفي للصورة على ضوء توزعها و انتشارها في المتن القصصي، ومادامت الصورة مرتبطة بالمكونات العامة للبنية القصصية فيمكن ان نعدها وسيلة من وسائل إخصاب الدلالة التخيلية للقصة، و بالاستناد إلى ما بينه ستيفن أولمان و غيره في تحديد وظائف الصورة القصصية يمكننا الإشارة إلى الوظيفة المتعلقة بالصورة البلاغية التي ركز عليها القاص في إرساليته للصورة القصصية في المتن القصصي ، لأن البلاغة في الصورة، لا تعني البلاغة في اللغة ، إذ إن هناك نوعاً من الصور يكتسب أهمية بالغة، باتخاذها صيغة رمز، أو هو بالرمز أوثق ، لأن حضوره كصورة في النسيج القصصي وهيمنته يشكل تثبيت لمعطى البلاغة التي يحرص القاص على ترويجها، إذا ما فهمنا إن بعض وظيفة الصورة تتجلى في ستراتيجية بزوغها، وتتركز الصورة البلاغية في أعطاف الصورة الوصفية، والصورة السردية، وهي الصورة التي تعرفها سيزا قاسم بقولها (هي الصورة التي تعرض الأشياء متحركة[12] حيث نجد إن كلا الصورتين الوصفية والسردية). إضافة إلى الصورة البصرية كـ (الصورة السينمائية) تساهمان في إنتاج البلاغة في الرمز الذي يحرص القاص هنا في تناوله ، المتمثل بالعنوان الرئيس (بئر بروهوت) الذي يعني تشظيه في قيم الشر التي وزعها في قصصه القصيرة جداً البالغة (86) فسعي القاص الى التركيز على استخدام الوصف والسرد معاً في تلك الإقصوصات، والغاية منه إثبات إن البلاغة اللفظية(الكلامية اللغوية) هي التي تؤطر الصورة البلاغية في تحويل رمزالشر إلى حدث، و طرق ترويجها، ففي الصورة الوصفية لإقصوصة (نجمة ص7) نجد آلية تكوين الصورة تتكثف في قدرتها على الإيحاء (دهاليز عينيها) و (سلالم شعرها) و تحويل كلا الصورتين اللتين قوامهما اللغة في الخطاب اللفظي إلى أيقونة بصرية ،

لتبدو الصورتان كنمط إشهاري في إطار علاقات التكوين البلاغي لأن محاولة القاص في اجتياز المنحى السيميولوجي الدلالي في العلامة اللغوية إلى دلالة أيقونية للمرأة المشار إليها بـ(اختبات) هو في الأساس لاذكاء الصورة البلاغية التي اعتمدت على الصورة الوصفية (في اللفظ) و الصورة السردية
(في صوت الراوي الذي اندمج مع المؤلف في تواصل سردي) و لو تحرينا الدقة في العتبة الصغرى (عنوان الاقصوصة نجمة) وجدنا التطابق النصي الموازي مع بنية المتن في نص الاقصوصة هو محاولة في ترحيل تلكما الصورتين إلى تقنية خطابية و حجاجية، الغاية منها إنشاء علاقات نمطية في قواعد تكوين الصورة الإشهارية، كي يهيئ القاص لفقرة تماهي القارئ مع ضمير المخاطب (أنت)[13] ففي هذه الاقصوصة نجد القارئ يعادل الراوي (اختبأت) إلى، ورحلت أبحث عن نجمة بلا ذنوب، لندرك هيمنته البارزة في تكوين قواعد حركة السرد التي تعطي للصورة السردية إيحاء بروكسيمياً، بإشغال فضاء المكان بالإيحاءات التي تملأ المكان بأفق توقعات القارئ في ماهية الـ - نجمة التي تحول إلى دوال خرجت من تلك الدهاليز – الغافية على سكة قطار (وليست حديداً) العشاق الخ و هكذا يمكننا تحليل بقية النصوص على ضوء تحليل بارت السيميولوجي اللغوي، لكن متن المجموعة والتي تمثل الصورة البلاغية الكلية التي يؤكد عليها المؤلف في قدرة القصة القصيرة جداً تأدية عملها، و كأنها عمل روائي، خاصة إذا كانت تحمل من الإيحاءات العلاماتية ما يضعها على مستوى الرمز، لأن القراءة المتأنية تؤتي أكلها ولو بعد حين.

هوامش:

1- (بئر برهوت) قصص قصيرة جداً، جابر محمد جابر، منشورات دار بعل، دمشق، الطبعة الأولى، 2021.
2- ما هي السيميولوجيا، برنار توسان، ترجمة: محمد نظيف، أفريقيا الشرق المغرب، الطبعة الثانية، ص9.
3- سيميائية النص القصصي، د. آمنة يوسف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2016، ص 17.
4- المصدر نفسه ص16.
5- المصدر نفسه ص 18 .
6- المصدر نفسه ص 23.
7- وظيفة الصورة في الرواية النظرية والممارسة، الدكتور عبد اللطيف الزكري، دار كنوز المعرفة، عمان الطبعة الأولى، 2016، ص 16 .
8- المصدر نفسه ص 45 .
9- المصدر نفسه ص 49 .
10-المصدر نفسه ص 61 .
11-المصدر السابق ص 63 .
12-سيميائية النص القصصي، مصدر سابق، ص 289 .
13-الراوي والمروي له والقارئ، دراسات في التواصل السردي، مجموعة من المؤلفين، ترجمة وتقديم: بشار سامي يشوع، الرافدين، الطبعة الأولى، 2018، ص 15.

فيليب روث: ما بعد الحداثة
إنه عقد سيىء، وعلينا جميعا توقعه

أجرى المقابلة: جون فريمان

ترجمة: جواد وادي

كان فيليب روث أكثر الروائيين احترامًا في أمريكا في فترة ما بعد الحرب، ودليلًا حيًا على فكرة أن الروائيين الأمريكيين هم أكثر حيوية عندما يكتبون عن المكان. وُلد روث في نيوارك بولاية نيوجيرسي عام 1933 لربّة منزل ولوكيل تأمين، وعاد مرارًا إلى هذه الفترة في كتاباته، منذ ظهوره الأول حيث حاز على جائزة الكتاب الوطني، "وداعا كولومبوس (1959)، إلى الميراث (1991)، عن مذكرات والده، والأمريكي الراعي (1997)، وهو العمل الحائز على جائزة بوليتزر عن الصراعات بين الأجيال التي اندلعت داخل العائلات والمجتمعات خلال ثورة الثقافة المضادة في الستينيات. ثم أنجز روث، شكوى بورتنوي (1969)، الاعتراف الوهمي لمحلل شاب يهودي مهووس بالجنس، جعله ثريًا، ومستعرا، وذاهلا للنساء.

واصل روث النشر عبر سديم هذه السمعة السيئة، ففي عام 1979 قدم غروره الكبير لمحبوبته، ناثان زوكرمان، من خلال الرواية المثالية، "شبح الكاتب"، ليستمر في كتابة ثماني روايات أخرى لما بعد الحداثة منها: "الحياة المضادة" 1986، و"خروج

الشبح" 2007.

مثل دون ديليو وساول بيلو، كرّس روث مرحلة السبعينات من عمره لتطوير أسلوب متأخر، أنجز فيها أربع روايات طويلة، تناولت: الفناء، الأخلاق، واستمرار الرغبة، خلال هذه الفترة، بدأ يتحدث بشكل علني عن عمله وذلك في عام 2012.

ومع شروع المكتبة الأمريكية في نشر كتبه، في طبعات موحدة، أعلن روث اعتزاله الكتابة، وقال إنه لن يجري مقابلات قادمة.

لا يوجد روائي أمريكي يعي مهنته أفضل من فيليب روث. لكنه في العقد الماضي، عندما أخرج سلسلة من الروايات الحيوية بشكل لافت للنظر عن التاريخ الأمريكي بعد أن بلغ سن السبعين، أصبحت كتبه من أكثر الكتب مبيعًا مرة أخرى، تدّرب روث

على شكل جديد بالنسبة له: التأبين. حيث يكون الكاتب، مرتديًا سترة سوداء وقميص أكسفورد أزرق، في مكاتب وكيله الأدبي في مانهاتن: ”إنه ليس نوعًا أدبيا أريد إتقانه“. يقول: ”لقد حضرت جنازات، دعنا نقول، أربعة من الأصدقاء المقربين، أحدهم كان كاتبًا مهما لم يكن مهيأً لأي شيء..

ويستطرد قائلاً: ”الخطة تسير على هذا النحو“: ”أجدادك يموتون. ثم في الوقت اللاحق يموت والداك، الشيء المذهل حقًا هو أن أصدقاءك يبدأون في الرحيل. وهذا ليس في الخطة “. يقول روث إن هذه التجربة دفعته إلى كتابة ”كل رجل“. يبدأ الحدث في جنازة بطل الرواية الذي لم يذكر اسمه، ثم يتراجع ليعطينا قصة حياة الرجل. من نواحٍ عديدة، ليس كل رجل، شخصية نموذجيَّة من شخصيات روث. يعمل في مجال الإعلان ويبقى أبًا وزوجًا مخلصا لفترات طويلة من الزمن. يقول روث: ”أردت رجلاً من الوضع السائد“. ”لذلك فأن هذا الرجل، يحاول أن يعيش حياة ضمن المواثيق، إنما تخذله الأعراف، لطبيعة ما تفرضه تلك التقاليد.“

بمرور الوقت، وبعد أن شعر بتهالك جسده المنهك، غادر روث طقوس الزواج، وتحولت العلاقة مع شقيقه، مغادرا وظيفته في نهاية المطاف في الإعلانات للتمتع بفترة تقاعده. كل ذلك بينما ساعة جسده تدق وتقترب من النهاية، يمكن قراءة الرواية، التي أطلق عليها روث ذات مرة التاريخ الطبي، مثل الرسم البياني للطبيب. يقول روث، الذي أتم عامه الثالث والسبعين في مارس، ”مع تقدم الناس في العمر، تنحسر سيرتهم الذاتية على ضوء وضعهم الطبي.

ويضيف: إنهم يقضون وقتهم تحت رعاية الأطباء والمستشفيات والصيدليات، وفي النهاية، كما يحدث هنا، يصبحون تقريبًا متطابقين مع سيرهم الطبية.

واعتمادا على الأرقام فقط، واجه روث فكرة الفوز. سكان أمريكا يتقدمون في السن، ومسائل الصحة، في حين أن الوفيات تشغل بالهم. يقول جيروم كروبمان، كاتب العمود الطبي في مجلة نيويوركر وأستاذ في كلية الطب بجامعة هارفارد: ”من الواضح أن روث قد قام بواجبه المنزلي عندما يتعلق الأمر بالعديد من الجوانب السريرية“. يتم وصف العديد من مشاهد التشغيل بالتفصيل، وكذلك الجوانب الفنية للإجراءات. لكن كروبمان يعتقد أن الرواية أكثر من ذلك بكثير. ” إن لحم الكتاب، وقلبه، هو قصة هذا الرجل والحالة الإنسانية، والأخطاء التي نرتكبها في الحياة وكيف تعود هذه الأمور بعد ذلك وتظهر فشلها في حمايتنا من الخوف والوحدة وكيف نواجه الأزمات. وبهذه الطريقة، تعتمد الرواية على مسرحية ”كل رجل“ التي ظهرت في القرن الخامس عشر، والتي يلتقي فيها شاب قوي بالموت على الطريق. يقول روث وهو يتذوق اللغة: ”ينطق كل شخص بعد ذلك بما قد يكون قويًا مثل أي سطر مكتوب بين وفاة تشوسر وولادة شكسبير“. ”أوه، أيها الموت، أتيت عندما لم أفكر فيك كثيرًا.“ بطل روث لديه سلسلة من هذه اللحظات. في طفولته، كاد أن يموت من انفجار الزائدة الدودية. وفي شبابه، كان لديه عيد الغطاس وهو يقف على الشاطئ. يقرأ أحد المقاطع: ”أخبرته غزارة النجوم بشكل لا لبس فيه أنه محكوم عليه بالموت“.

كتب روث عن الوفيات من قبل. تناول الموضوع بشفقة في مذكراته الحائزة على جائزة دائرة نقاد الكتّاب الوطنية، وبروح الدعابة الهستيرية في روايته "مسرح السبت" التي حاز فيها على جائزة الكتّاب الوطنية الثانية. كان السطر الأخير من هذا الكتاب يقول: "كيف يمكنه المغادرة؟ كيف يمكنه الذهاب؟ كل ما يكرهه كان هنا".

ومع ذلك، ليس لدى كل شخص أي من هذه التهاويل المفرطة. يقول الشاعر مارك ستراند، أحد أصدقاء روث منذ أكثر من أربعين عامًا: "إنها معتمة للغاية، ولا تغيب عنها روح الدعابة العالية المعتادة التي يستطيع روث إدخالها في الروايات".

سيكون من المثير للاهتمام معرفة ما إذا كان قرّاء روث سيتبعونه في هذه المنطقة المظلمة. وبحسب ما ذكر، بيعت روايته السابقة، "المؤامرة ضد أمريكا"، عشرة أضعاف عدد النسخ المطبوعة بأغلفة صلبة مثل الكتب التي سبقتها. يرفض روث، الذي كان ممتنًا ولكنه يشعر بالحزن، أن يدع هذه الحقيقة تداعبه. يقول: "حسنًا، هذا لا يغير رأيي في الحقائق الثقافية". "إذا كان هذا الكتاب أو كتاب جوان ديديون هو ما يثير إعجاب الناس، فإنه لا يغير حقيقة أن القراءة ليست مصدرًا للرزق أو المتعة لمجموعة اعتادت القراءة لكليهما"

لم تتغير طريقة كتابة روث منذ عقود. يقول: "أكتب القطعة من البداية إلى النهاية" موضحًا كيف يعمل، "في المسودات، وأوسعها من الداخل، مما يعني أنني لا أميل إلى العمل عن طريق الإضافة. لدي القصة، وما أحتاج إلى تطويره هو أشياء في القصة تمنحها المادة، والتي تزيد من الفائدة".

عندما يصل روث إلى نقطة لا يستطيع فيها القيام بالمزيد من العمل، يأخذ المخطوطة إلى مجموعة مختارة من القرّاء الأوائل. "وبعد ذلك سأذهب وأجلس معهم لمدة ثلاث أو أربع ساعات، ومهما طال الوقت، أستمع إلى ما سيقولونه. بالنسبة للكثير منها لا أقول أي شيء. كل ما يقولونه مفيد. لأن ما أحصل عليه هو لغة شخص آخر حول كتابي. هذا هو المفيد. ما يفعلونه هو تقويم الكتاب، ويمكنني بعد ذلك العودة لتنقيح أخير ".

يقول الروائي بول ثيرو، الذي قرأ الكتاب "في جلسة واحدة" ثم مرة أخرى "بمزيد من المتعة والإعجاب"، إن دراسة روث المتأنية لتأثير قصته تتألق من خلالها. "الشيء الذي أحترمه كثيرًا هو طابع روث الظاهر، في الواقع تم بناء آثاره بعناية."

في هذه الحالة، فإن قدرة روث على العمل من دون حركاته المثيرة المعتادة، هي ما يجعل الرواية مثيرة للإعجاب بالنسبة إلى ثيروكس، بحيث أن قوتها تتصاعد من تفاصيلها المقنعة، الأشخاص المدركون تمامًا، للتعبير عن نقاط ضعفهم على وجه الخصوص".

في الماضي، كتب روث سيرته الذاتية بما يكفي لدرجة أنه من المغري الخلط بينه وبين شخصياته ونقاط ضعفهما. خلال الستينيات، عندما كانت شكوى بورتنوي تحصد نصف مليون نسخة في المبيعات، حتى جاكلين سوزان، مؤلفة كتاب" وادي الدمى" قالت مازحة بأنها تود مقابلته لكنها لم تكن متأكدة من رغبتها في مصافحته. كل رجل له نصيبه من لحظات روث، مثل كل رجل بشكل ملحوظ في السبعينيات من عمره، على سبيل المثال، لكنهم يميلون إلى أن يكتبوا مذكرات سير ذاتية رقيقة. يلمح المشهد الافتتاحي إلى جنازة صديق روث المقرب ومعلمه الأدبي، شاول بيلو. لاحقًا، بعد عدة عمليات جراحية، لتدعو شخصية روث أصدقاءه المرضى ليقولوا وداعًا.

أخيرًا، تزور الشخصية قبر والديه وتلتقي بالرجل الذي ربما حفر قبرهم. يقول ستراند: "هذا يعتمد بشكل شبه مؤكد على تجربة روث". "لم يضيع شيء على فيليب، كل ما يمكن استخدامه، سيفعله ". ومع ذلك، سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن روث يفكر في النهاية بأيدٍ مرتعشة.

شخصيًا، يظهر الروائي بشكل سليم، يصل إلى المقابلة بحقيبة من القماش الخشن مثل رجل عاد لتوه من صالة الألعاب الرياضية. بصره قوي وحاد. الموت لا يخيفه. يقول ضاحكًا: "لم يكن الكتاب في ذهني بسبب موتي، والذي لا أعتقد أنه كذلك، آمل الا يكون وشيكًا". حتى عندما خضع روث لعملية قلب مفتوح في عام 1988، لم يفكر مرتين في النهاية. "حسنًا، لم أصدق مطلقًا أن صلاحيته ستنتهي. كنت متأكدًا تمامًا من أن هؤلاء الرجال يعرفون ما كانوا يفعلونه، وأنهم سيفعلون ذلك،وقد فعلوا.

يقول ستراند: "لقد تعرض لانتكاسات جسدية، لكنه بدأ أقوى بكثير وأكثر رياضية من بقيتنا. عندما التقيت به كان لاعب بيسبول رائعًا: يمكنه ضرب الكرة لمسافة ميل. ومن الناحية الفكرية، هو أحد أكثر الأشخاص اليقظين الذين قابلتهم على الإطلاق. إنه يقدم قصصًا ساحرة ومرحة ". يقول روث: "عندما كنت طفلاً، كان والدي يعمل في مجال التأمين، وكان لديه كتيبات للحسابات، وعرفت أن النساء كن يبلغن من العمر 63 عامًا، والرجال 61 عامًا. والآن أعتقد أن عمرهم بلغ 73 عامًا. تغيرت بشكل كبير عندما نفكر في كل التقدم الطبي في حقبة ما بعد الحرب، يرى كروبمان حقيقة محزنة معينة في هذا. "هناك وهمٌ منتشرٌ للغاية مع كل التكنولوجيا التي لدينا، وهناك شعور بضرورة التحكم في نتائجنا السريرية ". ولكن، كما أوضح بطل روث، وكما نفعل جميعًا، هذا ليس هو الحال. "العقد هو عقد سيء وعلينا جميعًا الاقتناع به"، قال روث ساخرًا. في القرن التاسع عشر، مثل رواية تولستوي "موت إيفان إيليتش"، أدى الوعي بنهاية الحياة إلى وصول الشخصيات إلى الله. وليس من أجل رواية روث. أو لخالقها يقول: "لا شيء يجبرني على ذلك".

الخراف السود
قصة: هاينرش بول

ترجمها عن الألمانية: د. ماهر حوني*

تقديم:

(الخراف السود) قصة ساخرة ، كتبها هاينرش بول الذي نشرها بأسم مستعار ففاز المؤلف المجهول آنذاك هاينريش بول بالجائزة الأدبية للمجموعة 47 في الاجتماع الذي عقد في باد دوركهايم في بداية مايو 1951. في 12 يونيو من العام ذاته وتمت قراءة القصة القصيرة في اذاعة SWF ، وفي ايلول 1951 تكفلت بنشرها دار نشر اوبلادن. وحتى نهاية نيسان 1951، عمل بول كعامل أُجرة مؤقت في مدينة كولونيا. بعد حصوله على الجائزة ، لم يعد مضطرًا إلى تبرير وظيفته الجديدة. ومنذ ذلك الحين، عمل بول ككاتب مستقل. فقد مهد عقد المؤلف مع مؤسسة
Kiepenheuer & Witsch الطريق لمستقبله الأدبي.

عندما يتفاعل القاص مع قصته، يشعر أن حياته تقترب من نهايتها. العلامات لا لبس فيها. داخل عائلته، يعد نفسه الحلقة الأخيرة في سلسلة (الخراف السوداء) التي لم تمزق لأجيال لاحقة. في أي وقت كان هناك شخص واحد في الأسرة. فيُدرك الراوي هاينرش بول أنه يجب أن يكون (الخروف الأسود) الآن. لإثبات ذلك، يقدم القاص شخصية العم أوتو ، الذي لم يلتزم بقواعد التعايش بين الطبقة الوسطى خلال حياته ، بل فضل الحفاظ على

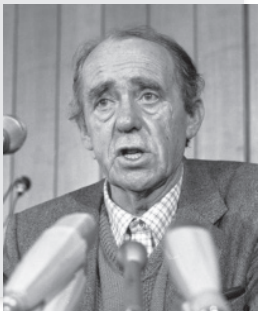

حريته. يعيش العم أوتو مديوناً. يقترض مبالغ قليلة من رب الأسرة. في كل مرة ينسج كلمة ''قصيرة المدى''، التي تخشى الأسرة بأكملها النطق بها ، خصوصاً في طلب المال.

يتحول الراوي بسرعة إلى شخصية ذات خصوصية. في اليوم الأخير من حياته، حصل العم أوتو على جائزة يانصيب كبيرة وتوفي في حادث مروري في طريقه إلى المنزل. مع الربح ، يمكن تسوية جميع الديون - التي لاحظها المتوفى بعناية خلال حياته -. كان العم قد ترك الباقي إلى الراوي في وصيتة. لذلك عرف العم أوتو خليفته. وكان على حق. ينفصل الراوي عن حياة الطبقة الوسطى بعد الميراث، ويحتفل بالميراث ، ويفوز باليانصيب ، وبالتالي يمكنه بسهولة سداد جبل الدين الضخم ولا يزال لديه مهمة صعبة. وفقًا لقانون المسلسل، يتعين على

الراوي الآن أن ينظر حوله بحثًا عن خليفته قبل وقت قصير من الموت الوشيك المفترض. ما هو اسم صبي من الأسرة الذي يحدد اسمه في وصيته؟

الخراف السود

يبدو أنني أُخترت لمنع انفصام سلسلة الخراف السود في جيلي. لذا يجب أن يتم إختيار أحداً ما ، فوقع الاختيار علي. لم يخطر ببالي من قبل ، لكن لا يوجد شيء يمكن فعله حيال ذلك إلا أنا. يدعي الحكماء في عائلتنا أن تأثير العم أوتو عليّ لم يكُن كبيراً.كان العم أوتو الخروف الأسود للجيل السابق وعرابي. يجب أن يكون شخصًا ما ، فكان هو ذاته. بالطبع ، تم إختياره ليكون الأب الروحي قبل أن يبدو عليه الفشل. وأنا أيضًا ، لقد جُعلت الأب الروحي لطفل صغير والذي اخذ الآن يبتعد عني خائفاً بعد أن كان يُعتقد أنني أسود. في الواقع يجب أن يكون المرء ممتنًا لنا ، فالعائلة التي ليس لديها خروف أسود ليست عائلة مميزة.

بدأت صداقتي مع العم أوتو في وقت مبكر. غالبًا ما كان يأتي إلينا ، ويحضر معه المزيد من الحلويات أكثر مما يعتقد والدي ، أنه كان على حق ، ويتحدث ويتحدث ، وفي النهاية يحاول الضخ.

عرف العم أوتو أنه لايوجد بصراحة اختصاصٌ يتوجه اليه.. منتعلاً لا علم الاجتماع ولا الأدب ولا الموسيقى ولا الهندسة المعمارية ولا في كل شيء في حقيقة الأمر. كان يعرف شيئًا ما. حتى الخبراء أحبوا التحدث إليه ، ووجدوه محفزًا وذكيًا ولطيفًا للغاية ، إلى أن استيقظتهم صدمة المحاولة اللاحقة للضخ ، لأن ذلك كان أمرًا فظيعًا. فهو لم ينفجر بين الأقارب فحسب ، بل نصب فخاخه الغادرة أنى كان ذلك مفيدًا له.

كان الجميع يرون أن معرفته يمكن أن تكون "فضية" - هذا ما أطلقوه عليه في الجيل السابق ، لكنه لم يكسيها بالفضة ، بل كسا أعصاب الأقارب.

ويبقى سره كيف تمكن من خلق انطباع. أنه لم يفعل ذلك اليوم. لكنه فعل. بانتظام. لا هوادة في الأمر. أعتقد أنه لا يستطيع أن يفوت فرصة. كانت خطاباته آسرة للغاية ، ومليئة بالعاطفة الحقيقية ، ومدروسة جيدًا ، ومضحكة ببراعة ، ومدمرة لخصومه ، ومثيرة لأصدقائه ، ويمكنه التحدث عن كل شيء جيدًا بحيث لا يمكن تصديقه ...! لكنه فعل. كان يعرف كيف يعتني بالأطفال على الرغم من أنه لم يسبق له أن أنجب أطفالًا ، وأشرك النساء في محادثاتٍ جذابةٍ للغاية حول الأنظمة الغذائية لأمراضٍ معينة ، واقترح أنواعًا من المسحوق ، وكتب وصفات مرهم على قصاصات من الورق ، ونظم كمية ونوعية مشروباتهن .... نعم ، كان يعرف كيف التعامل مع الطفل الباكي ، فيأمنه ، فيسكت الطفل فورًا. كان هناك شيءٌ سحري فيه. لقد حلل السيمفونية التاسعة لبيتهوفن أيضًا ، ووضع المستندات القانونية ، وسمى رقم القانون الذي أصبح موضع تساؤل من رأسه ...

لكن في أي مكان ومهما كانت المحادثة ، عندما اقتربت النهاية ، جاء الوداع بلا هوادة ، عادةً في القاعة ، عندما كان الباب مغلقًا ، قام بإغلاق رأسه الشاحب بالعيون السود الحيوية مرة أخرى وقال كما لو كانت هناك أشياءٌ بجانبه ، وسط خوف الأسرة المنتظرة ، قال لرب الأُسرة: "بالمناسبة ، ألا يمكنك الاضرار بي؟"

وتراوحت المبالغ التي طلبها بين المارك الواحد والخمسين ماركاً. كان الخمسون هو الأعلى أجراً على الإطلاق ، وعلى مدى عقود ظهر قانون غير مكتوب ينص على ألا يمكنه أبدًا أن يطلب المزيد. وأضاف قائلاً "على المدى القصير!". كانت كلمته المفضلة على المدى القصير. ثم عاد ، ووضع قبعته على المشجب مرة أخرى ، ونزع الشال من رقبته وبدأ يشرح سبب حاجته إلى المال. كان لديه دائما خطط ، خطط معصومة عن الخطأ. لم تكُن به حاجة إلى ذلك بشكل مباشر، ولكن من أجل إعطاء وجوده أساسًا قويًا في النهاية، كانت خططه تتأرجح عند كشك لبيع عصير الليمون وكان يتوقع منه دخلاً ثابتًا ومستمراً، يفكر بتأسيس حزب سياسي من شأنه أن ينقذ أوروبا من الانهيار!.

أصبحت عبارة "بالمناسبة ، هل يمكن أن تخبرني ..." كلمة فظيعة في عائلتنا ، كانت هناك نساء وخالات وعمات وبنات أخوات .. كن على وشك الإغماء من كلمة "قصير المدى".

العم أوتو - أفترض أنه كان سعيدًا تمامًا عندما سار على السُلم - ذهب إلى الحانة القريبة ليفكر في خططه. قام بتشغيلها في ذهنه بعد رشفة من الخمرة أو شرب ثلاث زجاجات من النبيذ ، إعتمادًا على الكمية التي سيخرجها.

لا أريد إخفاء حقيقة أنه شرب أكثر من ذلك. لقد شرب ، لكن لم يره أحد في حالة سكر. من الواضح أنه شعر بالحاجة إلى الشرب بمفرده. كان تقديم الكحول له لتجنب محاولة الضخ أمرًا لا طائل من ورائه. برميل نبيذ كامل لم يمنعه ، عندما قال وداعًا ، في اللحظة الأخيرة ، غرس رأسه في الباب مرة أخرى وسأل: "بالمناسبة ، ألا يمكنك لفترة وجيزة ...؟"

لكن حتى الآن التزمت الصمت بشأن أسوأ مايحمله من صفات: كان يعيد المال أحيانًا. بدا أحيانًا أنه يستحق شيئًا أيضًا ؛ وبصفته محاميًا متدربًا سابقًا ، أعتقد في بعض الأحيان أنه قدم المشورة القانونية. وصل بعد ذلك ، وأخذ من جيبه ورقةً نقديةً، وفركها بحب مؤلم وقال: "لقد كنتَ طيبًا لمساعدتي ، ها هي الخمسة!" ثم غادر بسرعة كبيرة وعاد بعد يومين في الساعة. آخر من مات وطلب مبلغًا أعلى بقليل من المبلغ الذي اعاده. ويبقى سره كيف استطاع أن يعيش ما يقرب من ستين عامًا دون حصوله على ما اعتدنا على تسميته بوظيفة حقيقية. ولم يمت بأي حال من الأحوال بمرض كان يمكن أن يصاب به بسبب معاقرته الخمر. لقد كان بصحةٍ جيدة ، وكان قلبه يعمل بشكل رائع ، وكان نومه مثل نوم طفل سليم ناعم وينام بعد العشاء بضمير مرتاح. كلا ، لقد مات بصورةٍ مفاجئةٍ: حادثةٌ وضعت نهاية لحياته ، وما حدث بعد وفاته يبقى أكثر الأشياء غموضاً فيه.

العم أوتو ، كما قلت ، مات بسبب حادث. صدمته شاحنة بثلاث مقطورات وسط صخب المدينة ، ومن حسن الحظ أن رجلًا أمينًا حمله وسلمه إلى الشرطة وأبلغ العائلة. وجدَ في جيوبه محفظة تحتوي على ميدالية مريم العذراء ، وبطاقة لرحلتين وأربعة وعشرون ألف مارك نقدًا ، ونسخة من إيصال كان عليه أن يوقعه لأخذ اليانصيب ، ما كان بإمكانه ، لأكثر من دقيقة ، وربما أقل إحتمالًا أن يكون قد حصل على المال ، حيث دهسته شاحنة على بعد خمسين ياردة تقريباً من مكتب اليانصيب.

تبع ذلك الآن أمر مخجل للأُسرة. كان الفقر يعربد في غرفته: طاولة وكرسي وسرير

وخزانة ، وعدد قليل من الكتب ودفتر كبير ، وفي هذا الدفتر قائمة مفصلة بكل من تلقى أموالاً منهم ، بما في ذلك ماقام بضخه في الليلة السابقة ، فقد جلب له ذلك أربع ماركات. أيضا وصية مقتضبة جعلتني وارثًا اياه.

والدي ، بصفته منفذًا للوصية ، تم التفاهم معه لسداد المبالغ المستحقة. في الواقع ، ملأت قوائم دائني العم أوتو دفتر الكورتو بالكامل ، ويعود قيده الأول إلى تلك السنوات عندما قطع تدريبه في المحكمة وفجأة كرس نفسه لخطط أخرى كلفته الكثير من الوقت والمال للنظر فيها. بلغ مجموع ديونه ما يقرب من خمسة عشر ألف مارك ، وعدد دائنيه أكثر من سبعمائة ، بدءاً من قاطع التذاكر في الترام والبالغة ثلاثين فنغًا مقابل تذكرة نقل حتى دين والدي ، الذي إستعاد ما مجموعه ألفي مارك لأن العم أوتو ضخه بصورة اقل.

الغريب أنني بلغت سن الرشد في يوم الجنازة ، لذلك كان يحق لي أن أرث العشرة آلاف مارك ، وأوقفت على الفور الدراسة التي كنت قد بدأت للتو فيها من اجل تكريس نفسي لخطط أخرى. رغم دموع والديّ ، إلا أني ابتعدت عن المنزل للانتقال إلى غرفة العم أوتو ، وقد جذبني المكان هناك كثيرًا ، وما زلت أعيش هناك حتى اليوم ، على الرغم من أن شعري بدأ يخف منذ فترة طويلة. لم يزداد المخزون ولم ينقص. أعلم اليوم أنني بدأت مع بعض الأشياء بشكل خاطئ. كان من العبث أن أحاول أن أصبح موسيقيًا ، ناهيك عن التأليف ، فليس لدي موهبة في ذلك. أعلم اليوم ، لكنني دفعت ثمن هذه الحقيقة لثلاث سنوات من وقت الدراسة غير الناجحة ومع اليقين من الحصول على سُمعة كوني غير دافع للضرائب ، وإلى جانب ذلك ، فقدت الميراث كله ، لكن ذلك كان منذ وقت طويل.

لا أتذكر كيف كنت أُنظم خططي، فقد كان هناك الكثير منها. فضلاً عن ذلك ، كانت المواعيد النهائية التي أحتاجها لمعرفة عدم جدواها ، فكانت أقصر وأقصر. وأخيرًا، استمرت الخطة لثلاثة أيام فقط ، وهي فترة قصيرة جدًا حتى بالنسبة للخطة. تضاءل عمر خططي بسرعة كبيرة لدرجة أنها في النهاية كانت مجرد أفكار موجزة وامضة لم أستطع حتى شرحها لأي شخص لأنني لم أستطع فهمها بنفسي. عندما أُعد أنني قد كرست نفسي لعلم الفسيولوجيا لمدة ثلاثة أشهر ، حتى قررت أخيرًا ، في ظهيرة واحدة أن أصبح رسامًا وبستانيًا وميكانيكيًا وبحارًا ، وأنني قد أنام معتقدًا أنني وِلدت مدرسًا ، واستيقظت على قناعة تامة بأن مهنة الجمارك هي ما قصدت أن أعمل فيها ...!

باختصار ، نسبيًا لم يكُ لدي لطف العم أوتو ولا مثابرته الكبيرة ، إلى جانب ذلك ، أنا لست متحدثًا ، أجلس في صمت مع الناس ، أتحملهم وأُحضر لمحاولاتي لإنتزاع المال منهم بصورة مفاجئة ، وفي صمتٍ ، يبدو لهم إبتزازاً. لا يمكنني التعامل إلا بشكل جيد مع الأطفال ، على الأقل يبدو أنني ورثت هذه السمة من العم أوتو بوصفها سمة إيجابية. يهدأ الأطفال بمجرد أن يكونوا بين ذراعيَ ، وعندما ينظرون إليّ يبتسمون قدر استطاعتهم ، على الرغم من أنه يقال إن وجهي يخيف الناس. لقد نصحني الأشخاص الخبثاء بأن أكون أول ذكرٍ يؤسس فروع رياض الأطفال وأن انهي سياسة التخطيط التي لا نهاية لها عن طريق تحقيق هذه الخطة. لكني لا أفعل ذلك. أعتقد أن هذا ما يجعلنا اناس مستحيلين وأننا لا نستطيع بيع قدراتنا الحقيقية نقدًا - أو

كما يقولون الآن: استخدمها تجاريًا.
على أي حال ، هناك شيء واحد مؤكد : إذا كنت خروفًا أسوداً - ولست مقتنعًا بأي حال من الأحوال - ولكن إذا كنت كذلك ، فأنا أمثل سلالة مختلفة من صلب العم أوتو: ليس لدي خفته ولا سحره ، وإلى جانب ذلك ، فإن ديوني تثقل كاهلي ، بينما كان يبدو أنها أثقلته قليلاً. فعلت شيئًا مروعًا: استسلمت - طلبت وظيفة. طلبت من العائلة مساعدتي في العثور على سكن ، والسماح عن طريق علاقاتهم بالحصول على عمل ، من أجل تأمين المصاريف الثابتة مقابل خدمة معينة مرة واحدة على الأقل. وحققوا لي ذلك. بعد التخلي عن الطلبات ، وصياغة التعويذات كتابيًا وشفويًا ، بشكل عاجل ، وبالمناشدة ، شعرت بالرعب عندما تم أخذها على محمل الجد وأدركت أني فعلت شيئًا لم يفعله أي خروف أسود من قبل: لم أتراجع ، ولم أجتمع معهم في الحديث عن ذلك ، وانما استلمت الوظيفة التي وجدوها لي. لقد ضحيت بشيء ما كان يجب أن أضحي به: حريتي!
كنت كل مساء ، عندما أعود إلى المنزل متعبًا ، و منزعجًا ، لأن يومًا آخر من حياتي قد مر ولم يجلب لي سوى التعب والغضب والمال بقدر ما هو ضروري لأتمكن من مواصلة العمل ؛ إذا كان من الممكن تسمية هذه المهنة بالعمل: فرز الفواتير أبجديًا ، وضربها ، ووضعها في ملف جديد تمامًا حيث يتحملون بصبر مصير عدم دفع المستحقات للأبد ، أو كتابة رسائل المبيعات التي تسافر دون جدوى إلى الأماكن الخاصة بالطلب وتكون مجرد عبء غير ضروري على ساعي البريد. أحيانًا أيضًا لكتابة فواتير يتم دفعها نقدًا في بعض الأحيان. اضطررت للتفاوض مع المسافرين الذين حاولوا عبثًا بيع القمامة التي صنعها رئيسنا لعميلٍ ما. رئيسنا ، هذا الوحش الذي لا يهدأ الذي لا يملك الوقت ولا يفعل شيئًا ، الذي يتحدث عن ساعات النهار الثمينة بعناد - وجودٌ قاتلٍ لا معنى له - لا يجرؤ على الاعتراف بمبلغ ديونه ، والذي يتنقل من خدعة إلى خدع ، البهلوان البالوني الذي يبدأ أحدهم في الانتفاخ بينما الآخر على وشك الانفجار: ما تبقى لهم هو قطعة قماش مطاطية مثيرة للاشمئزاز لا تزال تحتفظ باللمعان والحياة والسمنة.
كان مكتبنا بجوار المصنع مباشرةً ، حيث صَنَعَ العشراتُ من العمال الأثاثَ الذي يتم شراءه ليكون المشتري منزعجًا من حياته إذا لم يتخذ قراراً لتحطيمه بعد ثلاثة أيام: طاولات التدخين وطاولات الخياطة والصناديق والأدراج الصغيرة والكراسي الصغيرة المطلية بشكل متقن والتي تنهار خلال ثلاث سنوات ، وإطارات صغيرة للمزهريات أو أواني الزهور ، ومناديل صغيرة تبدو وكأنها تدين بحياتها إلى فن النجار بينما في الواقع لا يطليها سوى دهان منازل بطلاءٍ سيئ والذي يستخدم للورنيش ، ويعطي جمالًا زائفًا وهذا مايجب أن يبرر سعرها.
لذلك قضيتُ أيامي الواحدة تلو الأخرى – كانت قرابة أربعة عشر يوماً - في مكتب هذا الشخص الغبي الذي كان جاداً مع ذاته وعّد نفسه أيضًا فنانًا ، لأنه في بعض الأحيان - حدث ذلك مرة واحدة فقط أثناء وجودي هناك - شوهد وهو يقف عند لوحة الرسم ، يعبث بالأقلام والورق وتصميم بعض الأشياء أو حامل زهور أو بار منزل جديد ، إنه مصدر إزعاج آخر لأجيال.
لا يبدو أن العبث المميت بأجهزته قد ثار

عليه. عندما صمم شيئًا كهذا - حدث مرة واحدة فقط ، كما قلت ، عندما كنت برفقته - انطلق في سيارته لأخذ استراحة أسطة ، امتدت على مدار ثمانية أيام ، بينما كان قد عمل لمدة خمس عشرة دقيقة فقط. تم إلقاء الرسم على السيد ، الذي وضعه على طاولة عمله ، وتمعن فيه عابساً ، ثم قام بفحص مخزون الخشب لبدء الإنتاج. لأيام رأيت خلف النوافذ المتربة للورشة – حيث أطلقت تسمية المصنع عليها - كيف تراكمت الإبداعات الجديدة: ألواح جدارية أو طاولات راديو تكاد لا تساوي الغراء الذي أهدر عليها. الأشياء الوحيدة التي يمكن استخدامها هي الأشياء التي صنعها العمال دون علم رئيسهم ، عندما كان غيابه مضمونًا لبضعة أيام: عُصي ساندة أو صناديق مجوهرات ذات صلابة وبساطة مبهجة ، سيظل أحفاد الأحفاد يُركِبونها أو يحتفظون بأمتعتهم بداخلها ورفوف غسيل قابلة للاستخدام والتي لا تزال قمصان بعض الأجيال ترفرف عليها. لذلك فإن البضاعة المسكينة والمفيدة تم إنشاؤها بطريقة غير شرعية.

لكن الشخصية المثيرة للإعجاب حقًا التي قابلتها خلال هذا الفاصل من النشاط المهني - كانت قائد الترام الذي ختم يومي وجعله باطلاً بثقبه للتذكرة بثقابة التذاكر ، التقط هذه القصاصة الصغيرة من الورق ، بطاقتي الأسبوعية ، ودفعها في فم الثاقبة المفتوح ، وجعل الحبر يتدفق بشكل غير مرئي ، سنتمتران يسيلان عليها - يومًا واحدًا من حياتي - عفا عليه الزمن ، يوم ثمين لم يجلب سوى التعب والغضب والمال بقدر ما هو ضروري لمواصلة هذا الاحتلال غير المجدي. كانت العظمة المصيرية في هذا الرجل مرتديًا البدلة الرسمية البسيطة لسكك حديد المدينة ، والذي كان بإمكانه إلغاء آلاف الأيام البشرية كل مساء.

حتى اليوم لا زلت أشعر بالضيق لأنني لم أُخطِر رئيسي في العمل بتركي للعمل قبل أن أُجبر على ذلك. لم أرميه بالكراكيب قبل أن يجبرني على ذلك، لأنه في يوم من الأيام أحضرت موظفة الاستقبال شخصًا عابسًا إلى مكتبي ، والذي قدم نفسه على أنه منظم يانصيب وشرح لي أنني أمتلك ثروة قدرها خمسون الف مارك ألماني شريطة ان أكون كذا وكذا ويجب ان تكون كذا ويجب في يدي ورقة يانصيب معينة. حسنًا ، لقد كنت كذا ووضع ، وكان لدي ورقة يانصيب. تركت وظيفتي على الفور دون سابق إنذار ، وأخذت على عاتقي أن أترك الفواتير بدون ضغط ، ولم يتم فرزها ، ولم يكُ لدي خيار سوى العودة إلى المنزل ، وجمع الأموال وإعلام الأقارب بالوضع الجديد من قبل ساعي البريد.

بينما إشترت أختي على الفور تذكرة لإبنها ، ابني الحبيب ، أشغل نفسي الآن بالتفكير والتفكير لساعات حول من سيتبعني في هذا الجيل الذي ينمو هناك ، أي من هؤلاء الأطفال المزدهرون والمرحون والجميلون الذين انجبهم إخوتي وأخواتي إلى العالم ، هل سيكونون الخراف السوداء للجيل القادم؟ لأننا عائلة مميزة وسنظل كذلك. من سيكون جيدًا لدرجة أنه لن يكون جيدًا؟ مَن الذي سيرغب فجأة في تكريس نفسه لخطط أخرى ، معصومة من الخطأ ، وخطط أفضل؟ أود أن أعرف ، أود أن أحذره ، لأن لدينا أيضًا خبراتنا ، ومهنتنا لها أيضًا قواعدها الخاصة باللعبة ، والتي يمكنني أن أقولها له ، خليفة ، لا يزال مجهولاً في الوقت الحالي ومثل الذئب

في ثياب الحمل يلعب في حشد من الآخرين يبدو أنهم توقعوا أنني سأموت قريبًا أو أكون ضحية لحادث. لكن في الوقت الحالي ، لا يبدو أنه تم تصميم أي سيارة لحرماني من الحياة ، وقلبي بصحة جيدة ، على الرغم من أنني لا أزدري الخمرة أيضًا. بعد سداد ديوني ، أصبحت أملك ثروة تقارب الثلاثين الف مارك ألماني ، معفاة من الضرائب ، وعمنا مديوناً ، أصبح فجأة قادرًا على الوصول إلى ابنه مرة أخرى. بشكل عام ، الأطفال يحبونني ، والآن يمكنني اللعب معهم ، وشراء الكرات لهم ، ودعوتهم إلى تناول الآيس كريم بالكريمة ، وشراء مجموعات ضخمة من البالونات ، وأعمِرُ مع ركوب الأراجيح التي بشكل القارب واراجيح المرح. لكن لدي شعور مخيف بأنني لن أعيش طويلا بما يكفي للتعرف عليه وتعريفه بالأسرار ، سيظهر ، ويخرج عندما أموت ويحين موعد الاستبدال ، سيأتي إلى والديه بوجه ساخن ويقول إنه سئم منه ، وآمل سراً أن يتبقى بعض أموالي لأنني غيرت إرادتي وورثت بقية ثروتي لمن أظهر أولاً العلامات الواضحة على من قدر له أن يخلفني ... الشيء الرئيسي هو أنه لا يدين لهم بأي شيء.

• مترجم وأكاديمي، أستاذ في كلية اللغات/ جامعة بغداد

مطبوعات وصلتنا :

• فؤاد الطائي، معضلات الشكل والمضمون في الفيلم الروائي العراقي،الطبعة الاولى - دار ميرز للنشر-السويد 2023.

• سالم محسن ،كتابات في الأدب والفن ،الطبعة الاولى – منشورات اتحاد الادباء - بغداد2022.

• قاسم حنون ،نحو افق أرحب مقاربات في الثقافة والسياسة ،الطبعة الاولى - السامر للترجمة والنشر والتوزيع – العراق ، البصرة 2023.

• محمد كحط عبيد الربيعي ،المجلات التلفزيونية الصباحية في الفضائيات العربية ،الطبعة الاولى - دار المتن للنشر والتوزيع – بغداد 2023.